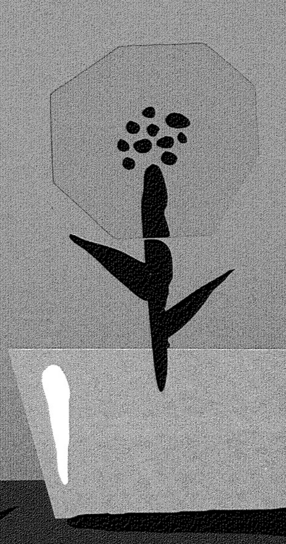
جمال الغيطاني

إبراء الذمة



دار الشروق

إهـــــــداء ٢٠٠٧

اسرة المرحوم الدكتور / السيد عبد الحليم الزيات

جمهورية مصر العربية

إبْرَاءُ الذِّمَّة

الطبعـــة الأولـــى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

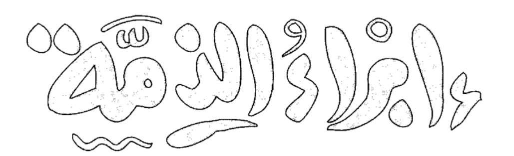
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر

ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٨١٧٢١٣

فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)

جمال الغيطاني



دار الشروق

مفتتح

خلال العقود الثلاثة الأخيرة، تعرض الوطن لمتغيرات عميقة تزايدت في السنوات الأخيرة، مما أدى إلى أنها مست الثوابت. ثمة شعور قوى أن الوطن الذى نشأنا فيه، وتعلمنا حبه، منذ أن وعينا على الوجود، هذا الوطن يبدو أن ظروفا يمر بها خلال تلك الحقبة تؤدى إلى اغتراب وعر، يرجع ذلك إلى أسباب شتى، منها العالمى، والمحلى، منها العابر والمؤقت، غير أن الأسباب الفاعلة، النابعة من التطورات التى شهدها مجتمعنا تظل الأساس. إن الاغتراب الذى أقصده لا يشمل فردا، ولكنه من نوع جديد. باختصار أشعر الآن أن الغالبية العظمى من قومى قد تم إقصاؤهم عن الصورة الفاعلة، وأن قلة محدودة جداً، قلة ظهرت فجأة، لا نعرف أصولها ولا منابعها، أصبحت تستأثر بخيرات الوطن. فى الوقت نفسه بُذل مجهود كبير لتفكيك الذاكرة الوطنية، وتذويب ركائزها، والتشكيك فى عناصرها، بل وصل الأمر إلى حد التشكيك فى فكرة الوطن ذاتها.

إننى أنتمى إلى جيل يميل إلى الغروب الآن، ويا للأسف، فنحن نتأهب لمفارقة مصر مغايرة لمصر التى وُلِدنا على أرضها، ويومًا سنصبح جزءًا من ثراها.

لقد عرفت مصر مراحل مؤلمة فى تاريخها الممتد، الطويل، ولكن ما يمر بها خلال تلك السنوات الأخيرة من القرن العشرين ثقيل، خطير، لقد

اجتازت مصر عبر تاريخها فترات صعبة، وفى الوطن إمكانات يمكن أن تساعد فى اجتياز ما نمر به الآن، ومقاومة المخاطر. وللكتابة دور حتى وإن بدا تأثيرها بطيئا، حتى وإن سادت روح مؤداها: دعهم يكتبون ونحن نفعل ما نفعل.

ما نشأت عليه ونشأ عليه مُعظم أبناء جيلى أن الهم العام بالنسبة إليهم، هم خاص جدًا، لا فصل بين ما هو ذاتى وما ينتمى إلى الشأن العام.

بالتأكيد، أدى الأدباء المصريون دورهم، بالشعر، وبالقصة، والمقال المباشر. وإلى هذا الأخير ينتمى هذا الكتاب. بدأ تكوينه عندما صدرت جريدة «الأسبوع» التى يرأس تحريرها الصديق العزيز مصطفى بكرى، وطلب منى أن أسهم بمقال ثقافى أسبوعى. جاء عرضه فى مرحلة من التأمل المرير، ورأيت أن أخوض مباشرة فى أمور عامة، أن أبرئ الذمة أمام زمن آت، قد يتساءل فيه القادمون بعدنا إذ يقلبون الأوراق: لماذا صمتوا؟!

السؤال الحاضر والإجابات الغائبة

السؤال الفظيع الذى يجب أن نواجهه جميعا ونحاول الإجابة عنه بتلمس الأسباب، يتلخص فى كلمات قليلة: ماذا أوصل هؤلاء الإرهابيين القتلى أو من أفلتوا أحياء إلى هذه الدرجة من الوحشية التى فاقت ضراوة الحيوان؟ أى تكوين أدى بأحدهم إلى ذبح الطفلة الإنجليزية الصغيرة بعد قتلها بالرصاص، وهذا ما لا يحدث فى عالم الوحوش، حتى أحط الأنواع منها؟

طوال الأيام الماضية أفكر فى هذه التساؤلات موجوعًا، محسوراً، خائفًا على هذا البلد الطيب مما ينتظره أكثر من خوفى وألمى على ما جرى. أتأمل صور القتلى الخمسة الذين حوصروا فى المغارة، أتفرس فيها، أحاول بالمخيلة استنتاج ما يكمن خلف تلك الملامح المألوفة لنا والتى نقابل مثلها أينما ولت وجوهنا واتجهت عيوننا. إنها ملامح مصرية للأسف، لم يفد علينا أصحابها من بلد آخر، وليس بينهم أجنبى كما قالت بعض الإشاعات إن بينهم أشخاصا غير مختونين، مما يعكس رغبة دفينة فى أفئدة الناس ألا يكونوا مصريين، ولكنهم للأسف منا، من بيننا. وحتى هذه اللحظة لم نعرف إلا اسما واحداً فقط منهم، هو مدحت محمد عبد الرحمن من محافظة أسيوط، ولا نعرف بالضبط الظروف التى أحاطت بالكشف عن اسمه، وطبقًا لما نشر فإنه تلفظ به بعد أن أطلق عليه زملاؤه النيران حتى لا

يتكلم. حتى الآن، رغم نشر صور القتلى أكثر من مرة، ورغم المكافأة المعلن عنها، لم يتقدم أحد من أهالى القتلى، ولا من جيرانهم، ولا من أصحابهم ليدلوا بمعلومات أو ليقولوا للشرطة حتى أسماء هؤلاء. لذلك تظل غيوم الغموض قائمة، ولكنها تثير الحاجة إلى ذلك التساؤل عن الأسباب التى دفعت القتلة إلى هذه الدرجة من الوحشية.

كثيراً ما رددنا أن الشخصية المصرية لا تميل إلى العنف، وأننا نكره الدم، وهذا حقيقى من خلال تاريخنا. الحضارة المصرية القديمة هى الحضارة الإنسانية الوحيدة التى لم تعرف عقوبة الإعدام، كان للحياة الإنسانية قيمة كبرى عند أجدادنا الفراعنة. كم تبدو المسافة شاسعة بين الأجداد وبعض الأحفاد الذين لم يكتفوا فقط بإزهاق أرواح بريئة، ولكن التمثيل بالجثث، تقطيع ثُدىّ وشق صدور، وفقء العيون طبقًا لنظام دقيق. ثمة تحول مخيف جرى، فَما أسبابه؟ ومن أين منابعه؟

أى فكر حرك هؤلاء؟ كيف تمت السيطرة عليهم إلى هذا الحد؟ كيف أقدموا على هذه البشاعة وهم فى مرحلة غضة من العمر، إذ تتراوح أعمارهم بين العشرين والثانية والعشرين؟ إنها المرحلة التى يتطلع فيها الإنسان إلى الأمام، إلى المستقبل، إلى تحقيق الذات، فكيف يسلك طريق القتل والذبح والوحشية؟ أى ثقافة دفعت بهم إلى تلك اللحظات المأساوية الرهيبة أمام معبد الدير البحرى، والتى لن تمحى آثارها بسهولة لفترة طويلة؟

بقدر ما أفكر فى الضحايا، سواء كانوا مصريين أو أجانب، بقدر ما أفكر أيضا فى القتلة. إن خروج مثل هؤلاء من بيننا لا يمثل إدانة فقط لهم، أو للمشاركين الذين لم يعرفوا بعد، أو للمخططين القابعين فى عاصمة أوروبية ما. قبل كل شيء فإن ظهور مثل هؤلاء الوحوش الآدمية فيه إدانة

للمجتمع الذى أفرزهم، والظروف التى أدت بهم وهم فى مثل هذه المرحلة من العمر إلى تلك اللحظات الدامية.

الفقر ليس سببًا وحيدًا، لقد عرف المصريون صنوفًا من الفقر عبر تاريخهم ولكن لم يصل بعضهم إلى هذه الدرجة من الانحطاط، بل إن القول بالفقر وحده فيه إهانة للفقراء المكافحين، البسطاء.

هل هو الفساد المستشرى فى حياتنا على مختلف المستويات؟ بالتأكيد ليس سببًا وحيدًا أيضًا. فى كثير من مراحل تاريخنا كان هناك فساد ولكن لم يصل رد الفعل المقاوم له إلى هذه الدرجة من الوحشية.

هل هو انسداد أبواب الأمل أمام مئات الألوف من الشباب، ينهون دراساتهم الآن، يؤدون ما عليهم ويتخرجون ليجدوا المجتمع قد تخلى عنهم، والدولة تعلنها صراحة: لن نعين الخريجين. إذن.. إلى أين يذهبون؟ أليس افتقاد الأمل أخطر وأدهى من الظروف الصعبة التى يمكن أن يتحملها الإنسان؟

يقول والد أحد القتلة، وهو الوحيد الذى نعرف اسمه الآن (جريدة الحياة اللندنية ـ ٢٧ من نوفمبر الماضى) إن ابنه خرج من منزل الأسرة فى مدينة البدارى عام ١٩٩٣، بعدما فشلت جهود الأسرة فى الضغط عليه لإبعاده عن نشاط تنظيم الجماعة الإسلامية فى أسيوط. وأشار إلى أن الابن لم يعد إلى المنزل بعد خروجه. وأضاف الأب أنه فوجئ بنشر صور ابنه فى الصحف بعد وقوع عملية الأقصر، ونفى أن يكون ابنه تردد على المنزل منذ خروجه منه فى المرة الأخيرة. أما والدة القاتل القتيل فتدعى سعدية محمد، قالت إن ابنها فشل فى الحصول على فرصة عمل، وإن بعض أعضاء الجماعة الإسلامية فى أسيوط استغلوا الفرصة، واستقطبوه لعضوية التنظيم بعد أن أسندوا إليه مهمة بائع فول. وذكرت أن الشرطة اعتقلت

ابنها فى بداية عام ١٩٩٣ وقضى نحو شهرين فى الاعتقال وبعد إطلاقه كان كارها للدولة، متحاملاً عليها وترك زوجته وأبناءه الثلاثة وغادر المنزل واختفى حتى ظهر قتيلا فى ساحة الدير البحرى بعد أن أجهز عليه زملاؤه حتى لا ينطق.

ماذا جرى له، أو لمثله؟ أو ماذا سيجرى لمن يمر بمثل وضعه الآن، خلال تلك المسافة الفاصلة بين خروجه من بيته وظهوره فى مكان ما وزمن ما ليقتل الأبرياء ويتحول إلى وحش آدمى؟

ماذا يحول الإنسان إلى مرحلة تتجاوز ضراوة الوحوش؟ هذا هو السؤال الذى يجب أن نبحث عن إجابة له. يجب ألا نهدأ، ألا ننسى، ألا نخدع أنفسنا، وأن نواجه الأسباب المؤدية إلى تلك اللحظة المدمرة، الدموية، إذا كنا حريصين على ألا يكون ما جرى مقدمة لما هو أفدح!

لنحذر

مرة أخرى تتجدد الهموم، ضارية، ثقيلة، بغيضة. يصبح هم الوطن وما لحق به أكثر تأثيراً وأفدح خطبًا من شأن خاص. هذا قدرنا منذ أن بدأ تفتحنا وازدهار وعينا، نحن الجيل الذى قدر له أن يعانى منذ بداية الستينيات وحتى الآن، خطب يليه أمر، ومن حفرة إلى مرتقى ثم نصل إلى مفترق تتهددنا فيه الأخطار الخفية، الوعرة.

ما زال وسيظل ما جرى فى ساحة الدير البحرى محوراً وجرحًا لن يندمل بسهولة فى جسد الوطن. لا ألتقى بصاحب أو زميل إلا وتحدثنا فيه. لا أمضى إلى خان الخليلى إلا وينفطر قلبى لوقف الحال والكساد العاجل الذى حل بالمنطقة. لا ألتقى بقادم من المطار إلا ويحدثنى بألم عن الطائرات التى تعود خالية بعد أن كانت ممتلئة. لا تجمعنا جلستنا الأسبوعية بالأستاذ نجيب محفوظ إلا ويدور الحديث حول ما جرى لعدة ساعات. الثلاثاء الماضى وبعد قدر من الصمت، قال فجأة:

«ما أخاف عليه.. الأقباط».

انتبهنا إليه، إن رؤيته الآن ثاقبة، ناصعة، وخبرة السنوات التى أمضاها فى التفكير والإبداع ليست بالهينة. قال إنه يخشى أن يكون الهدف التالى الأقباط لشطر الأمة وإشاعة الفرقة. قال إنه يخشى ذلك.

فى طريق عودتى رحت أفكر فيما قاله أستاذنا، وجدت نفسى أفكر فى الاحتمالات، من ناحية فإن التفكير السليم يجب أن يدفعنا إلى الاحتياط والحذر، فلا شك فى أن ما جرى فى الأقصر ليس نهاية الأمر، بل ثمة تخطيط يجرى الآن فى مكان من هذا العالم، وها قد مضى أسبوعان على الحادث وما تزال أسماء القتلة الستة مجهولة، لم تتوصل الأجهزة المعنية بعد إلى حقيقتها، أو هكذا يبدو الأمر لمن يتابع من بعيد. لم يقبض بعد على المدبرين والمخططين، قادة القتلة يمرحون ويصرحون فى بعض الدول الأوروبية، وعبر الإذاعة البريطانية نعلم أنهم جمعوا من مسجد واحد فقط شمالى لندن مليونين ونصف المليون من الجنيهات.

إذن.. كل الظروف تنبئ أن تصعيداً سيتم. التمويل جاهز، والمخططون يقيمون بعيدا ويلقون دعمًا من أجهزة ضخمة الإمكانات تريد لمصر وقيادتها الوطنية السوء، وفى الواقع الصعب الذى يعيشه شبابنا المهمل ما يدفع بعضه إلى صفوف القتلة.

إذن.. أين الضربة القادمة؟ نرجو من الله العلى القدير أن تجهض أو تفشل. أين يمكن تسديدها؟ وإلى من؟ ومتى؟

لا أتوقع ضربة أخرى ضد السياحة، ليس لقلة السياح، إنما لهول ما جرى فى الأقصر، ولأن القتلة يدركون الآن أن ما حدث منهم يصعب تكراره.

هنا نتفق مع مخاوف الأستاذ.

منذ فترة والولايات المتحدة تشهر ورقة الأقباط وسيلة للضغط على القيادة المصرية الوطنية كرد فعل لمواقفها المتسقة مع حجم مصر ودورها ومكانتها فى قلب الأمة. وهذا سلاح قديم استخدمه الإنجليز زمن الاحتلال ولكن الحركة الوطنية المصرية استوعبته وأجهضته من خلال حزب الوفد

والأحزاب الوطنية، ولنا تراث فى هذا المجال عريق، نرجو التذكير به وإحياءه، ولكن ليس على طريقة هذا البرنامج التليفزيونى الساذج الذى أذيع فجأة منذ عدة أسابيع وكان عنوانه «المسألة القبطية»، وهذا دليل على الغباء الأصم، فأن يظهر برنامج مصرى فى تليفزيون مصر بعنوان «المسألة القبطية» يعنى اعترافًا بما ترده الصحافة الأمريكية والمنابر المشبوهة، ودعما غير مباشر وغير مقصود بالطبع لتلك الحملة الضارية فى الولايات المتحدة التى تحاول اللعب بموضوع العلاقة بين المسلمين والأقباط.

كل الظروف الآن مهيأة لعمل من جانب القتلة يحاول تفجير العلاقة بين المسلمين والأقباط من أبناء الشعب الواحد، ومن ناحية أخرى يعطى الحجة للولايات المتحدة كى تتدخل بشكل سافر. إن كل الاحتمالات مفتوحة فى مواجهة هذه القوة الغشيمة، ولنتذكر دائمًا أن الاحتلال البريطانى لمصر بدأ بخناقة بين حمار ومالطى، طبعا الأسباب تكون أعمق، وكامنة، لكن ما نحذر منه أن يقوم القتلة، أعداء الوطن بعمل إجرامى مثل الهجوم على كنيسة أو مسجد.

هذا ما نرجو أن تنتبه إليه القوى الوطنية قبل أجهزة الأمن، لذلك أتمنى - وما أكثر الأمنيات الآن - أن تتجه جميع الأحزاب الحقيقية والوهمية إلى تكثيف الجهد من أجل الدفاع عن الوحدة الوطنية والتوعية بتراثنا وتقاليدنا فى هذا المجال، وأن تقدم الحكومة على ما يدعم هذا الجهد وأن يتخذ الإعلام من هذه القضية محورًا ومرتكزًا، على أن يتبع الأسلوب الأعمق وليس تقديم البرامج التى تقول إن كل شىء تمام.

لينتبه المسلمون والأقباط.

لينتبه المصريون جميعا فى الداخل والخارج، ولنصلِّ من أجل حماية هذا الوطن الذى سنصبح يومًا ذرات فى ثراه الطيب.

كارثة قومية

«إنه أفظع ما جرى منذ هزيمة يونيو سبعة وستين . . »

هكذا علق أستاذنا نجيب محفوظ على حادث الأقصر فى يوم وقوعه. كان حزينا، متألمًا إلى الدرجة التى لم يستطع فيها النوم يومين متتاليين، ولم يكن ذلك إلا تعبيراً عن حالتنا جميعًا، على المستويين النفسى والجسدى، ساد كلاً منا شعور عام بأننا فى مواجهة كارثة قومية أنهكت الأمة وأثخنتها بجراح عميقة، ولكن مصر فى مثل هذه الظروف القاسية، الصعبة، تستجمع قواها وتمعن النظر فى الأسباب وتحاول تجاوزها، هذا ما جرى بعد يونيو حيث جرى استنفار طاقات الوطن كافة وتم عبور القناة بعد ست سنوات فقط فى مشهد تاريخى مهيب. لكن مثل هذا التجاوز يقتضى العمل النزيه الدءوب، ويقتضى الجهد والمصارحة التامة. أقول هذا وعندى ما يشبه حالة اليأس من الكتابة وجدواها، ويكاد الدافع الأقوى يتمثل فى إبراء الذمة نحن الذين قدر لهم أن يعيشوا هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الوطن. إن ما يكتبه المخلصون لا يجد آذانا صاغية، وتطبق الحكومة سياسة: «دعهم يتكلمون أو يكتبون ونفعل نحن ما نريد وما نرى».

هكذا ينعدم الحوار فى المجتمع، ويفسد المُناخ، وينمو التطرف والإرهاب. وبداية لا أشك لحظة فى أن ما جرى فى الأقصر له صلة بقوى خارجية تريد أن تعاقب مصر على مواقفها الوطنية والقومية خلال المرحلة

الأخيرة: الموقف من مؤتمر الدوحة، الوقوف إلى جانب الشعوب العربية المحاصرة، المهددة بالإبادة، وفي وجه الإرهاب الصهيوني الرسمي. ثمة قوى لا تريد للاقتصاد المصري أن يزدهر وأن ينمو، وضرب السياحة يتم لتحقيق هذا الهدف، وإبقاء مصر في حالة ضعف مستمرة بحيث تعتمد على المعونة الأمريكية باستمرار.

لا أشك في الربط بين تصريحات رئيس المخابرات المركزية الأمريكية التي أعلن فيها أنه يمكنه تغيير الأوضاع في مصر بالضغط على زرار، وبين ما جرى في الأقصر، وللأسف لم يلق هذا التصريح ردوداً كافية في مصر.

إن الخيوط السرية، الخفية في الجماعات التي تعمل في الخفاء تنتهي إلى مصادر بعيدة، تحرك الأحداث وتظل خفية، مستترة، ولكن هذه الجهات الخارجية لا يمكنها أن تنجح إلا إذا كان المناخ في الداخل مهيأ وجاهزا.

لقد كتبنا طويلا عن إهمال الصعيد ولم يصغ أحد، ولم يكن الإهمال الأمني في وادي الملوك إلا صورة من الإهمال المستشري في قطاعات أخرى بالدولة. إن عدد الحراس المخصصين لحماية وزير واحد لا أهمية له يتجاوز عدد الحراس المخصصين لأهم المواقع الأثرية والسياحية. ويكفي المقارنة بين جنود الشرطة البؤساء الذين يحرسون المنشآت والكباري والمؤسسات، والذين يبحثون عن طعام يسد رمقهم في موائد الرحمن، أو من سبل الإحسان، وبين رجال الحراسات الخاصة المدججين بأحدث الأسلحة والمعدات، تقول لنا إن اهتمام الحكومة بتأمين نفسها يفوق اهتمامها بتأمين الآثار والناس والمنشآت المهمة. بل إن بعض هذه الحراسات الخاصة أصبحت جزءا من المنظرة والهيبة الاجتماعية. ولنا عودة إلى الانطباع العام حول أداء الشرطة وأحوالها، لكن ما يجب التوقف أمامه

الآن حالة الإحباط العامة السائدة بين الشباب . إن مئات الألوف منهم بلا عمل ، لقد أدوا واجبهم واجتهدوا وتفوق منهم من تفوق ثم خرجوا إلى مجتمع لا مكان لهم فيه . الأخطر من عدم وجود فرص عمل هو انسداد أبواب الأمل . لا أمل فى عمل شريف . لا أمل فى مسكن ، لا أمل فى العيش فى حياة طبيعية . إذن . . ماذا يفعل الشباب؟

الأخطر من ذلك هو الإحساس العام عند الفقراء ، بما فيهم أبناء الطبقة الوسطى ، وحتى الشرائح العليا منها بتخلى الحكومة عنهم وانحيازها للأغنياء ، ليس فقط للأغنياء ، ولكن لقلة محدودة من فاحشى الثراء . وهذا يحدث لأول مرة فى تاريخ مصر : أن يكون هناك انحياز شبه كامل لقلة من الأثرياء ، تزال من أجل سواد عيونهم مئات المساكن الشعبية حتى لا يلوثوا عيونهم بمنظرها وهم يلعبون الجولف . يقيمون الأفراح التى تنفق فيها الملايين . وعلى مرمى البصر منهم من لا يجد قوت يومه . لم يجر هذا فى أيام المماليك ولا فى زمن الإقطاع ، بل كان أثرياء الإقطاع يتظاهرون أو يقدمون على مساعدة الفقراء وإطعامهم وتوفير سبل العلم لأبناء النبغاء من المعدمين ، حتى الحكومات التى كانت تعبر عن مصالح الأثرياء تتظاهر بأنها تعمل لمصلحة الفقراء ، تُلقى إليهم بعض الفتات ، أو المسكنات ، ولكن جميع ما يصدر عن حكومتنا يفتقر إلى الذكاء ، ويصاحب ذلك فساد مروع ، وبقاء لرموزه فى أماكنهم وقوتهم البادية . هل خلت مصر من الكفاءات حتى يبقى البعض فى المناصب العليا أكثر من عشرين عامًا؟ عشرات الأسباب المتعلقة بانتفاء العدل الاجتماعي ، والفساد ، وعدم وجود أحزاب تعبر عن القوى السياسية الحقيقية فى الواقع ، عشرات الأسباب التى تؤدى إلى مناخ صالح تمامًا لنمو الإرهاب ، ودفع العديد من الشباب إلى صفوف هذه التنظيمات الإرهابية ، التى بلغت درجة من الوحشية لم تعرفها مصر فى أسوإ عصور الانحطاط . هذه الوحشية فى

التمثيل بجثث الضحايا أمر لم أقابله على الإطلاق فى سائر المصادر المعاصرة لمراحل التاريخ المصرى كله.

إن ما جرى فى الأقصر خطير جدّا، وكارثة قومية، ونرجو أن نتوقف وأن نعيد النظر فى أوضاعنا جميعها، إن الوطن يجمعنا كلنا، وحمايته فرض واجب وتقتضى منا بذل الطاقة، وأقصى قدر من المكاشفة، فاللحظة حرجة ولا تحتمل.

النيل فى سيناء

لسبب ما لم يكن إحساس الناس بانتقال النيل إلى سيناء فى نفس حجم الحدث وعمقه وأهميته.

ربما بسبب التغطية الإعلامية التى تعاملت معه كأى حدث آخر يحضره رئيس الدولة، مثل افتتاح مترو الأنفاق، أو مصنع حديد، أو منشأة هنا أو هناك.

ربما لأن القائمين على الإعلام لم يوجهوا الدعوة إلى أدباء مصر وفنانيها ورموزها الثقافية كما حدث فى التاسع من يناير هذا العام عندما أعطى الرئيس إشارة البدء فى مشروع توشكا جنوبى الوادى فى حضور رموز الوطن، بدءا من ألمع كتابه وفنانيه إلى طلبة المدارس الإعدادية والثانوية كرمز للمستقبل.

كان ذلك فى توشكا برغم أنها ما زالت فى دائرة الأمل، أما وصول مياه النيل إلى سيناء فيدخل فى حيز العمل الحقيقى المنجز.

كنت أتمنى مثول شعراء مصر وأدبائها وعلمائها والمبرزين فى كل فن وعلم هذه اللحظة التى أعُدّها تاريخية بحق وسط لحظات عديدة توصف بالتاريخية وليست كذلك. كنت أتمنى أن يخصص التليفزيون اليوم كله لسيناء. لماضيها، وحاضرها، ومعالمها، وآثارنا فيها، وأن يتحدث عنها العلماء الذين يعرفون تضاريسها، وتاريخها، والرجال الذين حاربوا دفاعًا

عنهـا بحُسـبانهـا بوابة الوطن ومـدخله الشـرقى. لكن شيـئا من ذلك لم يحـدث، ومن هنا تظلم بعض المشـروعـات الكبـرى ذات الدلالة القـوميـة والإستراتيجية بسبب قصور الأداء الإعلامى الذى يعجز عن استيعاب دلالات مشروع هائل الأبعاد كتوصيل مياه النيل إلى سيناء.

فى رأيى، ورأى كل من له صلة وثيقة بتاريخ هذا الوطن أن دخول مياه النيل إلى سيناء لحظة تحول فى مسار هـذا الوطن، لحظة مؤجلة منذ بدايات العـصر الفرعـونى، ولكن الإمكـانات العلميـة والبشـرية لم تكن تسـمح. وعندما دخلنا العصر الحديث جاء الاحتلال البريطانى الخبيث فعزل شبه جـزيرة سيناء عن مصـر. وهناك كـتـاب ضـخم كـتبه نعـوم شـقيـر المؤرخ والباحث الذى كان يعـمل فى الإدارة المصرية تحت حكم الإنجليز عن سيناء يعبر عن أدق المعلومات المتاحة ويتضمن أيضا سياسة الإنجليز فى العزل، واحتساب شبه الجزيرة منطقة خـاصة لكى يسافر إليـها المصرى لا بد أن يحصل على تصريح من إدارة المخابرات الحربية، وكأن سيناء دولة أجنبية. استمر هذا الوضع بعد ثورة يوليو أيضا وهذا غريب، وكانت نقطة الجمرك تقع فى القنطرة شرق، وكـان السفر من وإلى سيناء يتم بمحاذير خـاصة. وفى أثناء عملية الحشد العسكرى التى سبقت هزيمة يونيو، جرى تصوير الأمـر إعلامـيـا وكأن القـوات المسلحة المصـرية تنتقل من دولة إلى دولة. وأذكر عبارة شهيرة تم تداولها إعلاميا تقول بالنص: إن «قواتنا عبرت القناة بكفاءة شهد لها العدو قبل الصديق».

ولـم أكن أدرى العبقرية فى عبور القناة الواقعة داخل الأرض المصرية، من أرض مصرية إلى أرض مصرية، وهذا عبور يختلف طبعا عن العبور الأعظم الذى تم فى أكتوبر لتحرير الأرض.

للأسف ظلت سيناء معزولة عمليا عن الوادى حتى أفقنا عام سبعة وستين وتسعمائة وألف، وتم استخراج الدراسات المهملة فى هيئة تعمير

الصحارى ومنها كتاب ضخم عن سيناء أعده الخبراء فى الستينيات ولم يلتفت إليه أحد، وأفاض الدكتور جمال حمدان فى الحديث عن أهمية تعمير سيناء، وبالتحديد إلى نقل مياه النيل، وعَدّها عملية كبرى يتم من خلالها إعادة صياغة جغرافية الوطن بحيث تدخل سيناء فى نسيج الوطن الأم تماما، وهذا بالضبط ما جرى فى الأسبوع الماضى.

بعد استعادة سيناء، جرت عمليات تعمير سياحية فى مناطق محدودة جدا بالجنوب، شرم الشيخ، ورأس سدر، وهذا جميل، لكنه ليس التعمير المقيم الذى نتمناه. إن ملء الفراغ الشرقى الذى كان مصدر تهديد دائم للوادى لن يتم إلا من خلال الزراعة، أى التعمير المقيم، الراسخ، ولكم أتمنى أن تعطى الأولوية لزراعة الأرض لأبناء سيناء ولأبناء الصعيد. إن الصعايدة الجبابرة هم الذين زرعوا الرمال القاحلة فى السويس والإسماعيلية، وهم الذين تحملوا أصعب الظروف عندما اضطرتهم الأحوال للهجرة إلى بعض البلاد العربية، وزرعوا الصحارى القاحلة فى جزيرة العرب. إن أرض الوطن أولى وأجدر، ولذلك أتمنى أن يتبع تدفق مياه النيل عبور الآلاف من المصريين للإقامة الدائمة الأبدية فوق أرض زراعية يستطيع هؤلاء الرجال الأشداء انتزاعها من جدب الرمال والحفاظ عليها عندما يلوح الخطر. إن زرع البشر فى سيناء عملية متممة لوصول مياه النيل إلى سيناء.

إنها لحظة تمثل منعطفًا مهما فى التاريخ والجغرافيا، للأسف أجهضها الإعلام وصورها الناس كأى حدث عادى، ويظل تصريح الرئيس الحاسم فى الأذهان لحظة تدفق الماء:

«لن نعطى مياه النيل لأى جهة.. كل قطرة من النيل لمصر وللأرض المصرية».

الأمــــين

لماذا لا نرى الدكتور عصمت عبد المجيد أمين عام الجامعة العربية الآن فى إحدى العواصم العربية المحاصرة، المهددة الآن؟

لماذا لا نراه فى بغداد يعلن تضامن الشعوب العربية مع أطفال العراق وشعبه الذى يقاسى أحوال الحصار؟

لماذا لانراه فى الجزائر يعلن بداية حملة واسعة للتضامن مع الشعب الجزائرى الذى يهدر دمه ويذبح أطفاله ونساؤه وشيوخه ليلاً؟

لماذا لا نراه فى السودان المقسم الآن فعلاً، والمطحون بين رحى الحرب الأهلية؟

أعرف أن السفر إلى بغداد مرهق بدنيا، فلا بد من رحلة برية تسغرق حوالى عشرين ساعة ، والطريق ملىء بالمطبات، موحش، والفنادق فى بغداد تدهور مستوى الخدمات فيها نتيجة ظروف الحصار المستمر منذ ستة أعوام، أما السفر إلى الجزائر فمحفوف بالمخاطر أيضا، الحالة الأمنية مضطربة، والدولة تبدو عاجزة عن تأمين شعبها فما البال بالضيوف الوافدين، والدماء تسيل من الجانبين، المعارضة المسلحة والدولة، ولا أحد يعرف من يقتل من؟ ومن يذبح من؟ إن وجود أو ظهور الدكتور عصمت عبد المجيد فى الجزائر ومحاولته التى نتمناها لحل الصراع الداخلى الذى يهدد قطرا عربيا كبيرا سوف يكون موقفًا له أثره الإيجابى. إن تنظيم حملة

للتضامن مع الشعب الجزائرى على مستوى العالم العربي، حملة واسعة شعبية تشارك فيها النقابات والمنظمات المهنية واتحادات المثقفين، والفنانين، لهو أمر ضرورى ومهم جدا فى هذه المرحلة. لقد خرجت أول مظاهرة ضد الدم المراق فى الجزائر الأسبوع الماضى.

أول مظاهرة ضد ذبح الشعب الجزائرى ضمت أربعة عشر ألف متظاهر، وأدباء وفنانين وشخصيات شهيرة. خرجت أول مظاهرة فى عاصمة غير عربية، فى باريس، ولكم كنت أتمنى أن تشهد العواصم العربية مثل هذا التحرك، ألا يطول صمت المثقفين بالتحديد. لقد أصدر اتحاد الكتاب المصرى بيانا شديد اللهجة ضد إراقة الدم فى الجزائر أيا كان مصدره، وكان يمكن أن يكون بداية حملة شعبية وما زالت الإمكانية متاحة، لكن السيد أمين الجامعة العربية هادئ جدا، متزن جدًا، دبلوماسى مخضرم، ولكنها دبلوماسية ذات إيقاع خافت، تجعل أى شىء مثل أى شىء، كل المواقف متشابهة، ترضى الأطراف كافة، والمهم فى النهاية الوجاهة المصقولة، والتحركات الأنيقة، والبيانات المحسوبة الزلقة ذات الجمل المصوغة بخبرة بيروقراطية متقنة، لا تغضب هذا ولا ترضى ذاك تماما، حمالة أوجه، فإذا أراد المتلقى أن يجد فيها أى معنى وجده، وربما كان ذلك مناسبًا فى ظروف مستقرة، هادئة، عادية، لكنه بالتأكيد ليس مناسبا الآن وحضور الأمة العربية نفسه مهدد.

ثمة من يريد أن يقلبها إلى شرق أوسطية لتدخل إسرائيل إلى نسيج المنطقة وصميمها فى تحرك ضد التاريخ والواقع وكل المعطيات. أين موقف الجامعة العربية فى مواجهة دعاوى الشرق أوسطية التى يروج لها مقاولو المصطلحات والأفكار ومتعهدو إجراء التحولات الفكرية بهدوء ودون جراحة؟

أين موقف الجامعة العربية مما يحدث الآن فى شمالى العراق؟ تركيا

تحتل أرضًا عربية بحجة مطاردة الأكراد، والحقيقة أن أطماعها فى شمالى العراق قديمة، وقريبا ستزحف إلى الموصل. ولنقرأ التاريخ جيداً.

أين موقف الجامعة العربية وموقف أمينها الهادئ، الفاضل، مما يحدث الآن للغة العربية فى شمالى إفريقيا، وتراجعها واضح بين؟ ولا يقتصر الأمر على شمالى إفريقيا لكن يمتد إلى دول المشرق أيضا، وأخشى من يوم آت ينسى فيه القوم لغتهم العربية ويصبحون كشعوب إندونيسيا والقوقاز والفلبين، يحفظون القرآن وهم لا يدركون ولا يفهمون معناه.

أين دور الجامعة العربية فى حل مشكلات الكتاب العربى، وإزالة الحواجز أمامه، والعمل من أجل إنشاء سوق عربية مشتركة للكتب، لا حدود فيها ولا إجراءات جمركية، مع مطاردة المزورين، المزيفين الذين يهددون صناعة الكتاب والناشرين الشرفاء؟

حتى هذه النقطة التى تخلو من أى حساسية سياسية لم نسمع فيها موقفًا للجامعة العربية.

وحتى توقيت كتابتى هذه السطور لم يصدر عن الجامعة العربية، ولا عن أمينها الهادئ جدا، الدبلوماسى جدا، أى بيان حول الموقف من مؤتمر الدوحة. وقد أعلنت مواقف الدول العربية جميعها، وكان المفروض أن تقود الجامعة هذا التحرك ضد المؤتمر منذ اللحظة الأولى، انطلاقا من المصالح العليا للأمة. واليوم أقرأ خبرا يقول إن الجامعة ستصدر بيانا حول المؤتمر. دائما فى ذيل القائمة، فى اللحظة الأخيرة، فى المنطقة الباردة، العازلة، التى لا طعم لها ولا لون ولا رائحة ولا تأثير. ويخيل إلىّ أن السيد الأمين العام، الدبلوماسى القديم، المحنك لم يستوعب بعد أنه أمين جامعة عربية لأمة مهددة، وأنه ما زال يبدو كوزير خارجية للسادات، أكثر منه أمينا للجامعة التى كان يمكن أن تلعب دوراً أفضل برغم كل الحساسيات.

بريماكوف بيننا

هل كان الدكتور أسامة الباز يدعو عصراً ولى، ولم يتبق منه إلا رموز ومعان، عندما وجه الدعوة إلى أصدقاء إيفجنى بريما كوف القدامى؟

عندما اتجهت إلى مكان جميل يطل مباشرة على النيل تلبية للدعوة، كنت أستعيد سنوات الستينيات عندما كان بريماكوف مراسلاً للبرافدا فى القاهرة، وكان صحفيا لامعًا تربطه صلة وثيقة بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر، وكبار الأدباء. كان صديقًا حميمًا لثلاثة كنت قريبا منهم، المرحوم فيليب جلاب، والمرحوم عبد الرحمن الخميسى، وأستاذى وصاحبى محمد عودة أحد ضمائر عصرنا الحية أطال الله عمره. ولكم أمضينا أوقاتا حميمة فى القاهرة القديمة، وكان بريما كوف صديقًا للجميع، يشرب الشاى القاتم، ويستنشق دخان النرجيلة، ويتحدث العربية بلهجة أبناء الجمالية.

كان منصب مراسل البرافدا فى القاهرة موقعا مهما بالنسبة لصناع القرار فى موسكو، يرسلون من يتوسمون فيهم النجابة، ومن يعدونهم لتولى المناصب الكبرى فى الدولة. عاد بريماكوف إلى موسكو، وأصبح عميدا لمعهد الاستشراق. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى لم يخب نجمه، إنما تولى منصب مدير المخابرات الشهيرة (كى چى بى) التى شهدت أيضًا انهياراً كبيراً، ثم أصبح وزيرا للخارجية، ولا أدرى المنصب الذى سيحتله فى المستقبل . . من يدرى؟! ربما يصبح رئيسًا لروسيا!

جاء بريماكوف إلى القاهرة التى أمضى فيها أزهى سنوات شبابه، ودعاه أسامة الباز إلى اللقاء بصحبه القدامى وعدد من ألمع الكتاب والصحفيين.

جاء محمد عودة، وكامل زهيرى، ومحمود أمين العالم، ورفعت السعيد، وأحمد حمروش، وإسماعيل صبرى عبد الله، ورفعت السعيد، وأيضا.. عادل حسين. وقبل مجىء بريماكوف أمضى الحاضرون وقتا فى الحوار، وكان رفعت السعيد يداعب عادل حسين، وكان الحديث بشكل عام وديّا.

رحت أتأمل عبد الستار الطويلة الذى أصبح نحيلاً إلى حد كبير بسبب المرض، شفاه الله، أما محمود العالم فكان يفيض حيوية وتفاؤلاً، وكان إسماعيل صبرى عبد الله نبيل الحضور، أما رفعت السعيد فمن الصعب تحديد سنه لتدفقه وحيويته.

ورحت أتأمل كلاّ من الحاضرين، خصوصا اليساريين القدامى وأحاول أن أقرأ الزمن على وجوههم. بعضهم مواقعه تبدلت تماما من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، وبعضهم احترف النصب الفكرى، وباع إمكاناته لمن لديه المال، بدءا من المنظمة وانتهاء بالمخابرات المركزية. وعندما وصل أحد هؤلاء لاحظت أن معظم الحاضرين أشاحوا بوجوههم عنه، لم يصافحوه، وتركوه لصداقة تاريخية ربما حرص صاحبها على الحديث إليه من باب الشفقة.

هناك فرق حين يختلف إنسان مع آخر حول فكرة، مثل الخلاف مع عادل حسين، إنه خلاف على مبادئ، لا يلغى المودة أو الصلات الشخصية، ولكن تبديل المواقع من أجل المنفعة، والانتقال من النقيض إلى النقيض لا يثير إلا الاحتقار.

كان الحاضرون، خاصة من جيل الخمسينيات والستينيات يمثلون حقبة، ومرحلة. وبعضهم - كما أشرت - يجسد المتغيرات التى وقعت، وبعضها فكرى، ومنها المبتذل. جاء بريماكوف ولم يكن حضوره مختلفا عن ذلك الحضور القديم، إنه روسى تماما، يبدو وكأنه خارج للتو من إحدى روايات تولستوى أو تورجنيف. والغريب أن أقوى ما ذكرنى به نبرات صوته وابتسامته. كان من الواضح أنه يعين لحظات إنسانية دافئة يستعيد فيها أياما جميلة أمضاها هنا. وكان عناقه لمحمد عودة وحمروش حارًا. التف الصحفيون والكُتاب حوله، جلال دويدار ومصطفى بكرى، وصلاح الدين حافظ وعادل حمودة وغيرهم من الزملاء، وأمطروه بأسئلة شتى، وكان يجيب ببساطة وبدون تحفظ، ذلك التحفظ الذى يبديه عادة وزراء الخارجية. وبالطبع لاحظت أن اللغة اختلفت والمعانى تغيرت. كان يتحدث فى شئون العالم العربى كما يراه، عن السلام، عن نتنياهو، عن سوريا، عن العراق. وكنت معنيًا بتأمل هذه الشخصية الفريدة أكثر من استماعى إليه، وكنت أدقق فى الملامح التى تغيرت، والمواقف التى تبدلت، والعلاقات التى انقلبت، وبراعة أسامة الباز الذى جمع فى هذا اللقاء حقبة من التاريخ، وأعاد إلى ذاكرة بريماكوف لحظات أثق بأنها الأعز والأدفأ فى حياته.

جَـدْع الأنـف

عـملية لبنان أعادت الاحترام للعرب بعض الوقت، أولئك الذين يفقدون بسرعة مذهلة جميع العناصر التى تكفل لهم الاحترام.

أن يتصدى المقاتلون العرب فى الجنوب اللبنانى للآلة العسكرية المتوحشة، المتغطرسة، النازية، وأن يلحقوا بها هذه الهزيمة المروعة فى تلك المواجهة السريعة، الخاطفة، فإن ذلك يكتسب العديد من الدلالات والمعانى فى زمن صعب.

لا يعنينى إلى أى حزب ينتمى هؤلاء الأبطال، إلى حزب الله، إلى حركة أمل، إلى الحزب الشيوعى، إلى البعث، إلى أى فريق كان، ليس ذلك مهمّاً الآن. المهم أن نفراً قليلاً من أبناء هذا الزمان لم يتسرب إليهم داء الخنوع الذى أصاب العالم العربى، ثبتوا وخططوا، وترصدوا لقوات الجيش الصهيونى المدججة بأحدث ما فى العالم من السلاح، جاءوا بطائرات مروحية، وزوارق بحرية متطورة، وكل ما يتصوره العقل، وكل ما يكفل نجاح العملية العسكرية التى خطط لها القادة النازيون، الصهيونيون، فى إسرائيل. وكان الهدف فيما يبدو اختطاف نائب رئيس المجلس الشيعى الأعلى المفتى عبد الأمير قبلان. هكذا اعتاد قادة إسرائيل أن يخططوا بدقة، وأن يزودوا قواتهم بأحدث الأسلحة، بحيث تبدو عملية كهذه وكأنها مادة لفيلم متقن.

غير أن الرجال فى الجانب اللبنانى كانوا لهم بالمرصاد، توقعوهم، وخططوا، وثبتوا، وكانت الهزيمة المروعة التى فقدت فيها إسرائيل أحد عشر جنديا وضابطًا من أكفإ عناصرهم.

وقف الرجال فى المواجهة واشتبكوا بالعصابة الصهيونية، وجرى تعاون وثيق بين مقاتلى حزب الله، وحركة أمل، والجيش اللبنانى. لم يتقهقروا ولم يهابوا، إنما ثبتوا فى زمن عز فيه الثبات، وحاربوا كالرجال فى زمن تغلغل فيه الخنوع فى أوصال الأمة، وصارت الآفاق كابية، ولم نعد نسمع إلا وقاحات وسفاهات هذا العنصرى، الهتلرى البلطجى، نتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلى.

لكن.. انظروا إلى ما جرى له بعد ثبات نفر قليل فى أصغر بلد عربى، بعد أن تكبد جيشه هذه الخسارة الفادحة. لقد بدا الطاووس المنتفخ مهزوزًا، مضطربًا، وأعلن وزير خارجيته عن استعداد إسرائيل للانسحاب من لبنان، وصرح أريل شارون السفاح النازى الشهير بأن إسرائيل لا مطامع لها فى جنوبى لبنان.

لقد لقن هذا الهتلرى، العنصرى، الفاشى، نتنياهو درسًا فى جنوب لبنان. إنه يتحدث من موقع القوة، يبدو متغطرسًا، ملوحًا بما لديه من ترسانة أسلحة حديثة، وقنابل نووية، لكن بماذا تفيد الترسانة النووية فى مواجهة نفر قليل لديهم القدرة على الثبات، وليس لديهم أرصدة بنوك يخشون عليها، ولا برامج تليفزيونية عالمية يحرصون على الظهور فيها، وليس لدى قادتهم الحرص المرضى على معاملتهم كرؤساء وملوك؟ لقد ذاق رئيس الوزراء الإسرائيلى العنصرى، النازى، الكريه، منطق القوة وكيف يكون، والمطلوب الآن من العرب أن يستوعبوا الدرس، لا نطالب بتحريك الجيوش، ولا بإعلان الحرب. إن من يعلن الحرب فعلاً هو

نتنياهو، وقد يمضى إليها غداً أو بعد غد كخطوة لخروجه من المأزق السياسى الذى يواجهه. وما يجب أن نتوقف أمامه فى لبنان المغزى، نفر قليل ثبت وقاتل فقهر الآلة العسكرية العاتية.

لو أن ذلك جرى منذ ثلاثين عامًا، لعلقت صور المقاتلين اللبنانيين فى شوارع العواصم العربية، ولنظمت القصائد فى أسماء الشهداء، خصوصا أولئك الذين يضحون بأنفسهم فى مواجهة سالبى أوطانهم. ولكن، لننظر الآن إلى ردود الفعل، حتى من أصحاب القضية الرئيسيةورموزها البالية، المدجنة، بمجرد حدوث عمل فدائى، يسارعون إلى إنكار أى صلة ودفع الشبهات عنهم. أصبح ما كان يثير الفخر والزهو فى الماضى مخيفًا بالنسبة إليهم. أما وسائل الإعلام العربية فتعاملت مع الحدث وكأنه يخص جواتيمالا أو دولة مجهولة فى أقصى المحيط الهادى.

إن من يتابع حالة الارتباك والذعر والتراجع التى سادت إسرائيل عقب الانتصار اللبنانى يدرك أن الحديث عن القوة ليس مطلقًا أبدًا، وأن نتنياهو واهم عندما يختال كالطاووس، ويقدم على تصرفات سفيهة، متدنية، بدافع التغطرس وكأنه يتعامل مع أمة وهن العظم منها ودب الخنوع، وأن ما يهددنا به من أذى لو لحق به مس منه لانقلب على عقبيه مذعوراً، ولذلك فإن المطلوب من العرب المهددين الآن بالعنصرية الإسرائيلية الفاشية، أن يتمعنوا كثيراً فى الدرس الذى قدمه لنا رجال هذا الوطن الصغير، الجميل، الرائع، لبنان، الذى جدعوا فيه أنف المتغطرس الهتلرى نتنياهو. ولكم أتمنى أن تحمل لنا الأيام مزيداً من هذه الوقفات الرائعة، والتى يتم خلالها جدع أنف هذا النازى الجديد، وليفهم أن القوة ليست من طرف واحد، وليفهم هو أو أولبرايت، أن هذه الأمة ليست من الهنود الحمر. مزيداً من جدع الأنف النازى حتى يذهب إلى مزبلة التاريخ كما ذهب أجداده الفاشيون الهتلريون!

١
وداعًا للسينما المصرية

الآن. جاء دور الاستيلاء على الروح والعقل، بعد أن ظهروا من المجهول، وأصبح لديهم المليارات فى السنوات القليلة، وترسخت أو تترسخ سيطرتهم على مقدرات وطننا، يسعى الأذكياء منهم إلى السيطرة على الوجدان، على الروح، والسينما أهم هذه الوسائل، السينما المصرية التى شكلت وجدان أجيال متعاقبة منذ بداية هذا القرن، التى ولدت فى خضم ثورة سنة ١٩١٩، وطنية، طاهرة، لا تعكس رؤى المحتل وقتئذ ولا فلسفته، كان أول فيلم يتم تصويره فى الشارع يسجل عودة سعد زغلول من المنفى، وقام بإخراجه محمد بيومى الذى قدم الفنان محمد كامل القليوبى فيلما مؤثرًا عن حياته، واستمرت السينما المصرية منحازة إلى قيم الشعب الأصيلة، وعرفت فنانين عظماء مثل كمال سليم، وصلاح أبو سيف، ويوسف شاهين، وصلاح التهامى، وغيرهم. هذا التراث كله تم تجهيزه فى تواطؤ محكم بين مسئولين فى الحكومة ليسقط ثمرة جاهزة بين يدى واحد أو اثنين فقط من الرأسماليين الجدد الذين لا نعرف من أين جاءوا، والذين يعملون فى كل شىء، بدءا من خطوط السكك الحديدية إلى القرى السياحية، إلى المضاربة، إلى.. السيطرة على السينما، والسينما بالتحديد.

لقد جرى الأمر بتدبير شديد، وأهل المهنة ومن لهم صلة بهذا الفن المؤثر يعرفون من التفاصيل ما تشيب له الرءوس. والمتابع لأوضاع السينما المصرية في السنوات الأخيرة يستوقفه هذا التدهور المستمر، والذى أشك الآن في أنه كان نتيجة قصد مدبر لينتهى الأمر إلى ساويرس أو غيره من الرأسماليين الجدد. تدهور إنتاج السينما المصرية من مائة وخمسين فيلما في السنة إلى عشرة أفلام أو أقل هذا العام. أى أننا أنتجنا أقل مما تنتجه تونس، ومثل هذا الأمر كان يحتاج بدون أدنى مبالغة إلى اجتماع مجلس الأمن القومى، لأن تدهور السينما المصرية يعنى فقدان مصر لأهم وسيلة مؤثرة مارست بها الثقافة المصرية دورها خلال هذا القرن. . السينما المصرية الرائدة عربيا، التى نشرت اللهجة المصرية حتى أصبحت عاميتنا بمثابة لهجة قريش العرب الجديدة، التى مهدت لقبول العمالة المصرية، والسياسة المصرية. . السينما التى صاغت ملامح وأركان ذاكرتنا الأولى، البصرية، والوجدانية، والروحية. . السينما التى فتحت لنا عوالم، وأثارت عواطفنا وعلمتنا الحب، والجمال، لأن رجال السينما في مصر كانوا وطنيين، وكان الفنانون الكبار منهم منحازين إلى قيم الشعب الأصيلة، عكسوا قيمه فى الخير والحب والجما ل وعشق الحياة، وجعلونا نذرف الدمع أحيانا، ونبتسم أحيانا أكثر. . هذه السينما ذات التاريخ العريض، العريق، تنتهى إلى واحد أو اثنين من رجال الأعمال الجدد الذين لم يرتبط أحدهم بالسينما ولم يعرف له أولهما أى صلة بها.

إنه الانهيار عينه، على المستوى الثقافى، والروحى، والفنى والإنسانى. ليس لدينا رأسمالى وطنى مثل طلعت حرب الآن يمكن أن نأتمنه على السينما المصرية، والقانون الذى تم تفصيله لتسقط الثمرة جاهزة فى حجر أحدهم يحول بين أهل السينما الحقيقيين وبين هذا الفن، ولسوف

تخبو صرخات يوسف شاهين، واستغاثات الآخرين، وسيحارب الاقتراح الوجيه الذى طرحه نور الشريف أن تشترى وزارة الإعلام إستوديوهات السينما المصرية. تساءل الفنان الكبير مذعوراً، متعجبا: كيف تبنى وزارة الإعلام إستوديوهات ضخمة ينفق عليها الملايين فى مدينة السادس من أكتوبر، وكيف تعرض إستوديوهات السينما التاريخية للبيع بثمن بخس؟ ولم يقل نور الشريف إن هذه الإستوديوهات تحوى مساحات ضخمة من الأرض فى مناطق ارتفع سعر الأراضى بها، وإنها سوف تستغل عقاريًا، وتدر أرباحًا طائلة للرأسماليين الجدد، ولمن حصلوا على الفتات لكن يجهزوا لهم الصفقة.

هكذا تتخلى الثقافة المصرية عن واحد من أمضى أسلحتها وأقوى وسائلها وليس لنا نحن الكتاب إلا أن نصرخ ونكتب لنبرئ الذمة كما أكرر مراراً. إن الهول القادم شديد، وقيم الثقافة المصرية ذاتها تهتز. وبرغم أننى لست من أهل السينما، فإننى واحد من الذين صاغت السينما المصرية رؤاهم وأخيلتهم، وأعرف تماما ماذا تعنى السينما المصرية بالنسبة للدور المصرى، الثقافى والتاريخى والسياسى. فى عام تسعة وعشرين عندما وقعت الأزمة المالية العالمية، كان لابد من تصفية بعض شركات بنك مصر، وعرضت القائمة الخاسرة على طلعت حرب، وكانت تتضمن شركات لمصائد الأسماك وللغزل وشركة إستوديو مصر، وقرر الرأسمالى الوطنى، مؤسس إستوديو مصر، قرر ببعد نظر ثاقب أن يصفى الشركات الخاسرة عدا ستوديو مصر الذى كانت خسارته أكبر.

كان يدرك بثاقب نظره أهمية السينما، فأبقى على إستديو مصر ليحميها. والرأسماليون الجدد عندهم أيضا بعد نظر، ولكنه يهدف إلى عكس ما حققه طلعت حرب، يهدف إلى تكميم السينما المصرية،

وإلى السيطرة على أهم وسيلة ثقافية تشكل وجدان الشعب، تمهيداً للسيطرة على هذا الوجدان الذى يُعَدّ الآن هدفًا لقوى عديدة وتيارات متلاطمة. ولهذا حديث يطول، لكن ما يمكن أن نقوله الآن، إن القانون الجديد، والظروف المترتبة عليه سوف تدفن السينما المصرية التى عرفناها طوال هذا القرن، وتأتى إلينا بسينما أخرى تحمل ما يريدون فرضه من قيم، ورؤى.

٢
وداعًا للسينما المصرية

كيف يستقيم ذلك؟

فى الوقت الذى تصدر فيه الحكومة القانون تلو الآخر لإجراء عمليات الخصخصة، التى تعنى تصور الملكية العامة وتحويلها إلى ملكية خاصة بهدف كسر الاحتكار، فى نفس هذا الوقت تقوم هذه الحكومة بإصدار لائحة للسينما تنتهى إلى تكريس احتكار أهم وسيلة مارست مصر من خلالها دورها الثقافى، وتؤدى هذه اللائحة إلى سقوط السينما المصرية فى قبضة ورؤية شخص واحد أو شخصين لم يعرف عنهما أى اهتمام بالسينما فى تاريخ النشاط الذى يقومون به والذى يضم فروعًا ونوعيات متضاربة ليس من بينها أى نشاط يمت إلى الثقافة، لا صناعة السينما ولا المسرح ولا الكتاب.

إن رجال المال الجدد لم ينفقوا على الأنشطة الثقافية، ولم نر لهم أى دور صغير أو كبير كما كان يقوم به أثرياء الزمن القديم الذين تلقوا التعليم، وجاءوا من أسر لها ارتباط عميق بهذا الوطن وحضور واضح فيه، وأقاموا ما استثمروا فيه أموالهم فوق أرض مصر. إننا الآن أمام فئة من رجال المال وليس رجال الأعمال، لم تكن لهم علاقة بالثقافة ولم ينفقوا على أى مجال من مجالاتها. إن المكتبة العامة الوحيدة التى أقيمت بمبادرة من

رجل أعمال وبمساهمة من ماله الخاص، هى مكتبة مبارك بالجيزة، هذا الرجل الذى دفع الملايين من ماله الخاص لإنشاء هذه المكتبة العامرة الآن، والتى يديرها واحد من أقدر الشخصيات العامة على الحركة والتأثير السفير عبد الرءوف الريدى، هذا الممول المحب للثقافة ليس مصريا، لكنه مليونير ألمانى.

لم نسمع عن مكتبة أنشأها واحد من رجال المال الجدد فى مصر، ولا عن تبرع لمشروع ثقافى مهم، فلماذا هجومهم وتخطيطهم لاحتواء السينما المصرية؟ لماذا التخطيط المحكم، وهذا التواطؤ مع بعض رجال الحكومة حتى صدور اللائحة الأخيرة عن مجلس الوزراء والتى تتضمن شرطًا تعجيزيًا حدد رأس المال للشركة الواحدة بمائتى مليون جنيه؟! لماذا تحديد هذا المبلغ الضخم الذى يعجز عن تدبيره الرجال الذين تقوم على جهودهم صناعة السينما المصرية الحقيقية؟ لماذا تحديد هذا المبلغ للسينما بالذات، وهذا ما لم تتضمنه أى لائحة استثمار أخرى؟

يقول الفنان الكبير نور الشريف فى حوار أجرته معه مجلة «الفن السابع» التى يصدرها الفنان محمود حميدة ما نصه:

«لقد قرأت اللائحة حرفًا.. حرفًا.. وكلمة.. كلمة.. وهذه القراءة ليست بسبب غرامى بالاستثمار أو لائحته، ولكن حين فجعت برقم الـ ٢٠٠ مليون كشرط لمزاولة النشاط السينمائى قلت لنفسى، لعل هناك صناعات أخرى قيدت ممارساتها بهذا الشرط التعجيزى. قرأت، فلم أجد إلا شرطًا واحدًا وفى مجال البناء والتشييد فقط، وهو «الإسكان الذى تؤجر وحداته بالكامل خالية لأغراض السكن غير الإدارى، يشترط ألا يقل عدد الوحدات عن خمسين وحدة سكنية، سواء اجتمعت فى شكل بناء واحد أو عدة أبنية» لم يقل ملايين الجنيهات».

ويقول نور الشريف إنه من الواضح أن العملية مرتبة ومتفق عليها سلفًا، وهذا ما تشير إليه كل الشواهد، والوسط السينمائى والثقافى يعرف ويصمت، فلا شيء يخفى، ولنترك خبايا التدبير للزمن، فإن لم يعلن عنها اليوم فسيتم ذلك غداً. إن تدمير صناعة حيوية وفن أساسى مثل السينما المصرية ليس بالأمر الهين، إنه كارثة قومية بكل المقاييس. إن انتهاء هذا الفن الذى مارست مصر من خلاله دورها الثقافى والفنى، مصر التى تُعَدّ من أقدم دول العالم فى التعامل مع هذا الفن واستيعابه، حيث بدأ على أرضها منذ قرن ـ إن انتهاء السينما إلى شخص أو اثنين من رجال المال الجدد يعنى سيطرة رؤية معينة على السينما، والهدف هنا هو العقل المصرى الذى تدور حوله معركة حادة خلال السنوات الأخيرة لإعادة صياغته، وتدمير مراكز ذاكرته.

لقد وقعت السينما المصرية ضحية لقوى عديدة، منها بعض العرب الذين يحاولون حصار الدور الثقافى المصرى، وقوى التطرف التى ترفض الفن أصلا أيا كان وبخاصة السينما، والحكومة التى لم تستوعب ولم تفهم الدور التاريخى والفنى والإنسانى والسياسى للسينما المصرية، وأخيراً رجال المال الجدد الذين يتقدم واحد أو اثنان منهم الآن للاستيلاء تماما على السينما المصرية التى هى أهم وسيلة فنية لمخاطبة العقل والوجدان العربى فى هذا القرن.

ويظل السؤال قائما عن الدافع الحقيقى وراء تقدم أولئك الذين لم نعرف لهم أى صلة بالثقافة لمحاولة استيعاب أهم أداة ثقافية والسيطرة عليها. لهذا تفصيل.

٣

وداعًا للسينما المصرية

كتب أحد رجال المال الجدد مقالاً فى الولايات المتحدة ينتقد فيه الصورة التى يظهر بها رجال الأعمال الجدد فى الحلقات التليفزيونية والأفلام السينمائية، والأعمال الأدبية.

هنا يمكن أن نضع أيدينا على أحد الدوافع القوية لبعض رجال المال الجدد الأذكياء. إنهم يريدون تقديم صورة إيجابية عنهم وعن أنشطتهم التى تتعرض لانتقادات حادة من المخلصين لهذا الوطن، خاصة لأصحاب الأنشطة الغامضة، أو الوكلاء الذين لم يشيدوا حجرا فى مصنع. إنما همهم تحويل مصر إلى سوق استهلاكى للشركات الكبرى التى يعملون فى خدمتها. أخطر ما فى هذا المقال، أنه دعوة صريحة للتدخل فى الأدب والفن، وهو نفس المنطلق الذى يتحرك منه المتطرفون المتحدثون باسم الدين. إنه الرغبة فى إخضاع الإبداع الفنى والأدبى إلى مفاهيم معينة من خارجها وهذا يمثل تزييفا للواقع. أعرف أن إغراءات عديدة ستقدم لبعض الكتاب من الحرفيين، ولذلك ليس مستبعداً أن نجد وكيل سيارات أوزاكا قطبا غوثًا من أقطاب الصوفية، ومتعهد سجائر فرجينيا الأمريكية وليّا من الأولياء الصالحين فى بعض الأفلام. أحد الأهداف الرئيسية لأصحاب المال الجدد تغيير صورتهم فى السينما المصرية، وفرض مفاهيمهم ورؤى

من يمثلونهم، وللأسف فإن الحكومة المصرية تمهد لهم الطريق بأخطر ما يمكن أن تسفر عنه القوانين، أعنى الاحتكار، حيث يضع القانون الجديد شروطًا معجزة للفنانين الحقيقيين ويسهل استيلاء شخص واحد أو اثنين على السينما كلها.

لست ضد الأفلام التى تدافع عن وجهات نظر أصحاب المال، الأثرياء الجدد، فى مجتمعنا، ولكننى ضد الاحتكار، أن يحتكر أحد هؤلاء أخطر وسيلة للتأثير. ولأننا لا نعرف الخيوط الخفية التى تربط بعضهم بالاحتكارات الدولية الكبرى، فمن الممكن أن نرى فيلما مصريا ذات يوم يتضمن رؤية مماثلة لما احتوى عليه فيلم قائمة شندلر مثلا، أو فيلما يتحدث عن جهاد الصهاينة فى بناء دولة إسرائيل. ليس من الضرورى أن تكون الرسالة فجة، مباشرة، فهناك ممن سيسخرون مواهبهم لخدمة سادة السينما الجدد وتقديم رؤاهم الخاصة.

أخطر ما يمكن أن نواجهه الاحتكار، الاحتكار فى أى مجال. يبدأ الأمر بالسينما وينتهى بالكتاب ووسائل الاتصال الحديثة، ونصل إلى يوم نجد فيه الكاتب لا يستطيع نشر إبداعه إلا من خلال قنوات محددة وبشروطها. إننى أدعو إلى أن يكون مثلنا الأعلى هو الولايات المتحدة نفسها. نعم.. لم يعد لدينا أحلامنا الأولى فى العدالة الاجتماعية، فى أن يعيش أبناء وطننا على الأقل حياة إنسانية. لندع إلى الاقتداء بالولايات المتحدة التى هى ليست اشتراكية ولا شمولية.

فى الولايات المتحدة الرأسماليون يحاربون الاحتكار، ويَعُدّونه خطراً على الرأسمالية نفسها. وعندما وصلت شركة التليفونات الكبرى إلى درجة من القوة هددت باحتكارها للسوق، تمّ إرغامها على تفتيت استثماراتها. ونفس الشىء حدث بالنسبة لجنرال موتورز التى كادت أن

تحتكر سوق صناعة الناقلات الضخمة، فتم تحجيم ما تنتجه وإنشاء شركة منافسة لها.

الاحتكار خطير، وهو يؤدى إلى نفس السلبيات التى يأخذها البعض على الشمولية، والدكتاتورية؛ فما البال ومرفق حى، مرتبط بالوجدان، بالتاريخ، بصياغة عقل المواطن وذاكرته، بالدور الثقافى المصرى ـ هذا المرفق التاريخى الذى انفردت به مصر لعقود طويلة تسلمه الحكومة اليوم بقانون لشخص أو شخصين.

طبعًا هناك الإستوديوهات القديمة المقامة فوق أراض مرتفعة السعر الآن ـ يكفى تقييم أرض إستوديو نحاس، أو جلال، أو إستوديو مصر التاريخى ـ لكن هذه الأرض، وهذه العقارات بكل ما تحتويه من أموال وإمكانيات ربح، ليست الهدف للأقطاب والقديسين من أصحاب المال الجدد. الهدف هو العقل والسيطرة على الرؤى. وللأسف، فقد سقطت السينما المصرية بأيدى بعض من أهلها، وبقوى كارهة لها من خارج (أهل النفط) ومن داخل (التطرف)، وانضمت إليهم أخيرا الحكومة بقانونها العجيب الذى ينهى أعظم وسيلة للتأثير فى الداخل والخارج، فما العمل إذن؟ وكيف يمكن مقاومة هذا الهول المنظم؟

مجرد توقيع!

لم أعرفه عند توليه السلطة، عندما كان مديراً لمكتب جمال عبد الناصر للشئون الإفريقية، أو عندما تولى وزارة الإعلام حتى اعتقاله فى انقلاب الخامس عشر من مايو الذى دبره الرئيس أنور السادات.

لم يكن محمد فائق بالشخصية الجماهيرية، ولم تكن له علاقات بالمثقفين، وقد عرفته من خلال الآخرين قبل أن أعرفه شخصيّاً عندما ضمتنا اللجنة المصرية للتضامن الآسيوى الإفريقى وكمناضل نشط فى مجال حقوق الإنسان.

فى عام واحد وثمانين وتسعمائة وألف زرت السودان، وهناك حدثنى أشقاء من السودان وبعض الأقطار الإفريقية عن محمد فائق الرجل الذى كان منظمًا ومحركًا وممولاً لجميع حركات التحرر الإفريقية، بدءا من لومومبا فى الكونغو وحتى نلسون مانديلا فى جنوب إفريقيا، تربطه بالزعماء الأفارقة الوطنيين علاقات وثيقة حتى يومنا هذا. وليت محمد فائق يكتب مذكراته الشخصية عن نضاله من أجل تحرر القارة، كان عمله سرى الطابع، وبالتأكيد فإنه يعرف الكثير مما لم يقله بعد.

فى انقلاب مايو اعتقل محمد فائق. كان وزيرا للإعلام، واتهم بأنه أذاع الاستقالات الشهيرة للوزراء الناصريين الذين اختلفوا مع السادات والذين ولد معظمهم فى حضن السلطة، أو عاشوا فيها وعلى قمة الاتحاد

الاشتراكى حتى صدقوا أنه حزب حقيقي، وله قواعد، وكوادر جاهزة مؤمنة بالقيم والمبادئ، وتصوروا أن الكوادر سوف تحرك الجماهير وتلوى عنق السادات وتحسم الصراع، وكان ذلك منهم قمة السذاجة وعدم فهم طبيعة السلطة فى مصر، ومدى القوة الهائلة التى يتمتع بها من يجلس فوق ذروة الهرم، مكان الفرعون القديم. لقد خرجت الجماهير صباح السبت بعد إعلان استقالاتهم بالفعل. ولكن لتؤيد السادات ولتطالب بفرمهم. إن الجماهير تكون عظيمة فى حالة واحدة: إذا كان هناك حزب قوى قادر على تحريكها بالفعل، وهذا لم يحدث فى مصر إلا فى ثورة سنة ١٩١٩ والنضال ضد الاحتلال البريطانى. ولكن هذه الجماهير نفسها تصبح وحشًا بدون رأس إذا افتقدت البوصلة، أو إذا تم تعبئتها بواسطة الإدارة كما حدث فى مايو، ولهذا حديث يطول.

اعتقل محمد فائق، وطالب المدعى الاشتراكى ـ المنصب المستحدث ـ بإعدامه، وصدر الحكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات. والانتقال من قمة السلطة إلى السجن صعب. هكذا بدأت أخبار الرجال الذين كانوا فى ذروة المسئولية تتسرب إلى الخارج. ولأننى أعرف قسوة الظروف، فإننى أفهم ما يمكن أن يقع للإنسان فى لحظات الضعف والإحباط، خرج بعضهم بعد سنوات قليلة. كان المفروض أن ذلك بلى كتابة ورقة بسيطة فى مظهرها، مجرد سطور تتضمن اعتذاراً إلى الرئيس السادات وتوقيع صاحبها. ذكرتنى هذه الورقة بما كان يسمى بالاستنكار الذى أشرت إليه من قبل فى الأسبوع بمناسبة إجبار الشيخ الشيعى على استنكار ما يعتقده فى السجن. وأبشع ما عرفته محاولة الضغط على إنسان أسير ليغير أفكاره ومعتقداته. للأسف هذا مستمر بشكل ما إلى يومنا هذا، وما يجرى لحمدين الصباحى من إجراءات قاسية لمجرد أنه أبدى موقفا ورأيا مما يثير الفزع. فبرغم المناخ الديمقراطى الذى نعيشه، فإن هناك أجهزة قاسية تحن إلى الماضى وقهر الآخرين.

أقول ليس هناك أشق ولا أفظع من إجبار إنسان على تغيير موقفه تحت ضغط، وعانى محمد فائق. كان هناك تركيز خاص عليه، ومر بظروف شخصية وعرة وقاسية، ولكنه كان أكثر الجميع صلابة وقدرة على التحمل. كذلك كان على صبرى، رحمه الله.

كان السادات فى انتظار الورقة، اعتذار من محمد فائق، وكان يقول لمحمد حسن الزيات كلما رآه: «قريبك ما بعتش اعتذار».

هنا يسأل الزميل محمد همام محرر مجلة نصف الدنيا الأستاذ محمد فائق ما نصه:

«قد يتساءل البعض: ما المشكلة فى أن يعتذر إنسان أمضى خمس سنوات فى السجن والعمر يمضى ورئيس الدولة غاضب عليه، وغضب الرؤساء فى العالم الثالث مصدر للمتاعب الدائمة؟ . .».

هذا السؤال من الصحفى الشاب كان دافعى للكتابة عن محمد فائق، فربما كان التأكيد على البديهيات ضروريًا. إن وجود الإنسان كله قد يتلخص فى هذا التوقيع على ذلك الاعتذار. لقد رفض محمد فائق مجرد التوقيع على اعتذار، ودفع عشر سنوات من عمره، ولقد عرفت رجالا كادوا يدفعون حياتهم أو فقدوها بالفعل وهم يرفضون توقيع ورقة. لقد خرج محمد فائق من السجن بعد أن أمضى المدة كاملة وكسب نفسه أولا. خرج متماسكًا، قويا، لم يبدل مواقفه ولم يغير ثوابته ولم يوظف مهاراته، والأهم. . أنه على درجة من السماحة والشفافية الرائعة. ها هو ذا فى الحوار نفسه يذكر أولئك الذين كانوا يسألون عنه فى سجنه القاسى: أسامة الباز، وجيهان السادات، والمرحوم موسى صبرى. أما حديثه عن السادات، فلا نلمح أثرًا للحقد أو الضغينة فيه، إنما يتحدث من منطلق

خلاف سياسى . وما زال لمحمد فائق مواقفه التى لم يحد عنها ، وما زال هادئًا ، وما زال متواريًا يدير عمله فى دار النشر المحترمة التى أسسها منذ سنوات . وبرغم أننى لا ألتقى به إلا نادرًا ، فإن احترامى له يتزايد . ما أشد الحاجة إلى إبراز وذكر رجال فى قامة محمد فائق ونزاهته ، فى زمن نرى فيه ما نرى!

الملايين العشرة

مشاعر عديدة انتابتنى عندما قرأت عن قرار الرئيس مبارك منح الشعب الفلسطينى عشرة ملايين دولار تخفيفًا عنه وعن معاناته تحت الحصار الإسرائيلى غير الإنسانى الذى يتم الآن .

أول هذه المشاعر التقدير للخطوة التى تفيض بالمعانى القومية والإنسانية التى تتفق مع مضمون مصر الإنسانى والحضارى ودورها القومى . إن المشاهد التى نراها عبر شاشات التليفزيون ضارية ، مؤلمة ، والعالم يقف متفرجًا على جنود جيش الدفاع وهم يدققون فى الهويات ، ويدفعون صدور النساء العجائز بمدافعهم سريعة الطلقات ، بينما تقوم البولدوزرات الجبارة بهدم منازل الفسطينيين فى الخليل وبعض مدن الضفة . يجئ القرار فى هذه الظروف التى يعانى فيها الشعب الفلسطينى الحصار ، وهو بالمناسبة أحد ثلاثة شعوب عربية الآن تعيش تحت الحصار الإسرائيلى ، الأمريكى ، ليبا والعراق ، ولا ندرى أى شعب عربى سيفرض عليه الحصار غدًا . فى الإذاعة البريطانية أصغيت إلى أحد مواطنى غزة ، كان يتحدث عن عائلته المكونة من ستة عشر فردًا ، وكيف أنهم لا يجدون إلا أسماك البحر يقتاتون بها . الأمر مؤثر وشاق على النفس . وفى هذه الأجواء يجيء قرار الرئيس مبارك ذو الدلالات العديدة .

الشعور الآخر الذى راودنى ، ذلك الدرس البليغ الذى تلقنه مصر للدول الثرية فى المنطقة ، هذه الدول لم تمد يد العون إلى الشعب

الفلسطيني، ومنها من يحتجز أمواله، ويجمدها، ولكن مصر التي تشهد تنمية شتى في مختلف المجالات تقدم هذا المبلغ كدفعة أولى، وكثير من جوانب الحياة في مصر تحتاج إلى كل دولار من هذه الملايين العشرة، خاصة في الصعيد، ولكن ما فعله حسني مبارك يتفق تماما مع تقاليد أهل الصعيد وأهل الريف المصري في كل مكان، عندما يقتسم الأهل ما لديهم من زاد قليل مع جيران لهم يمرون في أزمة، أو يعانون مسغبة.

الشعور الموازي، هو الدرس الذي تمثله هذه المنحة لبعض أثرياء الفلسطينيين أنفسهم، هناك مليارديرات مشهورون في العالم أصلهم فلسطيني، ومنهم من يمتلك بنوكًا ومؤسسات مالية ضخمة تعمل في الأردن والبلاد العربية ومصر وأوروبا وأمريكا، لكننا لم نسمع ولم نقرأ عن أي تبرع أو منحة من مؤسسات شومان المالية أو غيره للفلسطينيين المحاصرين في غزة والضفة. بل إن الدرس يمتد ليشمل القيادات الفلسطينية نفسها، وهي قيادات فاسدة في معظمها، وفسادها أشد وأنكى من فساد بعض الأنظمة العربية، وهذا واقع نعرفه وتفاصيله أكثر من أن تحصى، ولكننا ارتكبنا أخطاء عديدة كأدباء وكتاب عندما سكتنا عن هذا الفساد وكان السبب هو حرصنا على عدم الإضرار بالثورة أو القضية، وثبت مع الأيام أن القضية لم يضر بها إلا أهلها، وما قرأناه وتابعناه عن سلوك السلطة الفلسطينية الوليدة كثير جدا. ومنذ أسبوعين فقط كان هناك اتهام من المجلس التشريعي الفلسطيني لبعض الوزراء البارزين من معاوني عرفات المقربين بالفساد ومنهم نبيل شعث نفسه، وطالب المجلس بمحاكمتهم وإقالتهم. كما أن هناك ما نقرؤه عن القصور الضخمة، الفخمة التي يعيشون فيها في غزة المحرومة المحاصرة، قصر لأبي عمار، قصر لأبي مازن (هذه الشخصية الغامضة التي سأعود إليها تفصيلا) وقصر لأم جهاد، ومن خلال الصور التي يبثها التليفزيون العالمي لمقابلات هؤلاء (الآباء)

يمكننا مـلاحظة التطور فى الأثاث، والسيـارات، والمكاتب، والغـرف الوثيـرة، وكلها مظاهر لا تتـفق مطلقًا مع ظروف الحصار التى يعيشـهـا الشعب الفلسطينى البائس. لعـل المنحـة المصريـة تكون دافعًا لبعض هؤلاء الآباء كى يقدموا مـن أموالهم التى اكتنزوها هنا وهناك ولو مبالغ رمزية إلى شعبهم الفلسطينى المحاصر.

شعور آخر بالخوف والخشية على هذه الملايين العشرة أن يضل بعضها الطريق إلى الشعب الفلسطينى المعذب المحـاصر. إن مـا يسمى بالدول المانحة للسلطة الفلسطينية تشكو من عدم وجود هياكل إدارية، ومؤسسات مالية تنظم صرف الملايين المخصصة للسلطة الفلسطينية. وما نرجوه أن تكون لدى الإدارة المصرية الوسائل التى تمكنها من إيصال هذا المبلغ إلى أبناء الشعب الفلسطينى المحاصرين فعلاً، وألا يدخل جزء من هذه الأموال إلى جيوب بعض القيادات، أو يخصص بعضها لشراء الذمم، وعلب سيجار هافانا لإهدائها.

تلك المكالمات!

هكذا . .

وجدت نفسي مضطرّا إلى الإعجاب بنظام الحكم في الولايات المتحدة، ليس بسبب تغير طارئ على السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط بمناسبة زيارة وزيرة الخارجية، وليس بسبب ظهور أي بادرة أمل في إنصاف الحقوق العربية المشروعة، أو لإقدام الحكومة الأمريكية على الاعتذار للحكومة المصرية بسبب نشاط المخابرات الأمريكية فوق الأراضي المصرية، وتجنيدها سفير كوريا الشمالية الذي هرب إلى واشنطن بملفات كاملة تمس أدق الأسرار العسكرية.

لا . . شيء من هذا لم يحدث ولا تشير الدلائل إلى وقوعه، إنما كان الإعجاب بشأن داخلي يمسهم هناك، لا علاقة له بالشرق الأوسط، ولا بأوضاعنا في العالم العربي.

يتصل الأمر بضجة إعلامية فجرها الحزب الجمهوري ضد نائب الرئيس آل جور، والسبب أنه استخدم الهاتف الرسمي الخاص بمكتبه داخل البيت الأبيض في إجراء ثمانين مكالمة محلية (وليست دولية). جرى ذلك خلال الحملة الانتخابية الأمريكية. فقط ثمانون مكالمة محلية أقامت الدنيا ولم تقعدها، وهب السيد كلينتون لنجدة نائبه، وعانقه أمام العدسات الصحفية والمحطات التليفزيونية. وعلى الرغم من وعيي بسلبيات كونية للسياسة

الأمريكية، وبرغم إدراكى أيضا أن التركيز الإعلامى على هذه النقطة ربما كان الهدف منه أن أكتب هذا المقال، وأن يستقر داخلى هذا الإعجاب، فإننى مضطر إلى الإعجاب والدهشة والحزن أيضا.

أما الإعجاب فبدأت بشرح سببه. المخالفة تبدو بسيطة، مضحكة فى نظر العالم الثالث. وتصادف أننى فى نفس الأسبوع علمت بتحقيق جرى مع موظف فى وزارة سيادية أجرى مكالمات دولية بلغت قيمتها خمسة وثلاثين ألفا من الجنيهات، وكلها مع حماته! لم تنشر الصحف عنه شيئًا ولم يعرف أحد فى بر مصر التى تجرى فيها مخالفات رهيبة، وتستمر فيها ظواهر أشد رهبة من جانب بعض شاغلى المناصب العليا، بالتحديد المسئولين الذين يبيعون مناصبهم. وظاهرة بيع المنصب فى مصر قديمة، متأصلة.

هنا كانت الدهشة.

هل يستحق السيد جور كل هذه المساءلة بسبب إجرائه ثمانين مكالمة محلية؟ أين ذلك مما يجرى عندنا؟ هل قرأنا أو سمعنا عن مساءلة وزير أو تقديم أحد الذين يحتلون المناصب العليا الذين دخلوها وهم خلو الأيدى، ثم أصبحوا بطرق شتى وأساليب لا تخفى على اللبيب الفطن أصحاب ملايين ومنشآت برية وبحرية ونهرية وجوية، وذلك عن طريق بيع المنصب واستغلال النفوذ؟ وطال الأمد ببعضهم وازداد تمكنا، حتى ليبدو الفساد مبررًا للتمكين والبقاء. انقلبت القيم فى مصر، وانتفى مفهوم الحساب والمساءلة، وكل ما نطالب به هين بسيط يتسق مع تقاليد النزاهة التى كانت مصر تعرفها من قبل، أن يعلن كل مسئول يتولى أحد المناصب الرئيسية إقرارًا دقيقًا بثروته عند توليه المنصب، ويوم خروجه منه، أليس ذلك أمرًا بديهيًا؟

لكنه فى مصر لا يجرى ولا يحدث، بالعكس . . فإن بعض المشهود لهم بالنزاهة وكانوا يقومون بمراقبة الانحرافات هوجموا وأبعدوا عن مناصبهم . إن مراكز الفساد أقوى وأشرس، وكما ذكرت مراراً فإن الشعب المصرى ذا الخبرة الطويلة بأساليب حكامه وإدارته لا تخفى على أبنائه خافية .

لكم تغيرت المقاييس! أخبرنا الأديب الكبير نجيب محفوظ عن موظف فى جامعة القاهرة اتهم بتقاضى رشوة قدرها خمسة جنيهات . كان ذلك عام تسعة وثلاثين وتسعمائة وألف . ظل نجيب محفوظ يذكر اسمه مقترنا بالعار والعيب حتى نهاية الخمسينيات .

كانت الرشوة جريمة، وكان التهرب من الضرائب عيباً كبيراً . الآن يتم ذلك علنًا، وأموال بنوك الشعب تنهب باسم الاستثمار، أخطر ما حدث فى مصر خلال ربع القرن الأخير، انقلاب القيم، هذا الانقلاب الذى منح المشروعية للفساد المتغلغل . والغريب أن القائمين بهذا الفساد بعضهم من أشد المعجبين قولاً وعملاً بالنظام الأمريكى، وأمريكا فى مجملها، بسلبياتها وإيجابياتها، لكنهم يعجبون بما يريدون، ويطوعونه لمفاهيمهم وطرقهم الملتوية . يرفعون شعارات الاقتصاد الحر، ويمارسون الخصخصة، ويتهربون من الضرائب، ولهم فى ذلك حيل شتى، مع أن التهرب من الضرائب فى الولايات المتحدة جريمة مخلة بالشرف، وها هو ذا رئيس مصلحة الضرائب المصرية يعلن انخفاض حصيلة الضرائب هذا العام بثلاثة مليارات جنيه .

شعرت بحزن، لأن ما جرى من محاسبة للسيد آل جور بديهى وطبيعى، ولكنه بالمقارنة لما نشاهده ونعاينه وانعدام محاسبة المفسدين فى الأرض عندنا بدا الأمر كأنه عبث، وكأنه قادم من كوكب آخر، وجعلت من محاسبة موظف كبير على خطإ ارتكبه أو عمولة تقاضاها هنا، تحت أى اسم مجرد أمر يدخل فى باب التمنى، لعل وعسى !

ناصـــر ٩٨

فى روايتى الطويلة «كتاب التجليات» ، التى عملت فى كتابتها ست سنوات منذ عام ثمانين وتسعمائة وألف ، تخيلت ظهور الزعيم الراحل جمال عبد الناصر فى ميدان الدقى ، وتداعيات ذلك ، وكيف انتهى الأمر بالقبض عليه ، وتوجيه تهمة انتحال شخصية الزعيم الراحل إلى شبيه الزعيم .

خيال . . مجرد خيال روائى ، وإن كانت عودة الشخصيات الشهيرة فى التاريخ لها سوابق فى تاريخنا . أذكر واقعة تتعلق بالحاكم بأمر الله فى العصر الفاطمى ، إذ اختفى هذا الخليفة الفاطمى فى ظروف شديدة الغموض ذات ليلة من الليالى التى اعتاد الخروج فيها لرصد النجوم فوق جبل المقطم . لم يعثروا له على أثر ، فقط وجدوا حماره مقطوع الأرجل ، وما زال الدروز ينتظرون عودته حتى الآن . لكن المقريزى يذكر أن شخصًا شديد الشبه به ظهر بعد حوالى عام فى الصعيد الأعلى وكان طويلا ، مهيبًا ، عيناه لا يمكن التحديق فيهما ، تماما كما كان الحاكم بأمر الله ، وسرعان ما اجتمع الناس حوله ، وبدأت دعوته تسرى ، غير أن الخلافة فى القاهرة ومن ممثليها شقيقته ست الملك أرسلت تجريدة عسكرية قوية إلى الصعيد ، وانتهى الأمر بقتل الشبيه وتبديد أتباعه . ولا أدرى لماذا يحدثنى

قلبى بأن من ظهر فى صعيد مصر هو الحاكم بأمر الله. ولكن الأمر كان قد اختلف. فالحاكم كان هُو هُو عند مثوله فى قمة السلطة، ومجرد خروجه منها تغير كل شيء، من المصالح والمستفيدين، إلى أرباب الوظائف. القضية ليست شبهًا فقط.

عبد الناصر انتقل إلى رحاب الله، ولكنه ما زال ماثلاً بين الناس بما دعا إليه. وما انحاز إليه، خصوصا قيم الوطنية والعروبة والعدل الاجتماعى من قبل ومن بعد.

الأربعاء الماضى، الموافق للذكرى الخامسة والأربعين نزلت مدينة القاهرة الهادئة، والتى لم تكن توحى بأى ذكرى ذات شأن، شوارع خالية، يوم إجازة فى يوليو الحار. أما بعض البرامج التى بثت فى هذا اليوم، فكانت إلى الاحتفال المدرسى الساذج أقرب. حقا.. إننا خبراء فى النسيان. وحتى لا أظلم الشعب المصرى، أقول إن هناك الآن أصحاب مصالح من خارج مصر وداخلها يشنون حربًا لا هوادة فيها، ليس ضد شخص عبد الناصر ولكن ضد ما كان يمثله، وما كان يدعو إليه، وأهم نقطة فى ذلك فكرة العدالة الاجتماعية.

سرعان ما رحت أتأمل المدينة بعينى عبد الناصر، لو ظهر فى ذلك اليوم. لنفترض أنه ظهر فى كوبرى القبة. أول مكان سيتجه إليه بيته فى منشية البكرى، سوف يجد الشارع مفتوحًا، مباحًا لمرور العربات، وعلى ناصيته مطعم للوجبات السريعة على النمط الأمريكى. لا أظن أن وجوده فى هذا المكان صدفة. سيمضى عبد الناصر إلى بيته فلن يجده، لا أحد فيه من أسرته، بل إنه ربما لن يعرف بعض أحفاده إذا رأى ما يعيشون فيه من بحبوحة فاقت كل ما دفعه هو شخصيا إلى الثورة على الملكية والفساد المصاحب لها والذى يعد متواضعًا جدًا إذا ما قيس بما سيقف عليه ويراه. سيقرأ عن فرح أحد أحفاده ولحوم الطواويس التى أكلها المدعوون المستوردة

من إيطاليا، وسيدهش الزعيم، هو الذى كانت ذروة متعته فى الجبن الدمياطى الأبيض، حتى إنه كان يحرص على مصاحبة علبة منها فى رحلاته الخارجية. كان متواضع الملبس، بسيط المظهر، حتى من أضمروا له العداء لم يجدوا ما يمكنهم النيل منه فى أمرين اعتاد الخلق مس أولياء أمورهم من خلالهما: المال الحرام والنساء. وعندما بلغت الحرب ضده ذروتها، وحاول صحفى كبير أن يمس ذمته المالية، كان ذلك بمثابة شهادة الوفاة لهذا الصحفى نفسه.

لا بد أن عبد الناصر سيأخذه الذهول، وتتملكه الدهشة، عندما يقرأ ما سيجده منشوراً لبعض كبار كتاب عهده، لطفى الخولى، ومحمد سيد أحمد، وبعض من كانوا ما زالوا فى البدايات يشيدون به وبالاشتراكية. لنا أن نتخيل عبد العظيم رمضان فى اللحظات الأولى لمواجهته عبد الناصر. ترى.. ماذا سيقول هؤلاء؟ وكيف يتصرفون قبل اكتشافهم أنه عائد إلى زمن غير زمنه، وإلى أوضاع مغايرة تماما لما دعا إليه، ولما قامت من أجله ثورة يوليو؟ أثق بأن أكثر ما سيؤلم عبد الناصر هو انتهاء فكرة العدل الاجتماعى الذى دعا إليه. كان منحازاً لأغلبية الشعب المصرى الفقيرة. أتاح لأبنائهم التعليم وإمكانية الحياة الكريمة، والحلم بتحقيق حياة طبيعية فى الحدود الإنسانية، وهذا ما انتهى تماما الآن. لقد اختفت فكرة العدل الاجتماعى، وضاقت دائرة المستفيدين، المتمكنين من ثروات مصر، ويزحف اليأس بكل ظلاله القاتمة على ملايين الشباب الذين تقذف بهم الجامعات والمدارس إلى الشوارع بدون أمل فى عمل، فى وظيفة ولو متواضعة، فى شقة ولو من حجرة وردهة. لم يعد أحد يفكر لهؤلاء، حتى إذا قامت بعض العمارات بطريق الخطإ للفقراء فسرعان ما تهدم من أجل راحة لاعبى الجولف، مع أن نصف مبانى القاهرة آيلة للسقوط ولا يتحرك وزير التعمير لإصلاحها أو هدمها.

سيقرأ عبد الناصر ما لن تصدقه عيناه، وسوف يسمع ما يذهله، وسيسرى خبر ظهوره، ويتم استنفار موظفى السفارة الأمريكية، والإسرائيلية طبعا. وتتحرك قطع الأسطولين السادس والسابع من بحر الصين، وتكشر مادلين أولبرايت عن سحنتها، وترتفع أسهم وتنزل أسهم وتضطرب البورصة المصرية التى يضارب فيها بعض أحفاده، وسيعلن بعض الشيوخ المحترمين أنها فتنة يجب أن تنتهى فى مهدها، وسيخرج مئات الألوف إلى الشوارع والميادين، التواقين إلى العدل، إلى حياة إنسانية كريمة فى حدودها الدنيا، سيبحثون عنه طويلاً. لكنهم لن يجدوه، لن يعرفوا مصيره. من أحاط به؟!

ولكن ما كان يمثله من عدل اجتماعى سيبقى أكثر وأشد.

فكـر الإبـادة

يوجد العرب الآن فى محطة «السى إن إن» الأمريكية بقوة وكثافة . ثمة تركيز لا مثيل له خلال الأيام الماضية على مدار الأربعة وعشرين ساعة ، بالتحديد منذ حادث القدس الأخير ، يوجد العرب ليس بالطبع كشعوب يجرى التعريف بهم وبثقافتهم ، وعاداتهم ، إنما كجنس بشرى ينبغى إبادته .

ثمة حملة كراهية ، ذات مضمون عنصرى لا مثيل له فى القرن العشرين ، فالنازية الهتلرية لم يكن لدى آلة دعايتها وسائل كونية تبث للكوكب كله مثل هذه المحطة الإخبارية التى تستخدم أحدث منجزات العلم ، ذات الإمكانات الهائلة ، والمتصلة مباشرة بالمخابرات المركزية الأمريكية . هذه المحطة لعل القراء يذكرون دورها خلال حرب الخليج الثانية ، قبل غزو الكويت ، وبعد الغزو ، ثم خلال القصف الأمريكى الهمجى للعراق . فى تلك الأيام كان المشاهدون العرب يستطيعون رؤيتها بدون أى رسوم اشتراكات ، أو نظم خاصة ، كانت جزءا لا يتجزأ من آلة الحرب الأمريكية ، تماما مثل سلاح الطيران ، والأسطول البحرى ، والصواريخ بكل أنواعها ، لذلك يجب أن ننتبه جيداً إلى العوامل الكامنة وراء تأجيج عوامل الكراهية ضد العرب والمسلمين .

خلال الأيام الماضية أتيح لى أن أتفرغ وقتًا طويلاً لمتابعة أخبارها وبرامجها، تقوم الحملة المكثفة على الربط المباشر بين الإرهاب الدموى بكل أشكاله وبين العرب والمسلمين. تساند الحملة صور من الأرشيف لقضايا اتهم فيها بعض العرب، أو حامت حولهم شبهات، يجرى التذكير بحوادث مضى عليها سنوات، مثل عملية الهجوم الاستشهادية الدائمة التى تمت ضد قوات المارينز فى بيروت، يجرى إعادة الصور الملتقطة للجثث، وللجنود الأمريكان، والمبنى المنهار، ثم يتوقف الفيلم، ليتم التركيز على فدائيين عرب يؤدون الصلاة. منتهى التزييف للواقع، فنقطة البداية كذب وتزييف، إذ. . لم توضح المحطة لمشاهديها، ماذا جاء بهؤلاء الشبان الأمريكيين من وراء المحيط إلى أرض لبنان، أو أى أرض عربية أخرى؟

ثم يعقب ذلك إعلان متكرر عن حوار مع بن لادن، هذه الشخصية الغامضة المقيمة الآن فى أفغانستان، ويتم عرض لقطة لبن لادن وإلى جواره مدفع مضاد للدبابات، ثم يتم استعراض ما قام به الطالبان والعصابات المتناحرة باسم الإسلام على أرض أفغانستان للأسف، وما هذه العصابات إلا من صناعة وكالة المخابرات المركزية ذاتها، لكن لا يتم التركيز عليهم الآن بحُسبانهم مجاهدين ضد الاحتلال السوفيتى. لقد انتهى الاحتلال، وانسحب الجيش الأحمر وانتهى الاتحاد السوفيتى نفسه، وللأسف تحولت قوات المجاهدين إلى عصابات متناحرة دمرت أفغانستان، وتحولوا أيضا إلى مادة مصورة إخبارية تبثها المحطة الأمريكية وغيرها دليلا على وحشية المسلمين ودمويتهم وتخلفهم، ولاستخدامهم أيضا فى الحملة الشرسة العنيفة ضد العرب بحُسبانهم مصدراً للخطر يهدد الحضارة الغربية بل يهدد الإنسانية.

إن هذه الحملة المكثفة القائمة الآن تؤدى إلى شيء ما يدبره سادة النظام العالمى الجديد. إنها استنفار للرأى العام عندهم خاصة وفى الغرب عامة للتهيئة لخطوات عملية على أرض الواقع ربما تتم مستقبلا، مسرحها طبعا العالم العربى. إن تصوير المسلمين عامة والعرب خاصة بحُسبانهم الخطر الأول على البشرية، رغم وهنهم وتشرذمهم وعدم امتلاكهم لسلاح نووى - إن التركيز الحالى فى هذه المحطة ترسيخ للكراهية العنصرية، وتحريض سافر ضد أمة بأكملها، وضد مليار أو أكثر من البشر. لقد قامت الولايات المتحدة على فكر الإبادة، والمثال الذى نضربه دائما عن الهنود الحمر ليس فولكلوراً، إنما هو حقيقة تاريخية تتضمن معاناة شعب بأكمله أبيد تقريبا وتم إنهاء وجوده التاريخى والإنسانى. وفكر الإبادة كامن فى العقلية الأمريكية، وليست إبادة العرب بعيدة عن هذه العقلية، وكل الظروف الحالية للعالم العربى، الذى لم يرتفع منه صوت احتجاج واحد ضد هذه الحملة العنصرية الكريهة، لا من الجامعة العربية، ولا من أى عاصمة عربية، تقول إن إمكانية إبادة هذه الأمة قائمة ومتاحة. فلم يتوافر لأمة فى التاريخ عناصر مثل العناصر الكامنة فيها المؤدية إلى القوة، ولم يتوافر أيضا عوامل هدم وإضعاف كتلك المتوافرة الآن لأمة العرب. فهل نحن بعيدون عن مصير الهنود الحمر، وعما لقيه أجدادنا فى الأندلس، وما جرى فى القلب من عالمنا العربى فى فلسطين؟

هل نحن بمنأى؟ هل ذلك مستحيل؟ أقول: تأملوا وتابعوا ما تبثه أشهر محطة إخبارية أمريكية ضد العرب والمسلمين، وسوف تكتشفون أن هذا المصير أقرب إلينا من حبل الوريد.

عن المظهر والجوهر

للمناصب العليا فى جهاز الإدارة المصرية موقع خاص عند المصريين. الأسباب فى ذلك شتى، منها عراقة جهاز الدولة، وأهميته فى تنظيم شئون الحياة اليومية للناس، تلك المتصلة بأهم ما يقيمها مباشرة، أعنى توزيع مياه النيل، وضبطه، وتلك المهمة التى حددت شكل الإدارة فى مصر، وجعلت من الفراعنة شبه آلهة. فلا بد لمصر من شخصية قوية، حازمة، تحكم تدبير الأمور، وتتربع على قمة النظام الهرمى الصارم، لذلك أقول إن هرم مصر يلخص نظام حكمها. إنه رؤية وفلسفة قبل أن يكون عمارة.

ومن أهم المناصب فى الإدارة الوزراء، والوزارة منصب رفيع منذ أيام الفراعنة، ولعله لم يحظ بتلك المكانة فى أى حضارة أخرى، لذلك كانت عيون الناس منصبة، مركزة على من يتولون الوزارة فى مصر، فإذا صلحوا صلحت الأحوال، وإذا فسدوا شاع الاضطراب وتحلل الزمان. وبحسبانى واحدا من أبناء هذا الشعب القديم، العريق، الذى له فى الحكم دربة وخبرة، فإننى من المغرمين بتتبع أحوال أرباب المناصب العليا، وأحوالهم، خاصة منذ الإعلان عن أسمائهم، وتوليهم المسئولية، وخلال ممارستهم لها، ثم عند خروجهم وما يقع لهم من أحوال. ولأننى لا أعرف الجميع شخصيًا فإننى أتابع المظاهر البادية، خاصة أن التليفزيون وفر لنا وسيلة

مهمة لم تكن تتاح لأجدادنا القدامى تمكننا من تفقد أحوالهم اليومية، ورؤية متغيراتها، فلم يكن الأجداد يرون الوزراء إلا فى المواكب والمناسبات، ولكن التليفزيون جعلهم جزءا من الحياة اليومية، ولذلك فإن كل تغير يمكن رصده وملاحظته. وأول ما ألاحظه المظهر العام، وأهم ما فيه الكسوة ومعالم البشرة. وهنا نجد أن الوزراء أنواع وفئات، أو بلغة القدامى طبقات.

فالطبقة الأولى منهم، من صفاتهم النزاهة والنزاهة أمر فاصل، حاسم، والشعب المصرى حساس جدًا تجاهه، ولا تنطلى عليه سائر أساليب التزييف. وهناك من كبار المسئولين من أمضوا فى مواقعهم ما يقرب من عشرين عامًا، وطبيعة تخصصاتهم تتصل بعقود تقدر بالمليارات. وما زلنا نراهم فى هيئتهم التى بدءوا بها، يرتدون الملابس مصرية الصنع، وملامحهم تحمل ظلاً من الظلال التى تميز الموظف المصرى. صحيح أن أحوالهم ليست متدهورة تماما مثل الموظفين الكبار الآن، ولكنهم مستورون، نتيجة لما توفره الحكومة لكبار المسئولين فيها من بدلات ومصروف جيب بحيث يمكن للوزير أو المسئول الكبير النزيه أن يواجه نفقات الحياة المتزايدة بشكل رهيب. ولو اعتمد الدكتور الجنزورى رئيس الوزراء الحالى على مرتبه لعرف الحاجة وعسر الأحوال، فيومية رئيس الوزراء المصرى الآن طبقًا للجدول الرسمى للمرتبات تبلغ خمسة وثلاثين جنيها. وبالمناسبة فالدكتور الجنزورى يمت إلى هذه الطبقة، فملابسه ملابس مسئول شريف، وبخاصة حلته وحذاؤه، ولا أعنى بذلك البهدلة أو الرثاثة، بالعكس فالملابس المصرية الجاهزة أنيقة جداً وبلغت مستوى يضعها فى درجة عالية من الجودة والإتقان، ولكن الأمر يتعلق بالتمظهر الذى أصبح سمة من سمات أثرياء مصر الجدد، والذين

يستوردون الطعام لضيوفهم من أوروبا، مع أن الطعام المصرى أصيل وجميل ورائع، لكن القضية ليست مسألة تذوق، وإنما مسألة تباه بما تم إنفاقه، قضية هذا (بكم؟). ومن الوزراء الذين أمضوا فترة طويلة فى الحكم وما زالت ملابسهم بنفس النمط، صناعة مصرية، ويدخلون فى هذه الطبقة بجدارة الدكتور ممدوح البلتاجى، والدكتور أحمد الجويلى، وهؤلاء أذكرهم على سبيل المثال.

يمكن القول إن النزاهة سمة أساسية ترتبط بكبار المسئولين من هذه الطبقة الأولى، ويلتقط الشعب المصرى الحساس الذكى الحقيقة، ويضع أمثال هؤلاء فى أقواله وعباراته. وما زال الناس يذكرون بالخير اللواء أحمد رشدى، والمهندس حسب الله الكفراوى، والمرحوم اللواء زكى بدر، وغيرهم من الشرفاء الذين لم يعمروا طويلاً فى مناصبهم، ذلك أن وجود بعضهم يصير مقلقًا لآخرين، وهذه نقطة قديمة يمكن أن نتوقف أمامها طويلا.

الطبقة الثانية من الوزراء وكبار المسئولين، أولئك الذين يبدءون المسئولية ومظهرهم متواضع. بل إن الأصول التى جاءوا منها معروفة. مكشوفة ثم بعد فترة قد تطول أو تقصر، تظهر عليهم آثار النعمة، ومظاهر الثراء الكثيف، مما يتناقض تماما مع مقدار الأجور التى يتقاضونها (يومية الوزير طبقا للأجور الرسمية ثلاثون جنيها)، ونسمع الأقاويل، وتكثر الإشاعات، ونلاحظ عند أفراد هذه الطبقة تغير ملابسهم، ولون بشرتهم، واشتداد أناقتهم واتساع أملاكهم. إن قانون من أين لك هذا لا يطبق، وأبسط ما يحمى نزاهة الحكم لا ينفذ، وهو أن يعلن كل من يتولى منصبا كبيرا مقدار ثروته عند تسلمه المنصب، وأن يعلنه عند الخروج منه، فإذا لاح تضخم غير عادى وجبت المساءلة، التى قد تقود إلى المحاسبة، والمحاسبة

أمر عسير، صعب الوقوع بالنسبة لهؤلاء، فكأن تلك المناصب ما تزال تحتفظ بالقدسية القديمة فى الزمن الفرعونى.

لنستحضر الأفلام التليفزيونية أو السينمائية لكبار المسئولين منذ عشر سنوات مثلا، ولنقارن مظهرهم حينذاك بمظهرهم الآن، وعندئذ سوف نميز المسئول الشريف من المسئول الذى باع المنصب وتربح منه عبر سماته، وبدلته. وبيع المنصب هذا ظاهرة قديمة فى الإدارة المصرية، لها أصول، وزادت خلال السنوات الأخيرة، لذلك تحتاج إلى وقفة.

الفريق أول.. فوزى

صباح الأحد الثانى عشر من يونيو الأسود، كانت نيران الهزيمة فى أوجها، تَؤجّ وترعى وتلتهم. وكان أول ملمح من ملامح المقاومة أيضًا قد اندلع ودوى، تلك الجماهير التى اندفعت إلى الطرقات ولم تنثن إلا بعد إعلان عبد الناصر تراجعه عن التنحى، وبقاءه فى السلطة ليصلح ما فسد، وليقوم ما انهار.

لكن.. كيف؟

ما زلت أذكر العناوين الرئيسية لصحف ذلك اليوم. كانت تتفق فى مضمونها: إعادة البناء العسكرى، وتعيين الفريق أول محمد فوزى قائداً عامّا للقوات المسلحة، وكان رئيسا للأركان وإن ثبت فيما بعد أنه لم يكن يمارس اختصاصاته بسبب المشير عامر ورجاله.

بدا الفريق أول محمد فوزى فى الصورة المنشورة رجلاً متجهمًا، شديد الانضباط، لا تعرف الابتسامة طريقها إلى وجهه، ولكم كان الوضع وقتئذ فى حاجة إلى صرامته وانضباطه. كان الفريق أول فوزى عسكريّا أصيلاً، محترفًا، بل كان منحدراً من أسرة عسكرية عريقة، فوالده أيضا كان ضابطا فى الجيش المصرى، ما زلت أذكر انطباعات تلك الأيام وكأنها بالأمس. كان الحديث عن إعادة بناء القوة العسكرية يبدو صعبًا، خارقًا، خاصة فى ظل الأنباء والمعلومات التى بدأت تتدفق من الإذاعات الأجنبية عن حجم

الهزيمة المروع فى سيناء والدمار الذى لحق بالقوات المسلحة، وظهور الجنود الشاردين فى شوارع المدينة بأسمالهم المهلهلة، وأسلحتهم التى لم تستخدم. ولكن فى نفس الوقت كان هذا الشعب الأصيل، ذو الحضور الممتد فى التاريخ يستنفر مخزونه كله لتجاوز تلك المحنة التى ما زلنا نعيش آثارها حتى الآن ونحن نقترب من مشارف القرن الحادى والعشرين.

وعلى الفور، بدأت القيادة الجديدة للقوات المسلحة عملها فى ظروف صعبة جدًا، وكان على قمتها الفريق أول فوزى. والفريق عبد المنعم رياض. وقد سجل الفريق أول فوزى تفاصيل ما تم من جهد وبذل فى كتابه عن حرب السنوات الثلاث ويعد توثيقًا شديد الأهمية لتلك الأيام ومعجزة إعادة بناء القوات المسلحة التى كان لدى أبنائها إحساس عميق بالجرح والهزيمة التى لم يكونوا مسئولين عنها، إذ لم تتح لهم فرصة القتال الحقيقى.

وقد ظهرت أول علامة إيجابية فى نهاية شهر يونية عندما تقدمت قوة مدرعة إسرائيلية لاحتلال ما تبقى من سيناء، وتصدت لها قوة من الصاعقة المصرية فى منطقة رأس العش، وبقى العلم المصرى مرفوعًا فوق هذا الجزء من سيناء الممتد حتى بورفؤاد شمالاً كرمز ومعنى.

لن أعدد ما دار من معارك خلال الأسابيع التالية لاكتمال الهزيمة وبدء علامات المقاومة من الشعب وقواته المسلحة، فيكفى للأجيال الجديدة أن تعود إلى البيانات العسكرية وإلى صحف المرحلة لجلاء الحقيقة. هذه الحقيقة التى تقول إن الشعب المصرى لم يستسلم للهزيمة، وإن إرادة القتال ظلت سليمة، بل زادت حدة نتيجة الشعور بالجرح، لقد قال الجنرال ديان فى يونيو إنه يجلس إلى جوار الهاتف منتظرًا رنينه واستسلام العرب. ولكن الهاتف لم يرن إلا بعد عشر سنوات، وكان ذلك فى زمن آخر

وعصر آخر. كان السادات على الطرف الآخر من الخط، وكانت السنوات العشر حافلة بالمقاومة، وأساليب القتال المتنوعة.

كان المشهد على جبهة القتال أسطوريّا، خاصة خلال حرب الاستنزاف، ذلك الأداء البطولى للقوات المسلحة فى زمن صعب، وذلك التلاحم مع أبناء الشعب فى السويس والإسماعيلية وبورسعيد. سوف نلاحظ أن أصدقاء إسرائيل والمتعاملين معها ركزوا على تشويه هذه الفترة ومحاولة قلب الحقائق المتعلقة بحرب الاستنزاف خاصة.

خلال هذه الحرب كان الفريق أول محمد فوزى على رأس القوات المسلحة يبذل الجهد الأتم مع رجال قيادته، واستشهد رئيس الأركان فى الموقع رقم ستة على القناة مباشرة، وخرج الشعب يودع البطل عبد المنعم رياض فى مشهد أسطورى.

بدءا من عام تسعة وستين وتسعمائة وألف بدأت العمل فى القوات المسلحة كمراسل لجريدة الأخبار، وقدر لى أن أقترب من حرب الاستنزاف وأعايشها بتفاصيلها، وأيضا عملية إعادة بناء القوات المسلحة. وكان على رأس القوات المسلحة الفريق أول محمد فوزى. لم أقترب منه شخصيّا إلا فى السنوات الأخيرة، لكننى كنت أراه فى التدريبات. فى ميادين الرماية، والمناورات الكبرى، فى دهشور، فى الكفرة، فى الخطاطبة. وأشهد أننى فى عام سبعين وتسعمائة وألف، وقبل وفاة عبد الناصر بشهرين شهدت مناورة كبرى للقوات المسلحة استغرقت عدة أيام، بدأت من القناطر الخيرية وانتهت فى الخطاطبة التى تشقها ترعة تعتبر نموذجًا مطابقًا لقناة السويس. وأذكر أننى دهشت عند الوصول إليها، إذ رأيت نفسى فى مواجهة خط بارليف، وكانت التدريبات تتم حوله بدقة. كانت تجربة عظمى لما تم بعد ذلك فى حرب أكتوبر. وطوال أيام المناورة العظمى، كنت أتأمل الفريق أول فوزى وبساطته ودأبه وتحمله المشاق وعسكريته الفطرية الشديدة.

ثم جرى ما جرى فى مايو الشهير، وقبله بأيام رأيته فى آخر مناسبة علنية ظهر فيها. كان يحضر تخريج الدفعة رقم ثمانية من الكلية الفنية العسكرية، وكنت حاضراً لسببين، أولهما بحكم تخصصى كمراسل حرب للأخبار، ثم لأن شقيقى إسماعيل كان بين المتخرجين. كانت ملامح الفريق أول فوزى شديدة الحزن، ولم أفهم إلا فيما بعد، عندما وقعت أحداث مايو التى تدرجت من حركة إلى ثورة تصحيح، وزج بالفريق أول محمد فوزى فى السجن. وكان المدعى العام الاشتراكى، المنصب المستحدث، يترافع متحمساً مطالباً بإعدام الرجل الذى أعاد بناء القوات المسلحة وكان قائداً عاماً لها خلال حرب الاستنزاف. حكم عليه بالسجن، وأذكر أننى بكيت تأثراً عندما رأيت صورته فى زنزانته المحكمة.

دارت الأيام، وخرج الرجل من السجن، وعرفته فى أثناء اجتماعات لجنة التضامن، وزرته مرة واحدة فى منزله، بيت متواضع فى مصر الجديدة، اشتراه بالتقسيط من جمعية كانت تبنى للضباط. وعندما أصدر السادات قراراً بوضعه تحت الحراسة، لم يجدوا لديه إلا هذا البيت الذى لم تكن أقساطه قد سددت بعد. عرفته من خلال كتاباته فى بعض الصحف العربية. ليس للرجل إلا معاشه الضئيل، هذا المعاش الذى لا يقيم أود الشرفاء، والذى جعل قائداً عظيماً مثل المشير الجمسى يقول فى حوار نشر معه أخيراً فى مجلة نصف الدنيا إنه اضطر إلى بيع أرضه ليزوج ابنته.

أمام أمثال هؤلاء الرجال يجب أن ننحنى، وأن نقول كلمة طيبة على مسمع منهم، أطال الله أعمارهم. هذا أضعف الإيمان وما يستوجبه الضمير إزاء هؤلاء القادة العظام، الشرفاء، الذين ساعدوا الوطن على اجتياز المحنة. ألا يستحقون التكريم؟!

بالتأكيد.. بلى.. وفى مقدمتهم، الفريق أول متقاعد محمد فوزى.

عن الأقباط أيضًا

منذ أسبوعين، دعيت لتوجيه كلمة عبر محطة فضائية عربية تبث إرسالها من لندن، وخصصت يومًا كاملاً للتضامن مع القدس والتنبيه إلى خطورة ما يجرى فيها وحضّ المشاهدين على التبرع لأهلها وأطفالها الذين يذودون عن المسجد الأقصى بالحجارة فى مواجهة الآلة العسكرية الإسرائيلية الجبارة.

قبل أن ندخل الإستديو طلب منى مراسل المحطة فى القاهرة أن أنتبه خلال حديثى وألا أتحدث عن اليهود باعتبارهم يهودًا، لأن المحطة تمارس نشاطها من لندن، وتتبع القوانين الإنجليزية، والقوانين الإنجليزية صارمة تعاقب كل من يمس ديانة الآخر أو معتقده أو جنسيته أو لونه. وهذا لا يقتصر على إنجلتره فقط، بل هى قوانين صارمة فى الدول الأوروبية لمكافحة العنصرية، صدرت بعد المأساة الإنسانية الكبرى التى سببتها النازية. وبرغم هذه القوانين فإن العنصرية موجودة فى المجتمعات الأوروبية، وكامنة، لكن ثمة من يتصدى لها، وبخاصة التشريعات القانونية. قلت لمندوب المحطة إننى لم أتحدث قط عن اليهود باعتبارهم يهودًا، بالعكس، إن معايشتى للتراث العربى والإسلامى تجعلنى فى موقع أعلم منه تماما مدى إسهامهم فى الحضارة العربية، ولكننى ضد احتلال مؤسس على حركة سياسية عنصرية اسمها الصهيونية، وهذا الاحتلال يشمل أراضى عربية.

غير أن ما قاله مدير المحطة جعلنى أفكر فى أوضاع أخرى تتعلق بمجتمعنا فى مصر. فهذا هو القانون الإنجليزى فى مهد الديمقراطية يعاقب من يشير ولو بالتلميح إلى ديانة الآخر. والمتتبع لظواهر المجتمع المصرى خلال العقود الأخيرة يجد أن هناك تسيبًا واضحًا فى ردع بعض الذين يخوضون فى دين الآخرين. أعرف أنها مسألة حساسة جدًا، ولكن قضية الوحدة الوطنية يجب أن ندافع عنها إلى آخر مدى، وبأقصى حد من الشجاعة، وبأقصى صراحة ممكنة أيضا، لأنها قضية تتصل بوحدة مصر ذاتها. وباستقرار هذا الوطن الذى سوف نصبح إن عاجلاً أو آجلاً جزءًا من ثراه ويسعى فيه أحفادنا.

لا شك فى أن صيغة الوحدة الوطنية الرائعة التى جرت فى ثورة سنة ١٩١٩ وظلت أساسا متينًا قويًا للعلاقة بين المسلمين والأقباط قد اهتزت خلال السبعينيات مع بدء التحولات الاجتماعية التى أطلق عليها الانفتاح الاقتصادى وما ترتب عليها من آثار اجتماعية. سلبية خلقت أوضاعا سدت أبواب الأمل أمام ملايين الشباب، فاندفع منهم قطاع إلى اعتناق الأفكار المتطرفة، ونشأ أيضا احتقان اجتماعى لظروف اقتصادية واجتماعية. هذا الاحتقان أحد أعراضه ما سمى فى وقت من الأوقات بالفتنة الطائفية. وعلى الرغم من أن عناصر التعايش فى الواقع أقوى بكثير مما تبدو على السطح، فإن هذا الاحتقان انعكس على العلاقة بين المسلمين والأقباط، وأخطر أعراضه أن يخوض جانب من هنا فى التفاصيل التى تتعلق أو تتصل بمعتقدات الآخرين. وتوجد الآن عشرات من الأشرطة التى تبث داخل عربات الميكروباس ما يمكن عدّه حضًا مباشرًا على الفتنة. هناك إذاعة داخلية واسعة الانتشار داخل هذه الوسيلة من المواصلات لا علاقة للدولة بها ولا تخضع لرقابة المصنفات الفنية، وكثير من الأصوات التى تتردد عبرها ذات لكنه عربية وافدة. ومن خلال هذه الأشرطة يتم

الترويج لأفكار تحرض على كراهية الأقباط . وإننى أدعو أى إنسان إلى أن يضع نفسه مكان الآخر إذا أصغى إلى ما يمس هذا الآخر وليسأل نفسه ، ما وقع هذا عليه؟

نعم . . هناك مشكلات ، عندما يهاجم تجار أقباط لأنهم أقباط ، عندما يتم تجاهل عدة قرون من تاريخ مصر القبطى وتحذف تماما من مناهج التعليم ، عندما يتم التفرقة بين المسلم والمسيحى فى حصة الدين منذ الطفولة ، عندما يسمع قبطى شيخًا جليلاً واسع التأثير يخوض فى تفاصيل الديانة المسيحية .

نعم . . هناك مشكلات ، لكن المجتمع المصرى قادر على احتوائها ، خصوصا أنها أعراض لمشكلات أخرى منها البطالة . واليأس ، والفقر المدقع ، والشعور بالإهمال فى الصعيد خاصة ، والتضخم العشوائى للثروات وما يصاحبها من مظاهر استفزازية . وفى هذا الخضم تدخل مراكز الأبحاث الأجنبية المشبوهة ، والأصابع المريبة ، سواء كانت عربية أو غربية ، ولكن يظل الأساس كامنًا فى المجتمع المصرى ، أساس المشكلات العارضة ، وأساس احتوائها أيضا . ومشكلات المجتمع المصرى يعانى منها الجميع مسلمين وأقباطا .

ولذلك ، يبدو غريبًا أن يتوجه البعض بما يشبه النداء إلى العالم ، والعالم الآن يعنى الولايات المتحدة والغرب فى نظر الكثيرين ، وأقصد تصريحات الدكتور ميلاد حنا الأخيرة ، وهو الرجل المثقف ، المعتدل ، المدافع بقوة عن الوحدة الوطنية . ماذا جرى حتى تصدر عنه هذه التصريحات التى يمكن أن نصغى فيها إلى رسالة موجهة إلى من يهمه الأمر فى الخارج . إن من يهمه الأمر فى مصر ، ومصر فقط ، وهذا من

تقاليد ومبادئ الحركة الوطنية المصرية، ومن أهم الثوابت التى يجب أن نعتصم بها الآن.

من ناحية أخرى، يجب أن يخرج إلى الوجود تشريع قوى يمنع ويعاقب كل من تسول له نفسه أن يقلل من شأن أى إنسان آخر بسبب دينه أو لونه، وأن ينص هذا التشريع على معاقبة كل من يتوجه بالصراخ إلى الأجنبى، سواء كان هذا الصراخ صادراً عن مسلم أو قبطى.

١
قاطعوا البلطجى العالمى الجديد

القدس العربية الإسلامية فى خطر حقيقى ماثل، وخطة التهويد ماضية جهاراً. نهاراً، وعلى مرأى من عدسات التليفزيون العالمية كافة، واختفاء المسجد الأقصى من الوجود مسألة وقت فقط، وهذا الوقت لن يقاس بعشرات السنين أو بالقرون، بل خلال سنوات قليلة فقط تُعد على الأصابع، وخطة بناء هيكل سليمان موجودة، وتصميماته ماثلة، وصوره المطبوعة الملونة التى يتم من خلالها جمع التبرعات فى العالم، وآلة الصهيونية الإعلامية الجبارة تعمل بكفاءة ونشاط لإقناع العالم كله بأن أصحاب القدس الحقيقيين هم اليهود، وأن المسجد الأقصى بناء عارض، اغتصب المسلمون الأرض التى أقيم فوقها. ولعلنا نذكر النفق الذى جرى حفره وسالت فيه دماء الأطفال الفلسطينيين وهم يذودون عن ثانى القبلتين وثالث الحرمين. كان الصهاينة بحفرهم النفق - وهو قائم الان - يريدون أن يثبتوا أن لهم حقوقًا فى باطن الأرض وليس فوقها. قدرتهم على تزييف التاريخ بلا حد، ويكفى ما قاموا به تجاه أعظم حضارة علمت البشر إنسانيتهم، الحضارة الفرعونية فى القديم، والآن عن طريق الأقمار الصناعية والإنترنت والصحف الذائعة المؤثرة، إضافة إلى الدعم المعنوى الذى يقدمه الكتاب المبرورن الذين يحللون الحرام ويحرمون الحلال من أجل صندوق سيجار كوبى ماركة «بارتاجاس» أو «كوهيبا».

طبعا هناك الداعم الأكبر، والحامى الأعم لمشروع تهويد القدس، وإنهاء الوجود التاريخى الأصلى للمسلمين والمسيحيين، والولايات المتحدة هى القوة العظمى فى عالم اليوم بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، أى بتعبير مصرى دارج هى «فتوة العالم». وقد عرفنا فى مصر نوعين من الفتوات، الأول كان فى الزمن القديم، وقد وصفه أستاذنا نجيب محفوظ، كان فيه الفتوة يقيم العدل بين أهالى الحارة، لا ينظر إلى ما فى أيدى الغير، ويتحلى بالجدعنة والقدرة على الإيثار. كان الفتوة هو القوة التى تقوم بتحقيق العدل فى وقت ضعف الدولة، كان ذلك فى الزمن القديم. ولكن فى عصرنا هذا نشهد ظاهرة البلطجة. والفرق بين الفتوة والبلطجى دقيق جداً: هذا يسخر قوته من أجل إقرار العدالة، والآخر للسرقة والظلم والقمع. وهذا ما تقوم به الولايات المتحدة الآن فى العالم. إنها بلطجى العالم وليس فتوته. وهذا البلطجى مدجج بالنووى وحاملات الطائرات والقاذفات بعيدة المدى الرابضة فى جزر جوام. لقد سقطت القيم الأخلاقية التى قامت عليها الولايات المتحدة فى القرن الماضى، والقوة المتغطرسة عمياء خاصة إذا لم تجد من يردعها. ومؤازرة الولايات المتحدة لإسرائيل واضحة إلى حد اعتراف الكونجرس بالقدس عاصمة موحدة لإسرائيل. طبعا هناك الدعاية الصهيونية والتأثير، لكن الأهم، المصالح الاقتصادية، ورغم ضخامة المصالح الاقتصادية للعرب فى الولايات المتحدة من نفط وتجارة وأرصدة. فإن القوة الاقتصادية للعرب غير موظفة بشكل سليم، بل إنها تصب فى مصلحة الصهيونية العالية فى النهاية. لذلك يتعمد بلطجى العالم الآن إذلال العرب، وإيلامهم إلى أقصى حد، وحكومات العرب، وأنظمة العرب الخانعة. لكن الأمة ليست حكومات فقط تحكمها العلاقات الدبلوماسية والمصالح المباشرة وغير المباشرة، ورجال الأعمال الجدد المصدرين إلينا من الولايات المتحدة نفسها، وكلاء الشركات

الأمريكية والتوكيلات المتعددة الجنسيات وخلافها. الأمة قوى متعددة وتاريخ وروح وثقافة، وهذا كله لا يدخل فى حسابات الحاسوب الآلى الذى تستخدمه مراكز اتخاذ القرار فى الولايات المتحدة.

لن يؤلم بلطجىَّ العالم الجديد إلا إيذاؤه فى مصالحه. وعندما اقترحت الأسبوع الماضى أن نبدأ بمقاطعة السجائر الأمريكية والمياه الغازية الأمريكية المستوردة بآلة دعاية جبارة، كان فى ذهنى أمثلة عديدة من تراث العالم النامى المستعمر، المستضعف، وتراثنا فى مصر. أضرب مثلا بغاندى زعيم الهند والمقاومة السلبية الناجحة التى دعا إليها واستجاب إليها الهنود، وأثرت على مصانع الصوف والقطن فى يوركشاير ولنكشاير. وبالطبع، لن أطالب العرب بغزل ثيابهم كما فعل غاندى، ولكن دعونا نتساءل، هل تأتى إلينا السجائر الأمريكية والمياه الغازية بمظلة من سلاح الجو الأمريكى، أو القيادة المشتركة، أو الناتو أو الجيش الخامس أو السابع؟. أبدا.. إنها تأتى إلى أسواقنا بالنقود التى نخرجها طوعا من جيوبنا وندفعها راضين وبدون أى ضغط، لكن إذا تخيل كل منا أن كل قرش يدفعه فى سيجارة أمريكية أو زجاجة مياه هو دعم للاقتصاد الأمريكى الموظف لخدمة الصهيونية التى تسلب القدس جهارا، نهاراً، فإن كل عربى مسلم أو مسيحى سيكف فوراً، عندما يتعطل خط إنتاج واحد فى مصنع أمريكى، ويخرج عماله إلى الشارع سيحاسبون نوابهم فى الكونغرس، وحكومة كلينتون أو غير كلينتون.

ليس لنا أمام البلطجى المدجج إلا المقاومة السلبية. إذا كان للبلطجى دكان يبيع فيه السجائر والمياه الغازية فلنقاطعه. لنبدأ ولنجرب. أعرف أن البعض سوف يسخر، وبخاصة المتخصصون فى عمليات القلب الأيديولوجى، ورجال الأعمال الجدد ممثلو المصالح الأمريكية، وبعض

نفايات الحركة اليسارية القديمة المتحمسين للنظام العالمى الجديد كما يسمونه أكثر من دراويش العولمة القدامى. أعرف أن السخرية والاستهزاء ومحاولات الترقيع الفكرى ستبدأ. وهنا أقول أمرين، الأول، هو رد الفعل الواسع الذى لم أحلم به قط لما كتبته الأسبوع الماضى، والثانى حديث خاص أود أن أوجهه مباشرة إلى المفكرين وإلى الكتاب من ممثلى التيار الإسلامى. ولأن الموضوع دقيق وحساس فإننى أخصص له مقال الأسبوع القادم.

٢

قاطعوا بلطجى العالم الجديد
الجوهر.. والهوامش

فقط . . أبدأ بالتوضيح على سبيل التذكرة . لقد بدأت الدعوة إلى مقاطعة المنتجات الأمريكية ردًا على قرار الكونجرس الأمريكى الخاص بالقدس والاعتراف بها كعاصمة موحدة لإسرائيل . نشر مقالى يوم الاثنين فى الأسبوع ردًا على هذا القرار . ويوم الخميس صباحًا نشرت الصحف قرار اللجنة الفرعية للكونجرس بتخفيض المعونة الأمريكية لمصر . وتصور بعض القراء الكرام أن الدعوة إلى مقاطعة البضائع والمنتجات الأمريكية رد فعل للقرار الخاص بالمعونة ، وأذكر وأوضح أن الدعوة مرتبطة بقرار القدس . أما المعونة وما يخصها فلنا عودة إلى مناقشتها إجمالا فيما بعد ، ذلك أن أخطر موضوع يواجه المسلمين والمسيحيين عامة ، والعرب خاصة الآن هو موضوع القدس . إنه الموضوع الأول والأخير فى المرحلة الحالية لماله من أبعاد دينية وتاريخية ورمزية وإستراتيجية ، وحتى الآن لا أرى رد الفعل متسقًا مع خطورة القرار الأمريكى ، ولا مع خطورة الإجراءات الإسرائيلية على أرض الواقع . ومن يظن أن مستوطنة أبى غنيم هى الإجراء الأخطر والأهم ، فليست هذه المستوطنة إلا ضاحيةً صغيرة جدًا بالنسبة لمشروعات أخرى تستهدف الإجهاز تماما على الطابع الإسلامى والمسيحى للمدينة المقدسة .

ولا أرى فى الساحة إلا مجموعات من الشباب الفلسطينى الذى يتصدى للجيش الإسرائيلى أحد أقوى جيوش العالم. ولنتأمل جيداً مظهر جنوده المدججين بالسلاح، والذى يرتدى كل منهم سترة واقية من الرصاص فى مواجهة صبية صغار واضح مستوى معيشتهم من خلال ملابسهم، واضح ما يشعرون به من ضياع وحرمان فى ملامحهم. وأتصور أن ثمة قيادة فلسطينية حقيقية سوف تخرج فى المستقبل من بين هؤلاء، قيادة لا تهتم بالمظاهر، وخالية من الفساد المذهل الذى تصلنا بعض تفاصيله وأخباره.

أقول إننى لا أرى فى الساحة إلا هؤلاء الشباب والصبية، ويحدثنى شعورى الداخلى ـ ويؤكده ما أقرؤه من معلومات وأخبار ـ أن ما يدبره الصهاينة للقدس لا يجد الرد الكافى. الموازى، من جموع المسلمين فى العالم، والمسيحيين أيضا.

هنا أتوجه بحديثى إلى أولئك الذين يصفون أنفسهم بالكتاب الإسلاميين، مع تحفظى الشديد على هذا الوصف، لأنه يتضمن درجة من العصمة التى تمنح صاحبها حق الحكم على الآخرين، وهذا وضع شاع خلال السنوات الأخيرة، استغلال صفة الإسلامى مغازلة لمشاعر المؤمنين، أو سعيًا لتحقيق مكاسب سياسية باسم الدين. وكما استغل بعض الأفاقين اللافتات الإسلامية فى الاقتصاد، وأهدروا أموال المسلمين والفقراء فى المضاربات، هناك نفر من الكتاب يستغلون صفة «الإسلامى» لإرهاب الآخرين، أو للتكسب. وحتى الآن لم نقرأ لبعضهم ما يتناسب مع القرار الصهيونى الخطير الخاص بالقدس. بل إن بعضهم يبدو مشغولاً بترك أربكان للحكم فى تركيا أكثر من القرار الخاص بالقدس. سوف نتجاوز عن كثير، وأتوجه إلى الجميع، وبخاصة أولئك الكتاب الذين اكتسبوا مصداقية عند القارئ، إلى أئمة المساجد، إلى الخطباء، دعونى أتساءل بصراحة: أين دور المسجد فى معركة الدفاع عن القدس؟

أين التقاليد التاريخية للجهاد ضد الغزاة والتى تراعى الظروف الدقيقة للمسلمين، وتناسب قواهم مع قوة الباطش بهم، القادم للسيطرة عليهم؟

دعونى أتساءل، ماذا فعلتم للقدس؟ وماذا خططتم لمواجهة بلطجى العالم الجديد، الولايات المتحدة الأمريكية التى لا تخفى الآن تحديها لمشاعر المسلمين باعتراف الكونجرس الأمريكى بالقدس عاصمة موحدة للقدس؟

ماذا نرى على الساحة؟

ما القضايا التى يخاطبون من خلال جموع المسلمين؟

إن أهم ما يواجه المسلمين الآن أمرين. أولهما مواجهة التحدى الصهيونى المدعوم بقوة البلطجى العالمى الجديد، والثانى كيفية استيعاب المسلمين لتطورات الحداثة المتلاحقة فى عالم اليوم. غير أننا نلحظ بكل أسى انصراف من يصفون أنفسهم بالكتاب الإسلاميين أو الدعاة إلى قضايا جد فرعية، فيطاردون سطرًا فى رواية، أو بيتا فى قصيدة، أو يتباكون على تداول ألف ليلة وليلة فى بضعة آلاف من النسخ، أو يحرفون أنظار المسلمين إلى قضايا هامشية ضئيلة. أما القوى المنظمة، التى تتستر بالإسلام للوصول إلى أهداف سياسية، فيوجهون رصاص جماعاتهم إلى جنود شرطة فقراء يقفون حراسًا للشعب، أو يحرسون أماكن العبادة لإخواننا الأقباط، أو يصدرون فتاوى التكفير للأساتذة الأجلاء والمفكرين والأدباء بما يؤدى إلى خدمة الصورة الشائهة التى يريد بلطجى العالم الجديد تقديمها وتأكيدها إلى العالم عن الإسلام والمسلمين.

إلى هؤلاء جميعًا، ما ظهر منهم على صفحات الجرائد والكتب والمنابر، وما استتر، أتوجه إليهم كافة، وأتساءل فقط، فقط أتساءل:

* لماذا لا تقومون بالدعوة إلى مقاطعة المنتجات الأمريكية؟

* لماذا لا يقوم الخطباء بالدعوة من فوق المنابر لمقاطعة البضائع الأمريكية والطائرات الأمريكية؟

* لماذا لا تدعون إلى سحب أرصدة المسلمين من البنوك الأميركية؟

أليست هذه أهدافًا كبرى تتسق مع ما يمكن عمله دفاعا عن القدس؟ نحن الضعفاء فى مواجهة البلطجى النووى، والغطرسة الصهيونية، لا نملك إلا الإيمان بالقضية والكلمة الحقة، والعالم الإسلامى يمتلك إمكانات اقتصادية هائلة. فقط لو بدأ جهد حقيقى لاستثمارها، للتنسيق بين الدول الإسلامية.

هذا السوق الهائل، لماذا لا يقاطع البضائع الأمريكية؟ إن الدعوة ما تزال فى بدايتها، ومع ذلك فإن ردود الفعل واسعة ومشجعة، وما أقدم عليه الإعلامى اللامع حمدى قنديل كان نموذجًا للالتزام والوعى الدينى والقومى والإنسانى. إننا فى حاجة إلى إنهاء حالة الخنوع المستشرية التى تذكرنا بالأيام الأخيرة للأندلس. وتذكروا أيها المسلمون فى كل مكان أن الدين الإسلامى العظيم بدأ بكلمة، وصدقت الدعوة، فانتصرت على القوتين العظميين فى زمانها. ونحن لا نطمع فى إلحاق هزيمة كاملة، لكننا نأمل فى موقف ندافع به عن أنفسنا وما يتهدد وجودنا وقدسنا.

أكرر ما ضمنته هذا المقال، موجها حديثى إلى كل ذى صلة بالقدس من المسلمين:

«اتجهوا إلى الجوهر.. ودعكم من الهوامش..»

أعلنوها فى كل مكان، دعوة بسيطة فى مظهرها، عميقة مؤثرة على المدى: أن يقاطع المسلمون البضائع الأمريكية!

عن هونج كونج

عبر المحطات العالمية، حتى أتابع تفاصيل ومراسم احتفالات تسليم مستعمرة هونج كونج إلى الوطن الأم، إلى الصين، أمضيت وقتًا طويلاً أتمعن فى التفاصيل، وأتأمل المراسم التى كان بعضها ذا طابع مسرحى، خصوصا الطقوس الإنجليزية، من استعراضات عديدة للجنود الذين يرتدون التنورة الشهيرة، وموسيقى القرب، وحركات الأمير شارلز الملكية، وصدره المثقل بالأوسمة، ومسه أكتاف الضباط بالسيف ثلاث مرات. لم أكن أفهم الكثير من دلالة ما يجرى، لكن غرامى بالتفاصيل، خاصة فى اللحظات التى توصف بأنها تاريخية، وما أكثرها فى عالمنا العربى بالذات، جعلنى أصبر وأتأمل وأستلهم العبر.

رغم فخامة الطقوس الإنجليزية التى كنت أراها فى نفس اللحظة، كانت المحطات العالمية تذيع على الهواء مباشرة، إلا أن ثمة شيئا جنائزيا فى الأمر كله. إنها لحظة النهاية للوجود البريطانى فى هذه المستعمرة النائية، ومشهد أخير من المشاهد المماثلة التى جرت من قبل لنهاية إمبراطورية استعمارية قوية كان شعارها أن الشمس لا تغرب عنها. وكان الشعار يتضمن تحديا لقوانين الكون، فالشمس تشرق لتغرب، ولولا الغروب ما كان الشروق، والإمبراطوريات تقوم وتشب ثم تدب إليها عوامل الفناء والتحلل، تماما كدورة البشر. ما من شىء باق أبدا، وما من قوة تظل كما هى. ذلك قانون الوجود. وهذا ما كنت أرى بعضا من ملامحه فى احتفالات هونج كونج.

فى البداية قلت لنفسى، حتى الاستعمار القديم يبدو محترمًا فى تنفيذه للاتفاقيات التى وقع عليها. تلك الاتفاقية التى تم التوقيع عليها منذ قرن ونصف بين بريطانيا والصين، يجرى تنفيذها الآن، رغم اختلاف الأزمنة والأنظمة. أما الاستعمار الجديد، فيتحايل ويتخابث ويوقع الاتفاقيات على مرأى من آلات التصوير والتسجيل، ثم يمزقها ويفرغها من مضامينها، ولنا فى اتفاقيات أوسلو الموقعة علنا وسرّا منذ فترة قريبة نموذجا لما نقوله، ولنتأمل مراوغات الحكومة الإسرائيلية.

الاستعمار القديم محترم؟!

رحت أراجع نفسى من جديد. تذكرت وعود بريطانيا لمصر بالاستقلال بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ونكثها بما وعدت به، وكانت الإمبراطورية المنتصرة فى الحرب قد خرجت لتتربع فوق الكوكب بحسبانها القوة العظمى. وبمقاييس الوقت والسياسة والتاريخ، كان وضع الإمبراطورية البريطانية أقوى وأشد من وضع القوة العظمى لعالمنا الآن، أعنى الولايات المتحدة، أو التى تبدو هكذا. وبرغم قوة بريطانيا بعد الحرب الأولى، وزمجرة الأسد البريطانى الذى كان عفيّا، قويّا، سليم الأنياب، فإن هذا كله لم يمنع الشعب المصرى من التصدى للقوة العظمى. وحركة شعبنا غريبة وفريدة، يسود الصمت لسنوات فيظن من يحكمه أو من يراقبه أنه خنع وامتثل، وفى لحظة معينة، ولسبب لا يبدو مهما تنتفض الدنيا، وتلتهب، وتنهض مصر مزمجرة، كاشفة عن مفاجآت لا يمكن التنبؤ بها. هذا ما جرى عندما ذهب فى المساء عدد من الرجال المتقدمين فى العمر إلى دار المندوب السامى البريطانى (كان لقبه هكذا أيضا فى هونج كونج) وقدموا إليه عريضة تطالب بريطانيا بتنفيذ وعودها ومنح مصر الاستقلال، وتساءل المندوب السامى البريطانى: باسم من تتكلمون؟ فقال سعد باشا: باسم الشعب، فعاد ليتساءل بعنجهية: هل معكم تفويض؟

وخرج الرجال لتبدأ حملة جمع التوقيعات من الشعب المصرى كله تأييدًا للوفد. هكذا وُلد حزب الوفد، وهكذا انفجرت ثورة سنة ١٩١٩، بعد نفى هؤلاء الرجال، وهكذا تحدى الشعب المصرى القوة العظمى فى ذلك الوقت، وخرج الفلاحون الفقراء، والنساء من خدورهن، ونزل الجميع إلى الشارع واستشهد الرجال والنساء والأطفال، وتوالت المراحل المجيدة لنضال الشعب المصرى ضد الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس. وكانت حرب عام ستة وخمسين وتسعمائة وألف مرحلة متقدمة من مراحل كفاح الشعب المصرى ضد بريطانيا العظمى.

لا أبالغ أبدا إذا قلت إن للشعب المصرى دورا رئيسيا فى إجبار هذه القوة العظمى على الاعتراف بغروب الشمس عنها، والوصول بها إلى تلك الطقوس الجنائزية فى هونج كونج.

الاستعمار لا ينسحب باختياره، ولكنه يجبر على ذلك. والأمر يحتاج إلى ثقة بالنفس، وتضحيات، وعدم الامتثال لحالة الخنوع التى تسود العالم العربى الآن، خاصة فى مواجهة القوة العظمى الجديدة، والتى حتما ستغرب عنها الشمس يومًا. وتستمر الاحتفالات ذات الطابع الأسطورى، ولا تنتهى التأملات والعبر المتصلة بواقعنا.

هونج كونج.. بين الخنوع والإرادة

لو أن شعوب المستعمرات البريطانية أدركهم ذلك الخنوع الذى نراه الآن سمة بارزة فى العالم العربى تجاه سياسة الولايات المتحدة، لما تحرر شعب واحد منهم، ولما انهارت أقوى إمبراطورية استعمارية فى العالم. كان النفوذ البريطانى فى مطلع القرن العشرين أقوى بكثير من نفوذ الولايات المتحدة فى نهايته، بل يمكن القول إن اللاعب الأساسى من الناحية السياسية فى منطقة الشرق الأوسط هم الإنجليز بحكم تاريخهم الطويل فى المنطقة وفهمهم لنفسية شعوبها وعاداتهم وتقاليدهم. صحيح أن خبرتهم تلك لا يوظفونها لأنفسهم الآن، إنما لحساب الولايات المتحدة التى تبدو جاهلة بهذه المنطقة من العالم وإن كانت تعتمد بشكل رئيسى على إسرائيل، ثم الميراث الاستعمارى للمنطقة سواء كان الإنجليز أو الأتراك وهم القوة الأقرب والأخطر وذات الحضور القديم فى العالم العربى.

بعد الحرب العالمية الأولى، خرجت بريطانيا العظمى فى وضع القوة العظمى، المهيمنة على العالم، وكان تحديها يبدو نوعًا من الجنون للبعض، تماما كما ترتفع بعض الأصوات الآن متهمة من يهاجم سياسة الولايات المتحدة بالصبيانية، وعدم فهم الأمور، بل قال أحدهم أخيرًا إن من يهاجمون الولايات المتحدة بلغوا درجة من الوقاحة. وليس هذا بغريب على من يعرف تاريخ مصر أيضا، كان هناك من يؤيد الاستعمار الإنجليزى

علنًا أو مواربة، وكانت هناك جريدة واسعة الانتشار اسمها «المقطم» تدعو إلى دعم الاستعمار البريطانى، وتؤيد اللورد كرومر وغيره. وكان هناك المتعقلون الذين يدعون القوم إلى التفكير بدلا من الانتحار، إذ كيف تقف مصر الضعيفة، قليلة العدد فى مواجهة القوة العظمى التى خرجت منتصرة من الحرب العظمى الأولى. غير أن الروح الوطنية كانت متأججة، قوية، كامنة، هذه الروح التى يسخر منها بعض الكتاب الآن. لقد عشنا إلى يوم نرى فيه السخرية من الارتباط بالوطن. وقد رأيت بأم عينى وسمعت بأذنى منذ أسابيع أستاذًا مصريّا بالجامعة الأمريكية يدعو الشباب إلى هجرة الوطن طالما أن الوطن لم يقدم إليهم شيئا. والدعوة الصحيحة فى مواجهة ذلك القول الفاسد، المغلوط، أنه إذا كان الوطن يتضمن خللا يحرم الشباب من التطلع إلى حياة طبيعية، وأن يعيش حياة إنسانية فى حدودها الدنيا، فليكافح لتقويم الأوضاع الفاسدة، الخاطئة، ولن يتحقق ذلك بهجرة الأوطان والخنوع أمام إسرائيل والولايات المتحدة. لذلك تبدو الحرب شرسة، ضارية ضد الذاكرة الوطنية، وضد الارتباط بالوطن، الارتباط الحقيقى والذى لا تعبر عنه أغانى التليفزيون الساذجة عن مصر والمصريين، إن الروح المصرية تتعرض لعملية تدمير روحية هائلة منذ السبعينيات، ويساند هذا التدمير المنظم حقبة تاريخية تتم فيها تحولات هائلة باسم (العولمة) وسيادة القطب الواحد، بينما تستشرى حالة من الخنوع العربى الذى لم أجد له شبيهًا فى التاريخ العربى إلا خلال الحقبة الأخيرة من الوجود العرب فى الأندلس بعد سقوط غرناطة بكل ما حفلت به من مهانة، وإجبار العرب على ترك دينهم. ولا تظنوا أن هذا بعيد فى عالم اليوم على القوى الغاشمة التى تحاول الانفراد بمصير الكوكب.

لو أن الصين خنعت أمام بريطانيا والأفيون الذى أغرق هونج كونج والصين بشكل منظم، لو أن الصين امتثلت للحرب النفسية والمادية الضارية

التى شنتها بريطانيا العظمى. لما وصلت إلى هذه اللحظة الجنائزية التى تم فيها إنهاء الوجود البريطانى وإنزال علم الإمبراطورية التى لم تكن تغرب عنها الشمس.

لو أن الشعب المصرى فى عام ١٩١٩ خنع ولزم أفراده منازلهم، واستجابوا للمدعين، المستفيدين من كل وضع، لما خرج القوم إلى الشوارع ولما أقدم الفلاحون على خلع قضبان السكك الحديدية، والهجوم على الثكنات المدججة بأحدث أنواع أسلحة العصر، ولما تنوعت وسائل مقاومة المصريين، بدءا من التظاهر، إلى العمل السرى إلى العمل المنظم لدعم الوحدة الوطنية. وهذا هو الإنجاز التاريخى الرائع لحزب الوفد، حزب سعد زغلول باشا، (لا علاقة له بالحزب الحالى إلا الاسم فقط). وكان أحد أهم أسلحة الشعوب المستضعفة فى مواجهة القوة الباطشة، وفى مواجهة الخنوع: المقاطعة. هذا ما لجأ إليه الشعب الصينى والهندى والمصرى فى مواجهة بريطانيا العظمى، وهذا ما خلخل بنيان الإمبراطورية التى لاتغرب عنها الشمس. وللشعب المصرى تقاليد عريقة فى موضوع المقاطعة، وكان أساسها اقتصاديا. كانت الصناعة الوطنية ما تزال فى بدايتها، هشة، ضعيفة، متخلفة، ومع ذلك كان الزحام فى فروع شركة بيع المصنوعات المصرية هائلاً، بينما المتاجر التى تبيع البضاعة الإنجليزية خاوية. والتفاصيل المتعلقة بتقاليد المقاطعة المصرية رائعة، وليت المؤرخين الوطنيين يقدمون للأجيال الجديدة ما يساعد على إيقاظ الروح الوطنية المصرية وإحياء عناصرها التى يحاول محترفو تزوير التاريخ وتدميرها، وتكريس حالة الخنوع.

إنها الغطرسة التى تمارسها الولايات المتحدة، القوة العظمى فى نهاية القرن، وسياستها الظالمة، الغشوم، التى تمارسها ضد العالم العربى، وهذا العداء العنصرى السافر الذى طال المقدسات. وقد كشف مقال الأستاذ

صلاح الدين حافظ فى الأهرام يوم الأربعاء الماضى عن الصلة الوثيقة بين الحملة الصهيونية على الإسلام فى إسرائيل والولايات المتحدة. وبصراحة فإننى مصاب بذهول وصدمة، بسبب رد الفعل تجاه إهانة الرسول الكريم بهذا الشكل الوقح، وإهانة الدين المسيحى أيضا. إن ردود الفعل تجاه الإهانات التى أصبحت تستهدف الدين الإسلامى نفسه والمسيحى لا تتناسب إطلاقا مع حجم الجريمة الصهيونية، التى لا تمارس الآن فى الخليل فقط، إنما أيضا فى الولايات المتحدة.

هل وصل الخنوع بالعرب تجاه سياسة الولايات المتحدة هذا الحد؟

ألا يستحق الأمر رد فعل عاقلا جداً، ومتواضعا جداً: أن يخطب رجال الدين من فوق منابر المساجد داعين إلى مقاطعة السلع الأمريكية، وخطوط الطيران الأمريكية، ومنتجات الصناعة الأمريكية؟

ألا يعد هذا حدّاً أدنى فى رد الفعل تجاه هذا التدنى العنصرى من المتعصبين الصهاينة وأنصارهم فى إسرائيل والولايات المتحدة: أن يدعو رجال الدين ورجال السياسة والمثقفون إلى مقاطعة المنتجات الأمريكية والإسرائيلية؟

المقاطعة.. للسياسة وليست للثقافة

الدعوة إلى مقاطعة المنتجات الأمريكية موقف الضعفاء تجاه الظلم الذى يلحقه بهم القوى الغشيم. إنه سلاح سلبى فى أيدى المستضعفين فى الأرض، لكنه ناجع، قوى، إنه فى مقام الناموسة التى هزمت الفيل. ونلاحظ فى كتابات بعض المبهورين بالولايات المتحدة سخرية واستخفافا بتلك الدعوة، والبعض يقول إنها فعل طائش لا يقدر العواقب، وإنها ستؤدى إلى إلحاق الضرر بمصالحنا، (طبعا مصالحهم هم).

وقال كاتب آخر أكن له احتراما إن الولايات المتحدة قوة هائلة التأثير فى عالم اليوم. وضرب مثلاً بالإنجاز العلمى الرائع الذى تمثل فى إرسال مركبة الفضاء (سوجورنر) إلى المريخ، والتحكم فيها على بعد خمسمائة مليون ميل تقريبًا، وإجراء التحليلات الكيمياوية والعلمية والتوصل إلى أمور دقيقة ستؤدى مستقبلاً إلى نزول الإنسان فوق كوكب المريخ وربما الاستقرار فيه، هذا الانجاز العلمى انتصار للبشرية كلها. وعلى المستوى الشخصى ما زلت أتابع أخبار هذه المركبة وكأنها تخصنى، وكل تقدم علمى تحققه الولايات المتحدة أو أى دولة فى العالم يضاف إلى رصيد البشرية. ويجب أن نتذكر دائمًا وأن نعى مقدار التراكمات الهائلة عبر التاريخ التى أدت إلى مثل هذا الإنجاز، بدءا من رصد الفراعنة وعلماء الفلك فى الصين وبلاد العرب للنجوم حتى تطور هذه العلوم فى القرون الوسطى. ثم تلك

التطورات المذهلة فى الفضاء منذ انطلاق القمر الصناعى الروسى (سبوتنيك) عام سبعة وخمسين وتسعمائة وألف، أى منذ أكثر من أربعين عامًا.

إن دولة بهذه القوة، وعلى هذه الدرجة من التقدم العلمى لا ننتظر منها إلا سياسة عادلة، توازى ما حققته البشرية من تقدم تكنولوجى، وأى تقدم من هذا النوع لا تسانده رؤية إنسانية متكاملة ربما يؤدى إلى شرور مدمرة أكثر مما يؤدى إلى الخير.

هنا يجب توضيح نقطة مهمة، وهى أن الدعوة إلى المقاطعة لا تعنى مقاطعة الثقافة الأمريكية. ولا الإنجازات العلمية الأمريكية، ولا القيم الثقافية الإيجابية فى الثقافة الأمريكية، ولا الشعب الأمريكى نفسه، إنما تستهدف التصدى لظلم السياسة الأمريكية وإجحافها لحق الشعب العربى، وانحيازها الأعمى لإسرائيل والصهيونية.

إننى واحد من الذين قرءوا أعظم أدباء الولايات المتحدة وفى مكتبتى، صور لهرمان ميلفيل مؤلف موبى ديك، وأرنست همنجواى، وأرسكين كالدويل، وجون شتاينك، ومارك توين، وهوارد فاست، وبيرل بك وفولكنر وغيرهم، هؤلاء من أعظم أدباء البشرية، وبعضهم عبر عن تناقضات المجتمع الأمريكى وأدان السياسة الأمريكية أكثر من أولئك الذين عانوا منها من أبناء الشعوب الأخرى. نفس الأمر ينطبق على السينما الأمريكية المتقدمة وليست التجارية التى تصور قيم العنف والانحلال. وبالنسبة لى لم يتح لى زيارة الولايات المتحدة إلا مرة واحدة العام الماضى للعلاج. وخلال هذه الإقامة التى امتدت إلى ثلاثة أسابيع، أمكن لى أن أشهد مدى التقدم العلمى الهائل فى مجال الطب، واحترام الإنسان، ويبدو الشعب الأمريكى الذى يتكون من أعراق شتى متقبلاً للآخر وإن كانت هناك قوى تغذى الروح العنصرية التى تفرق البشر على أساس

اللون، وهذا له تاريخ طويل فى الولايات المتحدة. الوجود الأمريكى مؤثر وعميق، لأنه مرتبط بالمؤسسات الاقتصادية، وللأسف فإن الوجود العربى فى المقابل هش وغير فعال، رغم ضخامة المصالح الأمريكية مع العالم العربى.

من هنا يجب التوضيح الدقيق. إن دعوة المقاطعة تتجه إلى المنتجات الأمريكية، بهدف التأثير على المصالح الاقتصادية الأمريكية حتى يفيق الفتوة الجبار ويعود إلى أخلاق الفتونة التى تقتضى إشاعة العدل، والانحياز إلى الحق. والفرق جد دقيق بين الفتوة والبلطجى، وسبق أن تعرضت إلى هذه النقطة فيما عرفته القاهرة من فتوات فى الزمن القديم، كان ما يميزهم الشهامة، وإقامة العدم، والانتصار للضعفاء، أما البلطجية الذين ينتشرون الآن فهم نوع من الإجرام الغشيم، يجور على الضعفاء، ويعرض قدرته على البطش لمن يقدر على الدفع أو استئجار القوة، أو إرضاء نزواته.

الفرق شاسع بين أداء السياسة الأمريكية اللأخلاقى، وبين التقدم التكنولوجى وقيم الثقافة الأمريكية الحقيقية التى عرفناها من الأدباء والمفكرين العظام. إن الدعوة إلى مقاطعة المنتجات الأمريكية نوع من الاحتجاج السلبى فى مواجهة البلطجة الغاشمة والمتصاعدة الآن ضد مصر ونظامها الوطنى. وهذا التصاعد مصدره عناصر معينة من الإدارة الأمريكية، وبعض رجال المال والأعمال الذين ظهروا فجأة من المجهول ويعملون بشتى الطرق الآن الخفية والعلنية للسيطرة على مقدرات هذا الوطن. وهؤلاء مصريون بالشكل والأوراق فقط، لكن مصالحهم وانتماءاتهم هناك. وهذا موضوع يستحق وقفة أطول.

القدس .. وما العمل؟

بالإجماع تقريبًا صوت الكونجرس الأمريكى فجر الخميس الماضى على اعتبار القدس عاصمة أبدية لإسرائيل. وقرر اعتماد مائة مليون دولار لتمويل نفقات نقل السفارة الأمريكية فى إسرائيل من تل أبيب إلى القدس المحتلة. هكذا تصفع حكومة الولايات المتحدة المسلمين فى أنحاء الأرض كافة، وتقدم على خطوة أوسع فى سبيل إذلال العرب، وإذاقتهم طعم الهزيمة كلما أوشكوا على نسيانه، يجيء القرار كما نلاحظ فى الذكرى الثلاثين للهزيمة الكبرى عام سبعة وستين وتسعمائة وألف ولاحتلال إسرائيل للقدس الشرقية العربية.

يجيء هذا القرار الخطير من الطرف الأقوى الذى يدعى أنه يرعى عملية السلام ويقوم بتذليل العقبات بين الطرفين. فى نفس الوقت يهدد أحدهم فى الإدارة الأمريكية بوقف المساعدات الأمريكية للسلطة الوطنية الفلسطينية إذا استمر إعدام سماسرة الأرض من العرب الخونة الذين يسهلون بيع الأراضى الفلسطينية إلى الصهاينة.

هكذا. . بوضوح، وبلا تزويق، وبلا دبلوماسية، وبلا تنميق، تتصرف الولايات المتحدة وكأن العرب جثة هامدة لن يأتى منهم أى رد فعل، لا تخشاهم ولا تضعهم فى حساباتها بل تمارس سياسة الإذلال إلى أقصى حد، وتنحاز تمامًا إلى إسرائيل. لن نتحدث عن فقدان المصداقية بالنسبة

للقـوة العظمى المنفـردة بالعـالم الآن، ولن نتـحـدث عـن القطب الـواحـد الغـشـيم، الظالـم، الذى يخيل إليـه أن العـالـم قـد خـلا له وأن المسلمـين والعرب هم البديل للعدو القديم المنهار (الشيـوعية). هذا حديث قـديم، مكرور، معاد، ولن ينفع أيضًا اللطم على الخدود وشق الجيوب، ولكننى سوف أشير إلى أمرين، أولهـما ما سيجرى خلال الفترة القريبة القـادمة فى القدس نفسها، والثانى حول ما يجب عمله.

أما بالنسبة للقدس، فكل الدلائل تشير إلى أن إسرائيل مـاضية فى خطة تهويد القـدس بالكامل. وكمـا ثبت أخيراً فإن مـستوطنة أبو غنيم مجرد مشروع صـغير جدًا بالنسبة للمشروعـات الأخرى التى تتم حـول المدينة. وفى المغرب استمعت الشهر الماضى إلى محاضرة لفيصل الحسينى المناضل الفلسطينى الصلب، وأذهلنى قوله إن ما تحتاج إليه القدس للحفاظ على هويتـهـا العـربية ثلاثون مليون دولار سنويا، وإن الدول العـربية الثـرية لم تقدم هذا المبلغ، وهذا المبلغ أقل من ثمن عربة فاخرة يركبها أحد الأثرياء العرب. وأستعيد هنا انفعال أبى عمار الذى قابلنا به عام خمسة وثمانين فى تونس، وتقديمه صوراً لهيكل سليمان الذى تخطط إسرائيل لإنشائه مكان المسجد الأقصى وتقوم بشن حملة عالمية لجمع التبرعات من أجله ـ الحملة ما زالت مستمرة ـ وقد نشرت هذه الصورة فى جريدة الأخبار منذ اثنى عشر عـامًا، ما سيجرى خلال المرحلة المقبلة هدم المسجد الأقصى وإزالته وبناء هيكل سليمان فوقه. هذا ما يتم الإعداد له منذ فترة، وطبقا لردود الأفعـال المتوقعـة فلن يخرج الأمر فى الواقع عن بعض البيـانات الاستنكارية، الغرض منها إبراء الذمة وتهدئة الجماهير إن كان ما زال هناك جماهير لها تأثير فى أقطار الوطن العربى المقهورة. سينبرى عندئذ المبررون العظام المتخصصون فى تحليل الحرام ولىّ الحقائق وتزييف التاريخ مقابل رحلة إلى كوبنهاجن أو مؤتمر فى جنيف أو طمعا فى جائزة دولية، وستظهر

المقالات التى لا يزيد حجمها على ثلاثمائة كلمة، أو ثمانمائة كلمة فى صفحة الحوار القومى للأهرام، تبرر الأوضاع الجديدة، وتهاجم المتطرفين، المتشنجين، أعداء السلام، أعداء الشرق أوسطية، الجامدين، المتحجرين من أصحاب الشعارات البالية والعقائد المستهلكة!

ليس من قبيل النبوءة، ولكن من واقع الأحداث، أؤكد أن القدس العربية فى سبيلها إلى الاندثار، والمسجد الأقصى سيزال. ويعلم الله وحده ما الخطوات التالية لذلك، وكيف ستتعامل السلطة الفلسطينية مع الأوضاع الجديدة. لكن.. هل بلغ العرب درجة من الخنوع تجعلهم أشبه بالجثة الهامدة؟

فى الظاهر يبدو الأمر كذلك، وفى الواقع نقول بالنفى، ذلك أن إمكانات هذه الأمة غير محدودة إذا تمكن أبناؤها من الوعى بها واستغلالها لخدمة قضاياهم. لن ندعو إلى الحرب، فالموازين الآن ليست فى صالحنا، والحرب القادمة دمارها سيكون رهيبًا، لكننا يجب أن نضعها فى الحسبان، ذلك أن الطرف الآخر المدجج، العنصرى، المتطرف إلى أقصى حد الآن قد يلجأ إلى شنّ الحرب فى أى لحظة، عندئذ يجب أن يواجه بما يؤلمه على الأقل، والأهم أن يواجه بنفوس لم تهزم داخليًا، ونفسيا.

الأمر العاجل يتعلق بإمكانية ما يمكن أن يتم ردًا على الإجراء الأمريكى الأخير. إن الولايات المتحدة تستهين بالمسلمين كافة والعرب خاصة، ولكن من ناحية أخرى تضع اعتبارًا لكل ما يمس مصالحها، لكل ما يؤدى إلى تعطيل خط إنتاج فى مصنع واحد، لن نتحدث عن وقف ضخ البترول، فهذا يبدو صعبًا.

لن نطالب بسحب الأرصدة العربية الهائلة التى تصب فى مصلحة إسرائيل فى النهاية. كل ما نرجوه أن تبدأ حملة شعبية واسعة، لمقاطعة

المشروبات الأمريكية (الكوكا والبيبسى وخلافه) والسجائر الأمريكية والمنتجات الأمريكية. لنبدأ بالمياه الغازية والدخان.

فقط المياه الغازية أمريكية الصنع والأصل، والدخان ذو التوليفة الأمريكية.

هل فى ذلك صعوبة؟

هل هذا مستحيل؟

ليكن ذلك مجرد بداية. حرام على كل مسلم، حرام على كل مسيحى، حرام على كل عربى أن يشرب جرعة من مياه غازية أو يدفع قرشًا أو فلسًا فى منتج أمريكى يؤدى إلى تقوية دولة تكن لنا هذا العداء كله، وتستهين بإنسانيتنا ومقدساتنا وعقائدنا وتاريخنا.

مجرد بداية. فإذا لم يقع إجماع كبداية على مثل هذه الخطوة.. فقل على الأمة السلام بكل تاريخها وحاضرها ومستقبلها.

إهانة للإنسانية

مجرد صورة فى الصحف أثارت عندى مشاعر حزن عميقة . إنها صورة الزميل حمدين الصباحى . بدا حليق الرأس ، مطرقًا ، وحلاقة السجون مختلفة ، أو أنها تتم بعنف ، وخشونة وقسوة ، الغرض من الحلاقة التجميل ، ولكن الهدف من حلاقة السجون الإذلال والتشويه . كان حمدين يبدو متعبا ، منهكًا ، تعرض لطريحة قاسية . والطريحة فى لغة الجلادين تعنى التعذيب ، كانت يداه مقيدتين من الخلف وحوله الحراس .

تداعت إلى ذهنى صور عديدة من معتقل القلعة الرهيب الشهير بمعتقل المثقفين ، والذى شهدت زنازينه وأروقته عمليات تعذيب بشعة للأدباء والمفكرين فى الأربعينيات والخمسينيات والستينيات بالذات وأيضًا السبعينيات . وعادت إلى الذاكرة تلك الأيام القاتمة التى تحولت فيها أسماؤنا إلى أرقام طبقًا لأرقام الزنازين ، وكان مسموحًا بالتردد على دورة المياه مرتين فقط فى اليوم الواحد ، مرة قبل شروق الشمس ومرة بعد غروبها . وكان الحراس الذين يرتدون الملابس المدنية (مخبرون) يقودون السجناء إلى دورة المياه وهم معصوبو الأعين بطاقيات سوداء حتى لا يرون معالم الطريق ، وهذا الطريق مجرد ممر مؤد إلى دورة المياه الكئيبة ، العطنة . وكانت أصوات مسجلة تذاع بين الحين والحين لمعتقلين يتم تعذيبهم لإيلام أولئك القابعين داخل الزنازين فى انتظار استدعائهم إلى غرف التحقيق .

كانت تلك الأيام كئيبة . وفى تلك الزنازين صهر جيلنا وخرج معظمه أكثر صلابة ، واختفى من اختفى ، وانشطر من انشطر . والآن إذ أستعيد ما جرى ، أتساءل بمرارة : لماذا كان هذا كله؟ لماذا جرى هذا كله؟

لقد تحول المعتقل إلى متحف ، والمكان ما زال قائما ، مهملاً ، ولم يعد يؤدى وظيفته حتى كمتحف ، ولم يعد لدينا نحن الذين أمضينا ليالى وأيام الألم فى زنازينه إلا أن نسجل شهاداتنا ، فقد مضى من العمر معظمه ، ولم يبق لنا إلا أن نشهد بصدق ، وأن ندافع عن القيم النبيلة التى نشأنا عليها ، وضحينا من أجلها ، حتى وإن عرضتنا للمتاعب .

ومن أكثر الأمور التى تثيرنى الآن ، الإيذاء البدنى . لقد أغلق معتقل القلعة ، وشهدت السبعينيات حملة ضخمة ضد التعذيب فى الستينيات ، ولم تكن حملة نزيهة ، إذ كان الهدف منها إدانة عهد لحساب عهد آخر ، وهذا أمر يعرفه كل معايش لتاريخ مصر . وأساليب الإدانة تختلف من عصر إلى عصر ، ولكن فى الوقت الذى كان التعذيب فى الحقبة الناصرية مادة للأفلام والمسلسلات والكتابات العديدة ، كان يمارس ولم يتوقف . ومن صورة حمدين الصباحى واضح أن التعذيب ما زال مستمراً .

والإيذاء البدنى لأصحاب الرأى أمر لا يقتصر على مصر فقط ، بل موجود فى أعتى البلدان الديمقراطية . ولا يعنى ذلك أى تبرير من قريب أو من بعيد ، لكن فى مواجهته يجب أن نرفع أصواتنا بالاحتجاج فلا نملك إلا ذلك . إننى ضد تعذيب أى إنسان ، خصوصا أصحاب الرأى والمواقف من أمثال حمدين الصباحى . إننى ضد الإيذاء البدنى لأى صاحب فكر حتى لو كنت مختلفا معه . ومن أكبر المآسى فى واقعنا السياسى أن يسكت أصحاب اتجاه معين عند سماعهم بتعذيب وإيلام أصحاب الاتجاه الآخر الذى يختلفون معه .

إننى ضد تعذيب الناصرى والماركسى وعضو الجماعات الإسلامية، ضد انتهاك أى إنسان لمجرد أنه أعلن رأيًا أو اتخذ موقفًا. ورغم أن علاقتى بحمدين الصباحى لا تتعدى الزمالة ولقاء يتم كل عامين فى انتخابات النقابة، إلا أنه أقدم على ما لم يقدم عليه الكثيرون من المثقفين، إذ رفع الصوت احتجاجًا على تغيرات عميقة تهدد السلام الاجتماعى فى الريف المصرى. وإننى لا أملك إلا التعاطف معه، والتضامن معه، فهو يقرن القول بالفعل، ونحن لم يعد لدينا إلا القول، والفعل الذى أقدم عليه مجرد رفع الصوت احتجاجًا.

وقد قرأت التهم الموجهة إليه صباح اليوم الذى أكتب فيه هذا المقال يقول العنوان ونص الخبر:

«تجديد حبس الصحفى حمدين الصباحى و٣ آخرين».

أما التهم الموجهة، فهى نفس التهم التى نقرأ نصوصها منذ عشرات السنين، ومنها الترويج بالقول لأفكار تدعو إلى مناهضة المبادئ الأساسية التى يقوم عليها نظام الحكم، والحض على كراهيته وازدرائه، وتعطيل مبادئ الدستور، ومنع تنفيذ القوانين . . .

حسنا، أيها السادة، اتهموا حمدين الصباحى الصحفى، المثقف، صاحب المواقف بما شئتم، اتهموه بكراهية النظام، وازدرائه(!) وحاكموه أمام القضاء العادل، وليصدر ضده أى حكم، فنحن نقبل ونرضى بما ينطق به قضاؤنا العادل. حاكموه، احكموا عليه، ولكن لا تدعونا نراه مهانًا مطرقًا، متعبًا، حليق الرأس وعلى جسده ندوب، لأن فى ذلك إهانة لإنسانيتكم قبل أن تكون فيه إهانة لإنسانيته وإنسانيتنا.

الأقباط والمرشد

لم أنزعج من تصريحات المرشد العام للإخوان المسلمين مصطفى مشهور، والخاصة بحرمان الأقباط من الخدمة في القوات المسلحة وفرض الجزية عليهم. لم أنزعج لأن ما كان يدور سرًا قيل علنًا، ولأن الآراء المضمرة، التي كانت تغلف أحيانًا بلطيف اللفظ أو غامضة أصبحت سافرة، علنية. هكذا يمكن فهم النوايا، والمرامي البعيدة، ويمكن أيضًا مناقشتها وضحدها والرد عليها.

إن الآراء المتطرفة موجودة في كل مجتمع، ولقد رأيت في التليفزيون مؤتمرًا حاشدًا للجبهة الوطنية الفرنسية التي يتزعمها العنصري لوبين في مدينة ستراسبورج، وكانت الجموع تزأر وهو يطالب بطرد الملونين وأبناء الجنسيات الأخرى من فرنسا. صحيح أن لوبين عنصري وفاشي، لكن ربما كان في الظروف الاقتصادية هناك ما يبرر ظهور القوى التي يمثلها. ولكن عندما يعلن المرشد العام للإخوان المسلمين مثل هذه الآراء فإن الأمر هنا يمس الثوابت الأساسية التي يقوم عليها الوطن. ليس الأمر متعلقًا بأزمة اقتصادية أو سياسية. إنما القول بمعاملة فريق من أبناء الوطن كمواطنين درجة ثانية يعني تعريض وحدة الوطن للخطر، بل ويمهد لحرب أهلية أو فتنة لا يعلم إلا الله مداها. ويجيء التوقيت الذي أعلنت فيه هذه التصريحات مريبًا وغريبًا، في نفس الفترة التي نشهد فيها حملة شرسة في

دوائر الغرب، وخصوصا الولايات المتحدة، ضد السياسة المصرية المواجهة لإسرائيل وتهديدها للسلام، وللوجود العربى ذاته.

لست من القائلين إن كل خطوة تخفى مؤامرة، أو نتاج تدبير، لكن تصريحات المرشد فى هذه الفترة بالتحديد، ألا تدعو إلى التأمل؟ على أى حال أعود إلى تأكيد ما قلته من عدم الانزعاج، أو انتفاء الصدمة بسبب تصريحات المرشد. فمن الأفضل أن يقال كل شىء فى العلن.

غير أن الحزن والخجل هو الإحساس الغالب. أما الحزن فلأن كثير من المفاهيم التى تتعلق بالوطن تهتز وتتراجع، خاصة ونحن نقترب من نهاية القرن العشرين، فى عشرينيات القرن بلغت الوحدة الوطنية ذروتها فى المشهد المهيب الذى يغيب عن ذاكرتنا الوطنية الآن، عندما تعانق الهلال والصليب واعتلى القمص سرجيوس خطيب ثورة سنة ١٩١٩ منبر الأزهر، وخطب الشيوخ فى قاعات الكنائس. وها نحن أولاء ندنو من نهاية القرن نفسه فإذا بنا نسمع من يدعو إلى حسبان الأقباط مواطنين من الدرجة الثانية. أى تراجع وأى مأساة كامنة فى المجتمع وأحواله وشجونه؟ يقال هذا الرأى ولا أجد فى الردود عليه حتى الآن ما يوازى خطورته، باستثناء موقف صريح ومحدد من حزب التجمع، فالصمت هو السائد حتى الحزب الذى وضع الأساس المتين للوحدة الوطنية خلال ثورة سنة ١٩١٩ فلم نسمع له صوتًا.

مثل هذه الدعوى يجب أن تقابل بمواقف محددة واضحة. فالوحدة الوطنية قضية مصيرية، ترتبط باستقرار الوطن واستمراره وحضوره فى التاريخ والمكان. من حق المرشد العام أن يقول ما يراه، ولكن من واجب كل إنسان أن يرفع الصوت فى مواجهة هذه الآراء المدمرة. والغريب أن

الحزب الوطنى الحاكم يلتزم الصمت أيضًا. مـا مـن رد فعل مناسب إلا من بعض الأقلام التى ما زال ضميرها واعيًا بما يتهـدد الوطـن، الوطن. يبدو أن هذه الكلمة لم تعد تعنى شيئا بالنسبة لكثيرين فى عصرنا.

من الأسباب المؤججة لحزنى أننى كنت شاهدًا لمرحلة رائعة من تاريخ مصر عندما عملت فى جبهة القتال كمراسل حرب للأخبار لمدة ست سنوات، عايشت خلالها حربى الاستنزاف وأكتوبر. ولسنوات طويلة عكفت على تقصى سير الشهداء من مسلمين وأقباط، ورأيت قذائف العدو فى مدن القناة تصيب المساجد والكنائس. وما زلت أذكر أول زيارة لى إلى الجبهة فى سنة تسع وستين وتسعمائة وألف عندما وصلنا إلى موقع مطل على مياه القناة، وكان يقوده ضابط من الصاعقة اسمه عبد العزيز ثعلب. وكان فى الموقع ضباط وجنود، منهم المسلم ومنهم المسيحى. وكان الوقت رمضان. وعندما حان ميعاد الأفكار، كان بيننا جنديان قبطيان صعيديان، يصومان ويفطران مع الجنود والضباط المسلمين، وكان هذا حال جميع الأقباط فى القوات المسلحة بدءا من اللواء فؤاد عزيز غالى إلى أصغر رتبة. هل نحن فى حاجة إلى التذكير بأن فؤاد عزيز غالى كان قائد الفرقة الثامنة عشرة التى حررت القنطرة، وأصبح قائدًا للجيش الثانى؟

هل يعلم السيد المرشد أن أحد قادة ألوية الدفاع الجوى فى الجبهة كان قبطيًا اسمه جورج، وكان أسطورة فى المواقع التى عشت فيها، يتردد اسمه كأحد عباقرة الحرب بالصواريخ، وقد عرفته من الآخرين، لم ألتق به، ولكننى تتبعت أخباره حتى أصبح أحد قادة الدفاع الجوى المصرى، ووصل إلى رتبة اللواء وإلى منصب رئيس هيئة أركان الدفاع الجوى المكلف بحماية سماء مصر بأسرها.

هل أتحدث عـن الشهيد اللواء شفيق مترى سدراك الذى استشهد فى مواقع الفرقة السادسة عشرة؟ هل يعرف المرشد العام معنى استشهاد رتبة كبيرة مثل اللواء سدراك فى الخطوط الأمامية؟ إننى أستعيد ملامح العديد من المقاتلين الأقباط والمسلمين. وينتابنى خجل عميق مما وصلت إليه الأحوال فى مواجهة تراجع البديهيات وتدهور أبجدية وجودنا. لذلك أتمنى لو أعتذر للجميع، أقباطًا ومسلمين، عما وصلت إليه الأحوال.

تزييف ذاكرتنا ..

كيف يقبل العالم بفكرة الدولة العنصرية؟

أليس هذا ما يتحقق فعلاً فى إسرائيل التى تقوم على أساس دينى وعنصرى؟ دولة لليهود ولشعب الله المختار، كيف؟ كيف يمكن أن يغيب هذا المعنى فى خضم السياسة والثقافة؟ وحتى لا يسارع عقلاء عصرنا والأكاديميون العاقلون، والسياسيون المحترفون والمثقفون الذين يوظفون مهاراتهم لخدمة إسرائيل أو ياسر عرفات، حتى لا يقول هؤلاء: انظروا إلى هؤلاء المجانين، إنهم لا يقبلون بوجود إسرائيل، إنهم يريدون تحريرها من النهر إلى البحر.

فى مواجهة هؤلاء أقول: إننى بداية ضد ما جرى لليهود كيهود فى الحرب العالمية الثانية من إبادة جماعية، إننى ضد إبادة أى إنسان لمعتقده أو فكره أو لونه أو ديانته أو لأى أسباب منطلقها عنصرى أو فكرى. لقد عاش اليهود فى إطار الحضارة العربية والإسلامية وأبدعوا وأنتجوا ونعموا بالأمان، وما لقوه من عنت واضطهاد لم يكن مصدره العرب أو المسلمون، وعندما خرج المسلمون من الأندلس خرج اليهود معهم، واضطهدت محاكم التفتيش الطرفين. أقول أيضًا إنه لا يمكن لعاقل أو لإنسان حقيقى أن يفكر فى طرد اليهود من فلسطين، ليس بسبب توازنات القوى العالمية التى ستظل ضد الحقوق العربية لمرحلة طويلة، ولكن حتى لو تغيرت هذه

الموازين فى لحظة ما فى المستقبل فإن التفكير فى مثل هذه النقطة مستبعد لأسباب جوهرها إنسانى.

إن الموقف الصحيح هو المطالبة بدولة يتعايش. فيها اليهود والمسلمون والمسيحيون معًا، دولة لا تقوم على أساس دينى، أو على أساس عنصرى جوهره فكرة شعب الله المختار. وفى خضم الصراع انقلبت المفاهيم وتراجعت الثوابت حتى من جانب بعض الرموز والقيادات الفلسطينية وأولهم ياسر عرفات الذى لم يجرؤ فى البيت الأبيض أن يتحدث عن تضحيات شعبه وحقوقه المغتصبة، وراح إسحق رابين يتحدث فى بلاغة عن تضحيات رفاقه وآلام شعبه حتى بدا للعالم الأمر مقلوبًا، معكوسًا، الضحية هو الجلاد والجلاد هو الضحية. كان ذلك للآسف من اللحظات المؤلمة فى مسار تزييف الذاكرة وقلب الحقائق التاريخية الكبرى.

وهنا نصل إلى عملية تزييف الذاكرة الكبرى التى تستهدف طمس الحقائق وأهمها عروبة فلسطين. وإذا كان العرب قد لحقت بهم هزيمة كبرى فى عام سبعة وستين وتسعمائة وألف ما تزال آثارها فاعلة، سارية حتى الآن، وإذا كانت موازين العالم السياسية لا تسمح الآن بالقول إن فلسطين كلها عربية، وإنها وطن يجب أن يتعايش فيه المسلمون واليهود والمسيحيون وإذا غاب هذا الخطاب عن الإعلام العربى وعن المواقف السياسية العربية. فهل يلزم ذلك المثقفين الذين نعتبرهم ضمير الأمة؟

الصراع الآن يجرى على ساحة الذاكرة. وإسرائيل تخاطب العالم بكونهم أصحاب الأرض، وأنهم كانوا هنا منذ ثلاثة آلاف عام، ويجرى توظيف علم التاريخ والآثار والقانون والفن لخلق تاريخ مزيف، يجرى ذلك فى الوقت الذى يقوم فيه بعض المثقفين العرب بالمساهمة فى تزييف الذاكرة وإيجاد تبريرات لم يفكر فيها حتى عتاة المنظرون من الصهاينة. إن

الحفاظ على مقومات هذه الذاكرة من أهم الحقائق التى يجب التأكيد عليها الآن، وتلك مهمة ثقافية بالدرجة الأولى. يجب ألا يخضع المثقفون لإرهاب البعض، وأن تظل الحقائق فى حدها الأدنى ماثلة أبدًا فى حدها الأدنى، حتى وإن صمتت عنها السياسة العربية، وكف الإعلام العربى، وكف بعض الفلسطينيين عن استعادتها بالوعى واللاوعى. وهذه الحقائق فى الحد الأدنى تقول بعروبة فلسطين الأبدية والأزلية، ورفض قيام دولة أى دولة على أساس عنصرى أيا كان لأن ذلك مناف لحقائق الإنسانية، فهل نعى؟

استنكار الاستنكار!

لا أدرى كيف عبر هذا الخبر فى صمت وكأنه حدث عادى. إذ نشرت الصحف خبراً عن توبة شيخ أحد المساجد عن اعتناقه المذهب الشيعى داخل السجن. الحق أننى شعرت بالحزن، وانتظرت تحركا ما من جماعات حقوق الإنسان فى مصر ولكن لم يصدر بيان ولم يتحرك أى عضو فيها. ذلك أن هذه الجماعات فى معظمها الآن مريبة، غريبة، بعد أن أصبح نشاط حقوق الإنسان جزءاً من الأنشطة التى تجلب المكسب وأموال المنظمات الغربية المشبوهة بدلاً من كونه نشاطًا تطوعيا، مبدئيا، وهذا موضوع يستحق وقفة أطول.

أقول إننى اكتأبت لما نشر، ذلك أننى ضد أى ضغط على إنسان لتغيير ما يعتقده، خاصة إذا كان أسيراً فى السجن. لقد أعاد هذا إلى الذاكرة ما جرى فى المعتقلات السياسية خلال الخمسينيات والستينيات عندما كانت تجرى عمليات ضغط عنيفة جسديّا ونفسيّا على البشر بهدف دفعهم إلى نقطة انهيار يكتبون عندها ما عُرف وقتئذ بالاستنكار، استنكار ما يعتنقه المعتقل من فكر أو التراجع عن مواقفه. ومقابل ذلك يفرج عنه. ولكن من يخرج إلى المجتمع إنسان آخر مدمر، مسحوق، مهتز. وتدمير الإنسان ينتهى دائمًا بتدمير الأوطان ذاتها، لذلك يجب أن ترتفع أصوات الأدباء والمفكرين ضد هذا الأسلوب الذى ينتمى إلى القرون الوسطى.

من ناحية أخرى أتساءل : إذا قال إنسان مسلم إنه شيعى ، هل يعنى ذلك أنه مرتد أو كافر أو مارق؟ أقول بالقطع لا ، فالشيعة مذهب إسلامى تمامًا مثل مذهب السنة . لا أعنى التشابه فى التفاصيل ولكن المنطلق واحد ، وهو الإسلام ، غير أن الفتنة الكبرى ـ كما أطلق عليها الدكتور طه حسين ـ قسمت المسلمين إلى فريقين لأسباب تاريخية يصعب الخوض فيها خلال سطور قليلة . وهذه القسمة ما زال العالم الإسلامى يعانى منها حتى الآن ، وتبلغ درجة من الحدة فى بعض البلدان العربية والإسلامية . ومنذ سنوات كان الأزهر قد شهد حركة فكرية قادها شيوخه العظام مع عدد من رجال المذهب الشيعى للتقريب بين المذهبين الرئيسيين فى الإسلام . ولكم يحتاج العالم الإسلامى الآن إلى الوحدة ، والأزهر هو المرشح لهذا الدور ، لذلك تبدو مثل هذه الأخبار عن توبة شيخ شيعى أو التشهير بالشيعة أمرًا سلبيًا لا يساعد على وحدة المسلمين ، كما أنه ينم عن جهل بالإسلام .

صحيح أن مصر بمضمونها الحضارى والثقافى قد أوجدت صيغة رائعة للتوفيق بين السنة والشيعة ، فالمصريون محبون ، متعلقون بآل البيت ولكنهم على المذهب السنى . ولمدة قرنين من الزمان قامت فى مصر دولة فاطمية (الفاطميون أحد فروع المذهب الشيعى) وانتهت هذه الدولة بدون أن تترك فى مصر صراعًا حادًا كذلك الذى جرى فى بعض الأقطار الإسلامية . وفى بلدان عربية يعرف المسلمون من أسمائهم ، فالسنة لا يطلقون على أنفسهم أسماء الشيعة والعكس . لذلك تُعَدّ مصر حالة إنسانية فريدة فى ذلك التوفيق الرائع بين المذهبين ، وإن كان التحزب قد بدأ يتسرب فى السنوات الأخيرة مع ظهور التيارات المتطرفة ، وبالأخص تلك القادمة من بعض البلدان العربية التى أصبحت ثرية فجأة وتوسدها مذاهب معينة .

الشيعة مثل السنة تمامًا، وإن اختلفت الرؤى الفرعية والتفاصيل، لذلك لا يعد الشيعى كافرًا أو مرتدًا كما تصوره بعض وسائل الإعلام، وإننى لأشعر بالخجل حقًا من عصر نعيش فيه ويرغم فيه إنسان على استنكار ما يعتقده قسرا، خاصة إذا كان مسلمًا، موحدًا بالله أيا كان المذهب الذى يعتنقه.

في الأسماء الرئاسية

أى علاقة تربط بين أجدادنا الفراعنة والمجلس الرئاسى الأمريكى لرجال الأعمال؟ للوهلة الأولى يبدو الأمر غريبًا، لكن إذا تأملنا بهدوء سنجد أن العلاقة مستحكمة. والصلة قائمة وإن كانت سلبية.

معروف أن الفراعنة هم الذين اكتشفوا قوة الاسم. وبداية فإنه بدون اسم لا يمكن التعرف على الموجودات والشخصيات أيضًا، فكيف سنعرف أن هذا باب، وذاك جدار، وهذه وردة، وتلك مرآة، وهذا محمد وذاك إبراهيم.. إلخ؟ الأسماء تدل على الكائنات، بل إن الاسم يمنح صاحبه أحيانًا ملامح معينة، يصبح جزءًا من شخصيته. وشيئًا فشيئًا بدأ الاسم يكتسب قوة خاصة، شبه سحرية، وكانت أسماء آلهة الفراعنة الحقيقية من الحقائق الخفية. وكان المصرى الصميم يعتقد أنه باق، وأنه يسعى حيا طالما أن اسمه يذكر بين الناس، ويردده الخلق، لذلك بالغوا فى نقش أسمائهم على الجدران، وأوراق البردى والخراطيش، وعند مداخل المقابر، وداخلها. وبلغ الأمر حد التوسل للأحياء أن يذكروا أسماء الراحلين. فمادام الاسم يتردد فهذا يعنى أن صاحبه حى. وعندما انتشرت عادة محو الأسماء واغتصاب الآثار لجأ البعض إلى كتابة أسمائهم بشكل خفى وتغطيتها بالطلاء، كما فعل المهندس سنحوت مصمم الدير البحرى وعشيق الملكة حتشبسوت التى غدرت به لأسباب ما زالت غامضة.

هكذا كان للاسم سطوة وقوة، وانتقل هذا من جيل إلى جيل. وفى الممارسات الشعبية يجرى التعزيم على الأسماء لإلحاق الفائدة أو الضرر بها، وفى التراث الصوفى نعرف كلنا عن اسم الله الأعظم الذى لم يدركه أحد رغم جدية المحاولات.

إذن.. للأسماء فى تراثنا وتاريخنا أهمية قصوى ودلالات شتى. من هنا، لا أدرى حقّا من هذا العبقرى الذى أطلق على مجلس رجال الأعمال هذا صفة الرئاسى أو الشراكة كما رددت وسائل الإعلام. لننظر إلى التداعيات التى يحدثها هذا الاسم، المجلس الرئاسى المصرى الأمريكى، ولننظر إلى هذه الصفة أيضًا، الناطق الرسمى باسم المجلس الرئاسى المصرى الأمريكى. الأسماء فخمة، رنانة، شديدة الدلالة، فكلمة رئاسى تعنى مدلولات عديدة ومستويات مختلفة لا تخفى على المصرى الفطن سليل الفراعنة الذين قدموا للبشرية فكرة الأسماء ذاتها التى عرفت البشرية على ذواتها.

لكننى لن أتمسح بأمجاد الفراعنة وما قدموه إلى الإنسانية، فشتان بين أحوالنا الآن وما كنا عليه منذ ثلاثة أو أربعة آلاف عام، ولو كنا أحفادهم حقّا لما أطلق أحدنا صفة الرئاسى على هذا المجلس، ذلك أن هذا المجلس يضم بين صفوفه مجموعة من رجال الأعمال، معظمهم أسماء مجهولة طفت فجأة على سطح حياتنا وجاءت من المجهول، لا نعرف لهم تاريخًا محددًا، ولا نشاطًا واضحًا مثل طلعت حرب، وعبود باشا وغيرهما من كبار الرأسماليين الوطنيين فى النصف الأول من هذا القرن. ولكم أتمنى أن يكتب لنا مليارديراتنا الجدد سير حيواتهم حتى يستفيد الشباب منها، ونفهم أيضًا كيف يمكن تكوين المليارات فى الزمن اليسير، وكم تم تسديده إلى خزانة الدولة وضرائبها؟ لكن هذه قضية أخرى.

لنركز الآن فى صفة الرئاسى هذه. إن التسمية تعنى أن الأمر على مستوى ما رئاسى، أى علوى. وعندما يصبح لمصر وأمريكا مجلس اسمه رئاسى، فليس من المعقول أن نتخيل الجانب المصرى يمارس الصفات الرئاسية على القوة الأولى فى العالم الأرضى الآن. إن هذا يشبه فقيراً مرتبة مائة جنيه يقف إلى جانب ثرى مدجج بالسلاح والإمكانات، ويقول هذا الفقير المتواضع: إن دخلنا الشهرى مليار جنيه!!

طبعا الأعضاء المصريون الرئاسيون من أصحاب مصانع الزبادى والقمصان والسيراميك، إلى غير ذلك من منتجات هذا الزمان، وأصحاب التوكيلات العالمية الساعين المجتهدين لتدمير الصناعات الوطنية، دوائية وإلكترونية ونسيجية لصالح الشركات العالمية الكبرى. هؤلاء المصريون الرئاسيون ليسوا فقراء كذلك الذى ضربت به المثل، إنهم مليارديرات جدد، وما أدرانا ما المليارديرات الجدد؟!

إذن فالتسمية الرئاسية تنطبق هنا أكثر على الجانب الأمريكى، وليس على المصرى طبعًا. والمتتبع للتصريحات الصادرة عن الأفاضل من أعضاء المجلس سيجد أنها تمس أدق الشئون الداخلية فى مصر، وهذا يتم التصريح به فى الولايات المتحدة مما أدى إلى ردود فعل سلبية على أعلى مستوى فى مصر. فى الوقت نفسه لم نسمع أى عضو أمريكى رئاسى يطالب أمام الجانب المصرى بالضغط على الحكومة الأمريكية لسرعة تحقيق الخصخصة، أو حتى لسرعة إظهار الحقيقة الكامنة وراء سقوط طائرة الخطوط الجوية العالمية الأمريكية فى المحيط الأطلسى فى يوليو الماضى.

إذن.. الرسالة المتضمنة فى الاسم تنطبق على الأعضاء الأمريكان وأولهم العضو الرئاسى آل جور الذى ارتدى الطاقية اليهودية الشهر الماضى وهاجم مصر فى الكونجرس هجومًا شديداً لإرضاء إسرائيل. والرسالة

المتضمنة أيضًا من الرأسماليين المصريين الجدد تعنى أن الصفات الرئاسية وما يتعلق بها معقود طبعًا للأقوى والأمتن والأغنى ومصدر النعمة بالنسبة لبعض أهم كبار المليارديرات الظاهرين على السطح الآن.

ما نستلفت النظر إليه يا سادة قوة الاسم وقوة دلالاته، والمسألة تبدأ باسم ثم يعقبها تغيرات لظروف تاريخية وجغرافية كاملة. لا تستهينوا بالأسماء من فضلكم. أطلقوا عليه المجلس الاستشارى، مجلس التعاون، مجلس التخطيط، مجلس أى حاجة عدا الرئاسى. فالمصرى الحقيقى لا يعرف إلا «رئاسى» واحد فقط، مقره معروف داخل قلوبنا وأرواحنا وكل ما يمثل انتماءنا إلى هذا الوطن الرئاسى فى مسار الإنسانية!

تــلك الكارثــة ..

إنها كارثة تقض المضاجع!

أن يدخل كاتب إلى السجن بسبب كتاب، جرى ذلك في مصر الأسبوع الماضى، عندما أودع علاء حامد السجن لتنفيذ الحكم الصادر ضده بقضاء سنة مع الأشغال الشاقة المؤبدة بعد أن أيدته محكمة الاستئناف، وذلك عقابًا له على ما كتبه فى مؤلفه «الفراش». نشر الخبر فى سطرين متقاربين بصفحات الحوادث الداخلية فى الصحف. لم يعلق عليه أحد، ولم يصدر أى رد فعل من أى جهة، مع أن دلالته خطيرة جداً.

لست بصدد التعليق على حكة صدر، ولا الخوض فى الإجراءات والحيثيات، فالاحترام للقضاء قائم، راسخ من قبل ومن بعد، لكن تناول ما جرى فى دلالته العامة وانعكاساته على الحياة الثقافية أمر ضرورى. وهنا لا بد أيضًا من إبداء تحفظ لا بد منه حول أعمال المؤلف. إن ما كتبه يُعَدّ متوسط القيمة أدبيا وفنيا. وهذا أمر بدا واضحا فى تعامل الحركة النقدية مع مؤلفاته وما حوته من أفكار أو موضوعات.

هنا لا بد من الإشارة إلى ظاهرة عامة تتعلق بتعمد بعض الأدباء كتابة مشاهد جنسية فجّة، أو كتابة أفكار صادمة للمشاعر، بدون مسوِّغ فنى، أو بعيدا عن سياق الموضوع. وهناك فرق كبير بين من يعبر عن الجنس بوصفه من حقائق الحياة، وبين من يكتب متعمداً الإثارة أو استلفات النظر، أو

يستهدف الترجمة إلى اللغات الأجنبية. والحياة الأدبية تحفل بأعاجيب شتى خلال السنوات الأخيرة يمكن تفصيلها فيما بعد. لكن التصدى لمثل هذه الظواهر السلبية يجب أن يتم فى إطار النقد الأدبى والتقييم. والحركة الثقافية قادرة على ذلك، بل إن الضمير الأدبى المصرى حى، وفاعل ومؤثر إلى حد عميق. وكم من مؤلفات ظهرت مصحوبة بضجيج إعلامى أو مدعومة من قبل ذوى النفوذ، لكنها لم تستقر ولم يتقبلها ذلك الضمير الحى، المؤثر، لأنها كانت دون المستوى، لكن هذا الضمير الفاعل أيضًا يرفض وينزعج لكل ما يمس حرية التعبير، وما يتهدد حرية الكتابة.

الكتابة يرد عليها بالكتابة، والحركة الأدبية المصرية قادرة تمامًا على فرز الغث من الجيد، والزائف من الحقيقى. أما الإجراءات التى تبدأ بالمصادرة وتنتهى بالتكفير والحبس فلن تثمر إلا الكوارث على المستويات كافة، وعندما تصبح الثقافة مهددة بالمصادرة والتكفير والزج بالأدباء فى السجون فإن المجتمع كله يصبح مهدداً بمخاطر من كل نوع.

يصمت بعض الأدباء والمثقفين فى مواجهة خبر كهذا، ويسكت آخرون عن دخول كاتب إلى السجن بسبب رواية أو قصيدة أو كتاب، وقد يبدى البعض حججًا شتى. منها ضعف مستوى الكاتب، أوحبه للشهرة، أو تعمده الإثارة، كل هذا يمكن قوله كتابة، أما السجن والأشغال الشاقة بسبب قصة أو قصيدة فأمر خطير وجديد على واقعنا الثقافى والاجتماعى.

البعض يسعى إلى مهاجمة النصوص الأدبية كجزء من تحركهم السياسى لتحقيق الدولة الدينية، وهذا هو الهدف الحقيقى لكل ما نراه من أعمال تتم هنا وهناك، أو مقالات تهاجم هذه الرواية أو ذلك الفيلم، أو هذا النص التراثى أو ذلك النص المعاصر. الهجوم على الثقافة ومحاولة تدميرها وإرهاب المثقفين والمبدعين عمل سياسى يمارسه أولئك الساعون إلى

مشروع سياسى متكامل باسم الدين. ولو أن الأمر ترك بشكل طبيعى، أن ترد الكتابة على الكتابة، لأصبح كل أديب فى حجمه، وكل مفكر فى قامته الحقيقية. والثابت من تاريخ الحركة الثقافية أن أى هجوم على كتاب أو كاتب يؤدى إلى أثر معاكس.

إن من يصمت اليوم عن دخول أديب إلى السجن بسبب قصة أو قصيدة إنما يرسخ هذا المبدأ ويدعم المناخ الذى يسمح بذلك. وعندما يتعمق هذا المناخ ويتسرب إلى الأفئدة والأرواح، يكون الردع داخليّا، وعندئذ يتحقق موت الثقافة والضمير ويصبح متوقعًا أى شىء يلحق الدمار بالثقافة والوطن.

إن وجود أديب واحد فى السجن بسبب رواية أو قصيدة أمر مشين للجميع ويجب ألا يواجه بالصمت.

إرهـــاب المثقفين

يبدو أن المثقفين المصريين يتعرضون لضغوط شتى، مصادرها مختلفة وأحيانًا متناقضة ولكنها تستهدف غرضًا واحدًا وهو الوصول بهم إلى حالة من الصمت والوهن لا تمكنهم حتى من إعلاء صوتهم بالاحتجاج على ما يجرى فى وطنهم أو أمنهم.

وعندما أشير إلى المثقفين المصريين، فإنما أعنى المثقفين الوطنيين، والمستوعبين، المدافعين الآن عن القيم الوطنية، والإنسانية، فى مواجهة متغيرات قوية تكاد تعصف بمجتمعنا عصفًا، مثل تغير القيم السائدة ـ وليس التغير كله إلى الأفضل ـ والضغوط التى تمارسها قوى عالمية تستهدف الآن المحو والطمس لكل ما هو خاص، لسيادة نمط واحد من الثقافة.

الأساليب التى تتم لإضعاف مواقف المثقفين الوطنيين عديدة، بدءا من الضغوط المباشرة وغير المباشرة، إلى تعدد وسائل الاختراق فى ظل ضعف التجمعات والأطر التى كان ممكنا أن تحقق درجة من التماسك أفضل بكثير مما هو عليه الموقف الآن.

لقد كان المثقفون فى طليعة القوى الوطنية المصرية خلال المعارك كافة التى خاضها الشعب المصرى. كانوا فى المقدمة ضد رصاص المحتل، ودفاعا عن حقوق الشعب فى مواجهة الدكتاتورية والعسف وقهر الجلادين، وعلى امتداد عقدين من الزمان قدموا نموذجًا رائعًا فى موقفهم

من قضايا أمتهم العربية، وبالتحديد فى مواجهة الصهيونية ومشروعاتها التوسعية بكل ما تمثله من تهديد للوجود وللمصير.

وعندما بدأت مشكلة الإرهاب والتطرف فى المجتمع المصرى، كان المثقفون أول من تصدى للتطرف وليس لديهم أى قوة إلا موقفهم وأفكارهم، ودفع بعضهم حياته ثمنا لهذا الموقف، ومنهم من ينتظر. وليس من قبيل الصدفة أن يكونوا هم أول المستهدفين من العصابات التى تريد فرض آرائها بالقوة على المجتمع. ومن خلال هذا الموقف دعموا جهود الدولة التى تستهدف محاصرة الإرهاب والتطرف، لكن من ناحية أخرى نجد أن معظمهم كان حريصا أيضًا على التصدى للأسباب التى تفرز وتنمى ظاهرة الإرهاب، وأهمها الفساد المروع، والبطالة، واختلال مفهوم العدالة الاجتماعية، وانسداد أبواب الأمل أمام قطاع كبير من الشباب.

فى مثل هذه الظروف يصبح واجبا على كل مثقف أن يرتفع صوته محذرًا ومنذرًا ومنبهًا. ومع بدء تطبيق قانون العلاقة بين المالك والمستأجر فى الريف، رأى بعض المثقفين أن هذا القانون يهدد السلام الاجتماعى فى الريف، وعبر بعضهم عن ذلك بالكتابة وإعلان الرأى، ويبدو أن بعض الجهات فى الحكومة رأت أن تطبق المثل القديم «اضرب المربوط يخاف السايب»، أو «ذبح القطة أمام القرود»، وللأسف كلها أمثلة شعبية تمت إلى عالم الحيوانات، ولكن ما تزال بعض الأجهزة الحكومية تعمل بها وتتخذ منها قواعد للتعامل مع البشر.

هكذا جاء اعتقال حمدين صباحى. والأدهى من اعتقاله التنكيل به داخل المعتقل، وحلق رأسه وصفعه وركله وإهانته، والإقدام على ما ظننا أنها تصرفات اختفت، ولكن الجلادين فى المعتقلات والسجون متواجدون وينتهزون أى فرصة لإظهار مهاراتهم السادية، خاصة فى البشر الضعفاء

الذين ليس لديهم إلا الكلمة والموقف، وكان حمدين الصباحى مثالاً مشرفًا وقدوة للمثقف الذى يعبر عن موقفه تجاه أهله وناسه ويقبل راضيًا أن يدفع الثمن من حريته، وآلام جسده.

غير أن المفاجأة الحقيقية للمثقفين كانت اعتقال عز الدين نجيب، ذلك الفنان والأديب الرقيق، الشريف، النزيه، الذى يُعَدّ من أبرز أبناء جيلنا، جيل الستينيات.

عرفته منذ حوالى خمسة وثلاثين عامًا، كان واحداً من أولئك الذين شكلوا ملامح جيل الستينيات، هذا الجيل الذى نما فى ظروف خاصة، ولكنه باستمرار كان من خلال أشرف وأنقى أدبائه وفنانيه فى الطليعة دائمًا من قضايا الوطن والحرية.

لعز الدين نجيب تجربة طويلة فى العمل الثقافى، من خلال عمله فى جهاز الثقافة الجماهيرية، خاصة فى منطقة كفر الشيخ. وله كتاب يتضمن ملامح هذه التجربة الرائعة يجب أن يدرسه كل من يقوم على العمل الثقافى، كان يعبر باللوحة والكلمة والموقف عن قضايا الوطن وأولئك الذين لا صوت لهم فى الريف المصرى والحضر، أولئك الذين يسقطون الآن من ذاكرة الخطط المرسومة ومن نصائح البنك الدولى، وطلبات الصندوق العالمى، وكل الجهات الكوكبية العظمى التى تسفر حينًا وتختفى حينًا لتتدخل فى أدق شئون حياتنا.

وخلال السنوات الأخيرة، أصبح عز الدين نجيب مثل العديد من أبناء هذا الجيل، متفرغًا لإبداعه، منهكًا فى عمله الثقافى، منشغلاً بتأصيل الجذور الثقافية للشعب المصرى والتى تهددها رياح العولمة السموم، من خلال عمله وكيلا لوزارة الثقافة فى مجال رعاية الحرف التقليدية المهددة بالانقراض، واكتشاف آفاق الحياة المصرية فى مناطق ما تزال بكرًا مثل

الواحات والصحراء النائية، لم يقترب إنسان منه إلا أحبه وأصغى إلى رقته واستمتع بإبداعه المرئى والمكتوب.

إن ما يقال حول وقائع اعتقاله كثير، وإذا صح ما يتردد من أن اعتقاله تم نتيجة وشاية من أحد العاملين بوزارة الثقافة فتلك مصيبة تعنى العودة إلى زمن الأخذ بالشبهة. وإذا صح فى تقديرى أنه أعتقل لكى يكون عبرة للآخرين، فأقول لمن يهمهم الأمر إننا لن نخاف ولن ترهبنا المعتقلات، وسنظل مدافعين عن أبناء شعبنا الذين تطحنهم ظروف المتغيرات الآن. إن اعتقال الفنان عز الدين نجيب ليس قضية فردية، ويجب على كل من يشعر بالانتماء إلى هذا الوطن أن يرفع الصوت محتجًا ومطالبًا بالإفراج عنه. لقد ولى الزمن الذى يمضى فيه الشرفاء إلى المعتقلات فى صمت كئيب!

حرب الاستنزاف .. والذاكرة الوطنية

حديث الرئيس مبارك إلى رجال الجيش الثانى والذى بثه التليفزيون بعد ظهر الأربعاء الماضى، أهم ملمح فى الاحتفالات بذكرى أكتوبر هذا العام. لنرجئ إذن استكمال الحديث عن بيع السينما المصرية، وعن أمور أخرى ملحة، فلا يوجد أكثر أهمية من الحديث عن الأوطان، وعندما يجىء من قمة الدولة ورمزها.

وبداية لا بد من تحية واجبة لهذه اللفتة العميقة المحملة بالدلالات الإنسانية والتاريخية والمعبرة عن الحقيقة أيضًا، عندما أشار الرئيس مبارك إلى دور الفريق أول محمد فوزى فى إعادة بناء القوات المسلحة. هكذا يكون حفظ أقدار الرجال الذين وهبوا هذا الوطن قدراتهم وأعمارهم، وهاهم أولاء يتقدمون فى العمر وليس لهم من الأمر شىء، لا ثروة ولا حسابات سرية أو علنية، إنما يعيشون بيننا ويسعون فى هدوء، فليس أقل من الكلمة المنصفة الحلوة النابعة من الواقع. والفريق أول فوزى رجل شديد الصلابة، تعرض لمحنة كبرى عندما وقع خلاف سياسى أدى به إلى السجن، ولكن دوره فى إعادة بناء القوات المسلحة وخوض حرب الاستنزاف من العلامات المشرفة فى تاريخ العسكرية المصرية، ومصر لا تنسى أبدًا أبناءها الشرفاء. لقد تأثرت ومعى جموع الناس من تلك اللفتة العميقة فى ذكرى أكتوبر والتى تخص الفريق أول محمد فوزى.

النقطة الثانية فى حديث الرئيس إلى الرجال ما يتعلق بحرب الاستنزاف، قال ما نصه : إن هذه الحرب تم خلالها إعادة بناء القوات المسلحة وتطعيم القوات بدرْس المعركة، مما أهل القوات المسلحة لكى تقوم بمعركتها الكبرى فى أكتوبر، بعد أن حصلت على خبرة عظيمة من حرب الاستنزاف التى أهلتها لتخوض حرب أكتوبر وتحقق النصر لمصر وللأمة العربية.

إننى أعُدّ ما جاء فى حديث الرئيس عن حرب الاستنزاف بمثابة القول الفصل فى هذا الموضوع الذى اضطررت مع المخلصين من أبناء هذا الوطن لخوض جدل عنيف منذ سنوات دفاعا عن هذه الحرب وعن شهدائها ضد محاولة تشهويهها من جانب البعض.

إن الذاكرة الوطنية والقومية مستهدفة الآن من إسرائيل وأعوانها وأصدقائها والمتعاملين معها سرّاً وعلانية. وللأجهزة الإسرائيلية خبرة تاريخية قصوى فى تشويه المفاهيم، ومحو الذاكرة، الذاكرة الإنسانية والتاريخية والجغرافية. ألم يصبح الوطن العربى شرق أوسطية بواسطة بعض المثقفين الذين يوظفون أنفسهم ومواهبهم وإمكاناتهم لتزييف الحقائق والثوابت طمعًا فى ثروة أو سعيًا إلى منصب أو بروز هنا أو هناك.

حرب الاستنزاف كانت هدفًا لإسرائيل، وكان المدخل استغلال التناقض بين عهدى الرئيس عبد الناصر والرئيس السادات. لقد بدأت فور تولى الرئيس السادات حملة شرسة ضد جمال عبد الناصر بهدف محوه ومحو ما يمثله، وشملت كل ما تم فى عهده: بناء السد العالى تحول إلى كارثة، وكتب الراحل فيليب جلاب يتساءل ساخراً: هل نهدم السد العالى؟ وحرب الاستنزاف أصبحت لا ضرورة لها، وكبدت مصر خسائر فادحة بعد أن عوملت بمنطق تجار الخردة، وكأن الحروب لا تقع بها خسائر

لكلا الجانبين. وخلال الهجوم المتقنع بالبحث الأكاديمى جرى تجريد القوات المسلحة المصرية من أشرف معاركها. فالمدمرة إيلات لم تغرقها البحرية المصرية، ومعارك الدفاع الجوى لم يكن ثمة داع لها.

وهكذا جرت محاولة لتشويه ثلاث سنوات من أمجد وأثرى المراحل التى عاشتها قواتنا المسلحة وخاضت خلالها حربًا شرسة، بطولية بكل المقاييس. ولولا حرب الاستنزاف لما كان العبور فى أكتوبر. لقد جرى تراكم لخبرات القتال يوما بعد يوم وشهرًا فى أثر شهر. والعبور نفسه بدأ عقب هزيمة يونيو بمجموعات صغيرة من المقاتلين تطورت حتى وصلت إلى كتيبة مشاة فى ديسمبر عام تسعة وستين وتسعمائة وألف، ورفع العلم المصرى لمدة أربع وعشرين ساعة على خط بارليف فى مواجهة الإسماعيلية.

الفرق الخمس التى عبرت يوم السادس من أكتوبر هى نفس الفرق التى خاضت حرب الاستنزاف، وقوات الدفاع الجوى التى واجهت سلاح الجو الإسرائيلى فى معارك أسطورية خلال عامى ثمانية وستين وتسعمائة وألف، وسبعين وتسعمائة وألف، هى نفسها التى قطعت الذراع الطويلة لإسرائيل فى أكتوبر. القوات المسلحة المصرية خاضت حربًا تحريرية لمدة ست سنوات، انقسمت إلى مرحلتين: الاستنزاف وأكتوبر.

لقد نسى أولئك الذين وظفوا إمكاناتهم لتشويه حرب الاستنزاف أن الشعب المصرى لا ينسى من ضحوا وبذلوا. ومع أن بعضهم يشتغل بالتاريخ لكنهم لم يستوعبوا موقف الشعب من عرابى وجماعته. لقد قام الإنجليز والقصر بحملة منظمة ضارية لتشويه سيرة عرابى، ولكن الشعب المصرى صانه ودافع عن موقعه فى ذاكرته الوطنية، وتم هذا بأساليب شتى، لم تبهت خلالها سيرة عرابى، تماما كما لم تبهت سيرة عبد الناصر بعد

ثمانية وعشرين عاما من رحيله، لأن ما يمثله من حلم للمستضعفين ما زال باقيًا، وما كان يمثله من تعبير عن كرامة الوطن ما زال حلمًا يسعى، وما كان يجسده من تعبير عن مضمون الوطن القديم والحضارة التى علمت الدنيا ما زال يثير الحنين، ولقد تحرك هذا الحنين قويًا عندما أصغيت إلى حديث الرئيس مبارك إلى الرجال من ضباط وجنود الجيش الثانى الذين أثار مظهرهم وانضباطهم الأمل والثقة.

وكانت تحية الرئيس للقادة الذين شاركوا فى المراحل كافة، وحديثه عن حرب الاستنزاف، وذكرياته التى رواها بتلقائية وبساطة وعمق بالغ، خاصة عندما أشار إلى حادثة اختراق للأجواء المصرية ثم الرد عليها فورًا باختراق مصرى من القوات الجوية.

إنه حديث يدعم الذاكرة الوطنية، ويذود عنها جميع محاولات التزييف والمحو والطمس التى تتمتع بأساليب شتى، بدءا من التستر بالدراسات الأكاديمية، وحتى القول بالشرق أوسطية، والتحالف فى كونبهاجن!

الحنين إلى البطل

بماذا نفسر هذا الظهور القوى، المفاجئ لأرنستو شى جيفارا بعد ثلاثين عاما من اغتياله فى أحراش بوليفيا؟

إن القول بالعثور على رفاته المدفونة فى إحدى القرى البوليفية ونقلها إلى كوبا لا يكفى. أتابع محطات التليفزيون العالمية فأرى أفلامًا عديدة حوله، بعضها قديم، والآخر حديث، وقد رأيت فى محطة الآرتيه الفرنسية، الألمانية، فيلمًا استغرق ليلة كاملة يتتبع خطوات رحلته الأخيرة بعد أن ترك منصبه فى الحكومة الكوبية ومضى إلى بوليفيا ليشعل نار الثورة ضد الاستعمار الأمريكى ويواصل النضال. وجدت نفسى متأثراً بما رأيت وما أقرؤه من مقالات عن كتب ظهرت حوله، أو تتناول سيرته.

هكذا استخرجت من فوق أحد أرفف مكتبتى مجلداً ضخمًا يتضمن كل ما ألقاه من خطب وما كتبه من رسائل، ترجمة صدرت فى سوريا منذ أعوام، رحت أستعيد الإنسان والرمز والمعنى.

جيفارا أحد الرموز التى تعلق بها جيلنا بالمعنى العالمى، أى أولئك الذين ينتمون إلى الحقبة التى شهدناها بدءا من نهاية الخمسينيات وحتى نهاية الستينيات، وقد زرت أصدقاء عديدين شرقًا وغربًا من جنسيات مختلفة، ومن طبقات فقيرة وثرية، كانت صورة جيفارا تتصدر الجدران، وتحدث حضوراً قويًا مشعًا فى أماكن شتى أشبه بحضور القديسين فى زمن لم يعد

يظهر فيه قديسون، كانت ملامحه تعكس الطهارة الثورية فى أسمى معانيها، والبراءة. كان لملامحه حضور أبدى يليق ببطل أسطورى. كانت له ملامح (روبين هود) و(زاباتا) و(أدهم الشرقاوى)، بعد أن قتل برصاص المخابرات المركزية الأمريكية. وصفته راهبات المستشفى اللواتى رأينه مسجى أن ملامحه كانت تشبه ملامح المسيح المقتول، محاطا بجنود رومان فى ملابس عصرية.

غير أن موت جيفارا لم يكن نهاية، لقد بدأ يولد من جديد كأسطورة، رغم أن الهزيمة لحقت ما كان يمثله من أفكار سياسية، ولكن المبادئ التى آمن بها لم تهزم، إنما تجرى محاولات شتى لتشويهها، أعنى العدالة الاجتماعية وإنصاف الفقراء، المضطهدين.

دهشت فى الستينيات عندما لاحظت أن الأصدقاء السوفيت يتحدثون عنه بتحفظ ويَعُدُّونه ثوريّا رومانسيّا. وكنت أعجب. إن الثورة فى حاجة إلى رومانسية، إلى خيال، إلى مثل، وربما كان افتقاد النظام السوفيتى للرومانسية أحد الأسباب غير المباشرة التى أودت به.

كان جيفارا يمثل بالنسبة للعديد من المثقفين أمثالى القدرة على اقتران القول بالفعل، وخاصة الفعل. لقد رأى كما رأينا، وانفعل كما انفعلنا، لكنه أقدم وخاض المعمعة، وقاوم الظلم الذى تفرضه علينا الحياة، والفساد الذى ندينه باللفظ لا غير. جيفارا قاوم أعتى قوة فى العالم. وبقدر ما يمكن للإنسان أن يعطى تقدم، وأيا كانت المسافة بين طموحه وإمكانياته خاصة عندما أقدم على مفارقة منصبه بعد انتصار الثورة فى كوبا واتجاهه إلى أحراش بوليفيا، فيبقى منه شرف المحاولة، وتحميل نفسه مسئولية محاربة ما اعتقد أنه خطأ على الرغم من اقتناعه أن تغييره أو الحد منه ليس سهلا.

وهذا بالضبط ما يحتاج إليه العالم الآن .

لقد انهار النظام الاشتراكى ، وبرزت الولايات المتحدة كقوة وحيدة تحاول أن تفرض نفسها وثقافتها وقيمها على العالم ، والأمر ليس مفروغًا منه ، بل إن ثمة بؤر للمقاومة ، فى أوروبا وتكتلها ، فى فكرة البحر الأبيض المتوسط التى تجمع الشمال والجنوب ، فى عمالقة آسيا الذين يمكن أن يشكلوا قوة هائلة فى مواجهة الولايات المتحدة . أما العالم العربى فلا وزن له حتى الآن على الإطلاق ، ولن يكون له تأثير إلا إذا تقاربت أقطاره على أساس ثقافى (موجود بالفعل) واقتصادى (غير موجود) .

إن الحاجة إلى البطل الذى يمثل التحدى لتلك القوة الغشيمة العظمى التى تحاول الانفراد بالعالم تبرز من جديد بقوة عند شعوب الأرض كافة . إن الحاجة الإنسانية إلى الرمز تعود من جديد . لقد رددنا منذ ثلاثين عامًا مع الشيخ إمام أنشودته الحزينة ، الجميلة التى كتب كلماتها أحمد فؤاد نجم «جيفارا مات» ، وكان حزن أهل الأرض من المستضعفين عليه عظيمًا . وها هو ذا جيفارا يعود كأسطورة عظمى ، ليس فقط بين فقراء أمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا ، ولكن أيضًا بين شعوب أوروبا المهددة بالمحو أمام القوة الغشيمة التى تحاول السيطرة على مقدرات العالم . وميلاد الرمز من جديد يمكن أن يكون بداية .

إيران .. والأقصر

حرصت على متابعة أعمال مؤتمر القمة الإسلامى فى طهران لأسباب عديدة، أولها حساسية الظروف التى يلتئم فيها هذا الجمع. الصورة العامة للإسلام فى العالم منذ فترة تشوبها بقع قاتمة، بدءًا مما يفعله الطالبان فى بلاد الأفغان، وما تزال صورة نجيب الله المشنوق، المتدلى من عامود نور، ولسانه مدلى - ولم يكن الرجل يشكل خطرًا على أحد، مجرد رئيس متقاعد، خرج من السلطة وأصبح لاجئًا - ظلت صورة الرجل تتردد عبر وسائل الإعلام كافة التى تتعمد تقديم الإسلام والمسلمين فى صورة بغيضة، وهذا ما تناوله المفكر الفلسطينى إدوارد سعيد فى كتابه تغطية الإسلام. ثم جاء حادث الأقصر ليؤكد هذه الصورة، لما احتواه من بشاعة فى التنفيذ ما تزال تجثم على أنفاس الكافة من أبناء وطنى. وما زلت غير قادر على التخفيف مما جرى أو حتى تجاهله بمنطق النسيان، وهذا ما جعلنى أتابع مؤتمر القمة الإسلامى وفى خلفية وعيى حادث الأقصر.

منذ فترة وثمة متغيرات مهمة تجرى داخل إيران، توارت صور التشدد التى صاحبت اندفاع الثورة الأول، وخاصة ما يتعلق بأوضاع المرأة والثقافة. ومما نقرؤه، ومن مشاهدات الزملاء المتابعين، يمكن القول إن وصول آية الله الدكتور محمد خاتمى إلى رئاسة الجمهورية بعد انتخابات نزيهة، ليس أمرًا مظهريًا. إنما يعكس تحولات حقيقية داخل المجتمع

الإيرانى. وبدا الرئيس الجديد فى صورة إيجابية جداً، بالنسبة لقضايا الديموقراطية، والمرأة، وأسهمت شخصيته فى تغيير الصورة السلبية للإسلام والمسلمين التى تتبناها وسائل الإعلام الأمريكية والغربية. وجاءت وقائع المؤتمر الإسلامى لتبث إلى العالم مشاهد شتى من داخل إيران تسهم فى تعميق هذه الصورة الإيجابية، إضافة إلى الخطاب السياسى رفيع المستوى الذى ألقاه الدكتور محمد خاتمى ودعا فيه إلى الحوار بين الثقافات والحضارات.

تنطلق من طهران عاصمة أول جمهورية إسلامية فى التاريخ الدعوة إلى الحوار، إلى التعايش بين الثقافات والحضارات، بدلاً من العنف وزرع المتفجرات وإلقاء القنابل، وذبح الأبرياء، تلك الأفعال التى يرتكبها البعض ويعلنون فى بياناتهم أنهم مسلمون، وهم بذلك يسيئون إلى الإسلام وإلى المسلمين.

تجىء هذه الدعوة بعد أسبوعين من حادث الأقصر البشع. ومن خلال متابعتى للمحطات الفضائية العالمية يمكننى القول، إن لغة الخطاب الحضارى، الثقافى، تلك التى أعلنها الدكتور خاتمى، أو التى حفل بها المؤتمر، إنما خففت من حادث الأقصر إلى حد ما.

إن العنصرية البغيضة ضد الشرق وضد العرب وضد الإسلام عادت تطل من الغرب. خاصة من ثنايا السياسة الأمريكية التى تقودها الآن سيدة متعصبة، صهيونية، لا تخفى كراهيتها للعرب والمسلمين، وتعلن بوقاحة أن موت نصف مليون طفل عراقى لا يمثل شيئًا فى سبيل حصار النظام العراقى، والحقيقة أن ما يتم حرب إبادة حقيقية، حرب إبادة سوف تمتد إلى أقطار عربية وإسلامية أخرى إن آجلاً أو عاجلاً.

من هنا تأتى قيمة هذا الخطاب الإنسانى الحضارى، الثقافى الذى انبثق من طهران إلى العالم. وإذا كان الوعى بمخاطر الإبادة والحصار بارزًا فى

خطاب الدكتور خاتمى، وفى توجهات الكثير من القادة الذين حضروا المؤتمر، فإن الموقف العام يقول إن هذه الدول ليست على مستوى الإدراك العميق لحقيقة ما يتهددها من أخطار، خاصة وأن دولة ثقيلة الوزن محسوبة على الإسلام والمسلمين مثل تركيا تتحول الآن إلى رأس حربة ضد العالم العربى والإسلامى طبقا لسياساتها المعلنة والتى تنفذ على أرض الواقع، ها نحن أولاء نرى القوات التركية تغزو شمالى العراق وتنتهك سيادته المرة تلو المرة، وترتبط مع إسرائيل بمعاهدة عسكرية موجهة ضد العرب والمسلمين عامة وسوريا خاصة.

من هنا كنت أتمنى خلال متابعتى لوقائع المؤتمر، أن يحدث لقاء بين ثلاثة مراكز حضارية عظمى لعبت الدور الأساسى فى تاريخ الإسلام، أعنى مصر والسعودية وإيران خاصة، وبين إيران والعالم العربى كله عامة. إن كل الإشارات التى تصدر عن إيران تجاه العالم العربى الآن إيجابية. ويبدو علاج المشكلات المعلقة ممكنا فى هذا التوجه الجديد للسياسة الإيرانية. إن لقاء تقارب هذه المراكز الثلاثة يمكن أن يلعب دوراً مهما فى مواجهة العنصرية الغربية الجديدة والتى تستند إلى تراث طويل من الفاشية والإبادة للخصوم والمخالفين فى العقيدة واللون.

من هنا كنت أتمنى أن أرى الرئيس محمد حسنى مبارك فى المؤتمر. لا أدعى العلم بالتوجهات التى تحكم السياسة المصرية، أو حساباتها، ولكننى أعرب عن أمنيات داخلية يحفزنى إلى البوح بها ما أراه من تحرش أمريكى بمصر، وبالعرب، والمسلمين، ومن انحياز أعمى إلى جانب إسرائيل.

أتمنى أن تتمكن إيران من إنتاج قنبلة نووية، لا يوجد بلد عربى أو إسلامى واحد لديه سلاح ردع حقيقى، وأمنيتى العظمى أن تتخلص البشرية كلها من أسلحة الردع، نووية كانت أو كيمياوية، لكن ماذا نفعل

ونحن نرى العنصرية القبيحة تطل ضدنا من الغرب الأمريكى وخطط الإبادة تنفذ بالفعل. اليوم العراق والسودان وليبيا. والبقية تأتى غداً. ألا يصبح الحلم بردع مقابل مشروعاً ومنطقيّاً؟

ولأننى من المشتغلين بالكلمة وأعدّها محور وجودى، فإننى أرى فى كلمات الدكتور خاتمى رسالة حضارية وإنسانية مضادة للتعصب والكراهية التى تطل ضد الشرق كله من الغرب العنصرى والاستعمارى، رسالة تتسق مع المضمون الإنسانى بعيد الجذور فى الشرق، ولذلك أتمنى أن يتحقق التقارب مع الطرح الإيرانى الجديد، هذا الطرح الذى أسهم بشكل غير مباشر فى محو بعض الآثار السلبية التى علقت بالإسلام والمسلمين نتيجة ما ارتكبه الحمقى المغرر بهم فى وادى الملوك.

عن رجال الأعمال

قال صاحبى الذى أحترمه كثيرا وهو يحاورنى :

«لماذا تهاجم رجال الأعمال؟» .

قلت : إننى أنتقد بعض رجال الأعمال وليس رجال الأعمال على أطلاقهم ، وبخاصة بعض الأسماء التى تمتلك المليارات من أنشطة مبهمة ، إضافة إلى قدوم أصحابها من المجهول واستيلائهم على أموال الشعب المصرى من خلال البنوك . إننا نقيم للرأسماليين الوطنيين وعلى رأسهم طلعت حرب نصبا فى وعينا . ولكن هؤلاء الرأسماليين الجدد خصوصا الكبار جدّا منهم ، يبدو أن جذورهم خارج الوطن . جذورهم فى أرصدة حساباتهم تماما مثل المماليك فى العصر العثمانى .

قال صاحبى :

«لقد ظلمت أحدهم وهو شفيق جبر ، نسبت إليه ما لم يقله قبل رحلة الرئيس مبارك إلى الولايات المتحدة . هذه التصريحات التى نسبتها إليه أدلى بها رجل أعمال آخر ينتمى إلى المجلس الاستشارى المصرى الأمريكى وليس الغرفة التجارية المصرية الأمريكية التى يرأسها شفيق جبر . . » .

ثم قدم إلىّ صاحبى تقريراً عن زيارة وفد الغرفة التجارية المصرية ـ

الأمريكية وما قامت به من اتصالات فى الولايات المتحدة، وقد استعرضت الكاتبة الكبيرة مها عبد الفتاح هذه الخطوات فى «الأخبار». قال صاحبى:

«ما ذكرته تردد بالفعل، ولكن لم يكن مصدره شفيق جبر».

قلت لصاحبى الذى أحترمه: إذن يكون من حقه أن أوضح ذلك. إننى لست ضده كشخص فأنا لا أعرفه، ولكننى ضد مضمون الكلام أيا كان مصدره. فى الوقت نفسه أنبه إلى خطورة الدور المتصاعد لرجال الأعمال فى المجال السياسى، وهذا أمر لمن يعرف تاريخ الرأسمالية طبيعى، يبدءون بجمع المال ثم النفوذ ثم يتطلعون إلى السلطة، وهناك دلائل عديدة تقول إن بعضهم بدأ بالفعل. والخطير فى سلوكهم الجديد أن هذا النفر يحاول الاستنناد إلى قوة عظمى تتحكم فى مصائر العالم: الولايات المتحدة الأمريكية. وهناك من يكتب مقالات ويلقى كلمات هى رسائل موجهة إلى مراكز صنع القرار فى الولايات المتحدة. وهناك بديهية؛ فالحديث يكتسب دلالات من المنبر الذى يقال فيه، ويزداد الأمر حساسية إذا كان المنبر أجنبيًا.

قلت لصاحبى:

ـ لقد قدمت لى تقرير زيارة وفد لغرفة المصرية ـ الأمريكية إلى الولايات المتحدة، وما يتضمنه إيجابى. لكن ما رأيك فى مقال كتبه السيد شفيق جبر فى أكتوبر الماضى، فى مجلة Business Monthly فى أكتوبر الماضى. يا صديقى إذا كان من حق شفيق جبر (وأنا لم أعرفه قط إلا فيما نسب إليه) أن نوضح للقارئ أنه ليس صاحب التصريحات التى أثارت ردود فعل سلبية جدًا فى القاهرة وعلى أعلى المستويات، فمن حق القارئ أيضًا أن نطلعه على ما كتبه بخصوص الصحافة.

قال صاحبى :

ـ لم أسمع بهذا المقال .

قدمت إليه النصين الإنجليزى والترجمة العربية له . يقول ما نصه :

«لقد حان الوقت بالتأكيد لكى تقوم الحكومة بتخليص نفسها من سيطرتها المالية على أغلب وسائل الإعلام المؤثرة فى بلادنا ، لأننى أعتقد أن الملكية الحكومية لا تقدم أى معروف سواء لوسائل الإعلام أو للبلد . إن الملكية الحكومية تدمر الاحترام للصحافة المصرية ليس فقط خارج هذا البلد ولكن فى داخله أيضًا . إنها تشوش الخط الفاصل بين التقرير الصحفى والتعليق التحريرى . إنها تخلق نوعًا من الصحافة يفشل دائمًا فى النظر بعين الاهتمام لمصالح قرائه ، منصتين ومشاهدين ، فى اختياره للمحتوى .

توقفت لأقول لصاحبى إن ما أقرؤه له نص ترجمة قامت بها جهة هى جزء من الدولة ، إحدى الجهات التى تحمى الوطن وتذود عنه ، وليس من ترجمتى .

قلت له : إن السيد جبر لا يكتفى فقط بنقد الصحافة بهذا الأسلوب فى مقال موجه إلى رأى مؤثر فى الولايات المتحدة ، لكنه أيضًا يتدخل فى الأدب والفن . يقول ما نصه :

«وعادة عندما يتم تغطية أخبار عالم البيزنس وخصوصا فى وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والتمثيليات والأفلام ، فإن القصص ـ وهى أبعد ما تكون عن الحقيقة الموضوعية ـ تنجح فى عكس عالم الأعمال البيزنس بصفته عالم الرأسماليين الأشرار ، أو كمهربين . أو يربحون المال بدون أن يضيفوا شيئًا ذا قيمة للاقتصاد . وهذا يحدث برغم أن رئيس الوزراء يقول إن القطاع الخاص يساهم الآن بـ ٦٠٪ من إجمالى الناتج القومى . . » .

قال صاحبى :

«هذا رأيه، ومثل هذا الكلام يقال أكثر منه فى مصر. . ».

قلت :

«فى مصر. . ولكن عندما يقال ذلك فى الولايات المتحدة فالأمر يختلف. إننى من أشد المدافعين عن حرية الرأى لما عانيناه طوال حياتنا من قهر، لكن عندما يقال هذا الرأى فى الولايات المتحدة وبالإنجليزية، فبماذا نسمى ذلك؟! طبعا لا يخفى أيضًا رغبة المليارديرات الجدد فى السيطرة على وسائل الإعلام لخدمة أموالهم، هذا تمهيد سافر لتغييرات سياسية يفكرون فيها. . ».

قال صاحبى :

«أنت تظلمهم، أنت متحامل عليهم بسبب تفكيرك الشمولى. . ومن كتب هذا المقال ليس له طموح سياسى. . ».

أما عن تفكيرى الشمولى، فلا أدرى معنى شمولى هذه التى تتردد بشكل فيه مغالطة سافرة. إذا كان الإخلاص لمبادئ العدالة الاجتماعية التى يهدرها المليارديرات الجدد والذين يتصرفون كأنهم يعيشون فى فراغ تام. . إذا كان الكاتب الحق يحرص على أن يكون صوت من لا صوت لهم، وتحركه الغيرة على وطنه وعلى زعيمه الذى يواجه بحرب شرسة من أجهزة الإعلام الصهيونية. . إذا كانت هذه المبادئ تعنى الشمولية فأنا شمولى. أما عن الطموح السياسى فأرجو أن تفسر لى خبرًا نشرته الأهرام الأسبوع الماضى يصرح فيه السيد جبر بالإعلان عن زيارة آل جور نائب الرئيس الأمريكى، هل جاء اليوم الذى يعلن فيه رجل أعمال عن زيارة ذات طابع

سياسى؟ إذن . . ماذا يفعل عمرو موسى وزير الخارجية؟! . . فليبحث عن عمل آخر!

قال صاحبى:

«أنا واثق بأنه لم يصرح بذلك . . » .

قلت لصاحبى:

«لم يصدر منه تكذيب . . وإلى أن يصدر أعتبر ذلك علامة خطيرة» .

عن الأزهر واستقلاليته

بعد انتهاء محاضرتى فى القاعة الرئيسية بالفندق الدمشقى الأنيق، بدأت استفسارات الحاضرين. كان المحور الدراسى الذى حدده المؤتمر العشرون لاتحاد الكتاب العرب يدور حول التطبيع ومقاومته. واخترت الإدلاء بشهادة عن الواقع الذى عشته وتفاصيل موقف المثقفين المصريين الإيجابى فى معظمه، وتجربة لجنة الدفاع عن الثقافة القومية والتى كانت الدكتورة لطيفة الزيات ـ رحمها الله ـ عنصراً فاعلاً ومؤثراً فى نشاطها، وصولا إلى الراحل الكبير سعد الدين وهبه الذى لم يكن يعبر عن نفسه، إنما كان يعبر عن خير وطن، خصوصا مثقفيه الأكثر وعيًا ونفاذًا إلى جوهر الفترة.

فوجئت بأن معظم أسئلة الحاضرين حول لقاء شيخ الأزهر بالحاخام الإسرائيلى لاو. ولأننى خارج مصر أكون حساسًا جدًا فيما يتعلق بما يجرى فى مصر، فإننى أكون حريصًا جدًا على ألا أمس ثوابتى وما أراه، وألا يستغل ما أقوله أيضًا بشكل سلبى. وبالنسبة للأزهر، فلى رأى خاص يتعلق بهذا الصرح العريق الذى يبدو أن بعض من يدير شئونه، لا يدرك قيمته. إضافة إلى أسبابى الخاصة، فليس الأزهر بالنسبة لى أعرق جامعة فى العالم، ومنارة هادية فقط، إنما هو كذلك أبرز صرح فى خلفية تكوينى وعناصر روحى، بل يمكن القول إننى طرح من ثماره وإن كان ذلك بشكل

غير مباشر، فلم أدرس فيه، ولكنى تعلمت القراءة وتفتحت لى أبواب المعرفة فوق رصيفه، واقتنيت ذخائر التراث من المكتبات المحيطة به. أما دروس الشيخ صالح الجعفرى فما تزال آثارها تسرى عندى، ولن أنسى أبدًا الشيخ المهيب، وقوة بيانه وغزارة علمه، وانبهارى بحضوره المهيب وهو يستند إلى أحد أعمدة الأزهر، ويلقى دروسه بعد العصر. مشهد مهيب يمت إلى تاريخ الأزهر العريق، المهيب، ذلك التاريخ الذى أورث الجدران والأعمدة والحجارة عتاقة مقدسة.

رحت أتحدث إلى جمهور المستمعين فى دمشق عن الرسالة العلمية للشيخ سيد طنطاوى التى صدرت طبعة جديدة منها الأسبوع السابق على سفرى إلى دمشق من دار الشروق. وبالطبع قلت إن صدور الرسالة المكرسة لدراسة بنى إسرائيل فى القرآن والسنة أمر له مغزاه، وإن ما يهم ماذا قيل فى اللقاء، وبلا شك فإن عدم موافقة شيخ الأزهر على إصدار بيان ثنائى بدين الإرهاب أمر إيجابى.

بعد انتهاء الاجتماع وانفرادى بنفسى كنت حزينًا ومكتئبًا، إذ تمنيت ألا يحدث هذا اللقاء. ذلك أن الأزهر نال من الضربات والإجراءات التى انهالت عليه بدءا من عشرينيات هذا القرن ما أضعف مكانته ودوره، بدءا من محاولة الملك فؤاد السيطرة عليه، وإخضاع الأزهر للسراى، أو ضمان تأييده، وصولاً إلى الأزمات السياسية التى أحات به والتى فصلها المستشار طارق البشرى فى كتابه الرائع «المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية». وفى الستينيات جرى ما سُمى بتطوير الأزهر، ولم يكن التوسع فى الكليات وتمييع الطابع الأزهرى للدراسة إلا تقليصا غير مباشر لدوره ونفوذه.

كان الأزهر مركزاً مهما للمسلمين وما زال، ولم يكن مجرد جامعة، إنما كان ثورة إشعاع روحى وثورى. الأزهر هو الذى من خلال مجاوريه وشيوخه أشعل الثورة ضد الظلم المملوكى والعثمانى، وضد الاحتلال الفرنسى ثم الإنجليزى، ومن خلال مكانته التاريخية اكتسب منزلة عند المسلمين فى جميع أنحاء العالم. وخلال زياراتى لجمهوريات آسيا الوسطى لاحظت أن الناس يعُدّونه مركزاً مقدساً، يتطلعون إليه كما يتطلعون إلى مقدسات المسلمين الثابتة فى مكة والمدينة والقدس، لذلك كنت أتمنى أن تمضى الأمور خاصة فى هذا القرن الذى يقترب من نهايته على غير ما مضت عليه بالنسبة للأزهر.

لا شك فى أن اللقاء الذى تم مع شيخ الأزهر سوف ينال من مكانة الأزهر، ولكن هذه المكانة ضعفت عبر عقود عديدة، كان الجوهر فيها تحويل الأزهر إلى مؤسسة حكومية تساند وتؤيد السياسات القائمة. ومن يرصد سوف يلاحظ أن عدداً من شيوخ الأزهر الكبار حرصوا على استقلاليته وهيبته، وكانوا يدركون أن شيخ الأزهر يجب أن يكون له مهابته رغم أن المؤسسة نفسها غير مستقلة، إذ كيف يمكن اعتبارها مستقلة والشيخ نفسه يأتى إلى موقعه بالتعيين، نتيجة قرار، والميزانية تأتى من الحكومة؟! لهذه الأسباب ضعف تأثير الأزهر فى الفتوى، والحضور القوى، مما أفسح المجال لقادة الجماعات وأمرائها وفتاويهم التى لا تصدر لوجه الله أو لمصلحة المسلمين إنما لتحقيق أغراضهم. لو أن الأزهر له استقلاليته ومهابته الأولى لكان الحصن الحصين ضد الإرهاب والجماعات المتاجرة بالإسلام.

لذلك نحن فى حاجة إلى حركة إصلاح بعيدة النظر للأزهر، تضع فى

حسبانها مكانة هذه المؤسسة الروحية العميقة التأثير فى العالم الإسلامى والتى تسعى جهات عديدة للنيل منها داخل مصر وخارجها .

أول خطوة فى اتجاه إصلاح الأزهر وتقوية دوره ، تحقيق استقلاليته ، أن يأتى الشيخ بالانتخاب كما كان الوضع فى الماضى ، وأن تقوم بالانتخاب هيئة كبار العلماء . والخطوة الثانية أن يتم الإنفاق على الأزهر من الأوقاف الخاصة به ، ثم يتبع ذلك خطوات أخرى لعلى أفصلها الأسبوع القادم .

تساؤلات لا تهدأ

عبثًا يحاول الإنسان الفكاك أو نسيان ما جرى فى ساحة الدير البحرى. فى بلادنا يقول قومى إن أجل المصائب - الموت - يسبب حزنًا كبيرًا سرعان ما يخبو مع الوقت، كل الأشياء تولد صغيرة وتكبر، عدا الحزن على الفقد فإنه يولد كبيرًا ويضمر مع مضى الوقت.

مصيبة الأقصر عكس المنطق السائد، إذ إنها تكبر مع مرور الأيام بالنسبة لى، وبالنسبة لكل مرتبط بهذا الوطن، يسعى فوق ثراه، ويومًا سيصبح من ذراته. أقوم على تفاصيلها، وأعيش نهارى متأملاً فى آثارها، وأنام تحت وطأة كوابيسها، خاصة وأن الأسابيع تمضى ولا ألمح فى أفق حياتنا السياسية والاجتماعية ما ينبئ بأى جهد حقيقى لعلاج الأسباب الكامنة التى أدت إلى وقوع الكارثة، بل إن الأمر كله اختصر فى الجانب الأمنى فقط، ومحاولة استعادة السياح، وينسى الجميع أن ثمة من يخطط الآن فى جبال بيشاور ومغارات أفغانستان وحقول القصب فى جنوبى مصر، وأن ألوفا من الشباب يسعون الآن بلا عمل فى مدن مصر وقراها. والأخطر من انعدام فرص العمل انسداد أبواب الأمل، وهؤلاء احتياطى جاهز لعصابات الإرهاب التى ستجد فيهم جنودًا مجندة، يمكن أن تدفع بهم فى اللحظة المناسبة لتفجير الخراب والدمار.

أعود إلى الصحف، إلى تأمل الإرهابيين القتلى، صورهم عندما كانوا أحياء. وصورهم بعد الانتحار الجماعى الذى قاموا به، وهذا ما تؤكده الشـواهد، وهذا أمـر جـديد على العنف السـيـاسى فى مـصـر، وعلى الشخصية المصرية.

أتأمل وجوههم وملامحهم، أعمارهم التى تتجاوز العشرين بعام أو عامين، أى أنهم جميعًا فى مقتبل العمر، حيث يصبح الإنسان محملاً بالآمال والأحلام والأمانى، فكيف وصلوا إلى هذه اللحظة من الدموية والوحشية فى تمزيق جثث القتلى بما فيهم الأطفال؟ كيف وصلوا إلى هذه اللحظة التى رأوا فيها باطن الأرض، خيرا من ظاهرها؟ أى مشاعر بغيضة؟ أى درجة من اليأس ومعاداة الواقع القائم ملأت كلاً منهم؟ كيف ومتى تم ذلك؟

حسنًا.. فلأردد مثل الآخرين ألفاظ الإدانة. إنهم خونة، قتلة، مأجورون، إرهابيون، خلوا من كل حس إنسانى. إنهم مخترقون من الموساد والمخابرات المركزية، وهم عملاء مأجورون، وحقراء، سفلة. لنبحث فى القاموس عن ألفاظ لم تستخدم لنصف وحشيتهم وقسوتهم وتخطيهم كل ما هو إنسانى، لكن.. لنسأل أنفسنا بصراحة موجعة: هل وُلدوا هكذا؟ هل جاءوا إلى العالم بهذه الصفات؟ أم أن ظروفًا دفعت بهم إلى هذا التكوين المرعب، المدمر؟

بالتأكيد الإجابة عن السؤال الأخير تقتضى وقفة. فى المجتمع ظروف أدت إلى هذا الإفراز الضار، إلى تلك النبتة السامة، إلى وصول هؤلاء الشباب فى هذه السن الغضة إلى تلك الضراوة وتلك الوحشية.

إذن ثمة خلل فى المجتمع نفسه، فى الواقع السياسى والاجتماعى والنفسى السائد، أدى إلى وصول هؤلاء الشباب إلى تلك اللحظات المروعة، ليس ما جرى فى ساحة الدير البحرى إلا نتيجة يتحمل مسئوليتها الجميع. المجتمع كله، والنظام السياسى القائم الذى تجمد وشاخت ملامحه وأوصاله وثبتت ملامحه على وجوه بعينها ما تزال تطالعنا سواء من مقاعد الوزارة أو تحت قبة البرلمان أو تحت قبة مجلس الشورى، ومن خلال شاشات التليفزيون.

تيبس لا يزداد مع الوقت إلا تحجرًا، ولا يسهم ذلك إلا فى سد أبواب الأمل أمام الشباب. يمكن القول إن فرصة انتقال القيادة ضاعت على جيلين إن لم يكن أكثر.

لكن.. هل التيبس السياسى هو السبب؟

لا، بالتأكيد ليس سببًا وحيدًا دفع بهؤلاء الشباب إلى تلك اللحظات الأشد مأساوية فى تاريخ مصر الحديث.

هنا أعود إلى طرح التساؤلات المضنية من جديد.

أى تكوين فكرى ملأ رءوس وأرواح هؤلاء الشباب؟

يبدأ المنشور الذى تركوه فى موقع الحادث بعبارة: «لبيك مصطفى حمزة..» من هو مصطفى حمزة هذا؟ أين يقيم؟ ما قوة منطقه وحجته؟ هل بلغ من قوة الشخصية أنه استلب هؤلاء الشباب تماما؟ كيف؟ ومتى؟ أى وسائل استخدمها؟ أى أساليب للتأثير؟. بل.. ما ملامح مصطفى حمزة هذا الذى ألغى فى عقول هؤلاء الشباب ملامح العشرات من رموز الوطن العتيدة فى الفكر والأدب والثقافة والفن والعلم والسياسة، ليحل هو ويهيمن عليهم ويشكل منهم كتائب الخرائب والدمار؟

كيف تـرك المجتمـع أمثال هؤلاء الشباب ينفلتون، ينشزون، ينمون في الظلام؟

الأسئلة لا تنتهي، والإدانة تطول الجـميع، ومـا أراه بعـد مـضي عـدة أسابيع لا يوحي بأي علاج جذري. ليس مـهمّاً تلافي آثار ما حدث، الأهم عـلاج الأسـبـاب التي أدت إلى مـا حـدث، وإلى مـا يدبرون لـه الآن في الخفاء، وقى الله الكنانة الشرور من أي جهة كانت!

الإبـــــادة

لا أشك لحظة واحدة فى أن عقلية الإبادة هى الخلفية الحقيقية التى تتحرك عليها السياسة الأمريكية تجاه الشرق العربى الآن ثم مغربه فيما بعد . مع ملاحظة أن أولى الخطوات متخذة بالفعل منذ فترة ضد ليبيا .

فى أفلام رعاة البقر التى اعتدنا رؤيتها منذ صبانا المبكر ، كنا نرى «الشجيع» الأمريكى يركب الحصان ويطارد الهندى الأحمر المتخلف شبه العارى ، الذى يحيط رأسه بالريش ، ويصبغ وجهه بالألوان ، ويمسك رمحًا أو قوسًا بدائيًا فى مواجهة «الشجيع» المتحضر الأبيض الذى يمارس الحب مع إحدى الجميلات أو يتنافس عليها فى ذروة مواجهته للهمج المتخلفين من أصحاب الأرض الأصليين الذين فوجئوا بحملات الإبادة الحقيقية التى حولتهم مع مرور السنين إلى بقايا محاصرة الآن فى أماكن محددة بعَدِّهم نوعًا منقرضًا من الحيوانات الآدمية التى يحرص البيض على إبقائها كمادة متحفية حية .

الإبادة ، أساس مهم فى التوجه الأمريكى والسياسة الأمريكية ضد شعوب العالم خصوصا العالم القديم ، سواء كان آسيويا (فيتنام) أو عربيا (ما يجرى فى الخليج الآن) . وقد تابعنا خلال الستينيات والسبعينيات الغارات الوحشية الفتاكة ضد الشعب الفيتنامى ، غارات ضد الحياة نفسها ، بأحط الأساليب وأقذرها ، غير أن الشعب الفيتنامى صمد وتحمل وألحق

الخسائر الجسيمة بالقوات المسلحة الأمريكية المدججة بأحدث الأسلحة، بالشجيع الأمريكى المتطور، نسخة الستينيات والسبعينيات من السيد الأبيض قاهر الهنود الحمر، وعندما بدأت نعوش القتلى الأمريكيين تصل إلى الولايات المتحدة ثار الرأى العام وتشكلت جماعات الضغط، ولكن الهزيمة لحقت بالشجيع الأمريكى على أرض الواقع، واقتحمت قوات الفيت كونج سايجون، وما زال مشهد الهروب الأمريكى الكبير من القصر الرئاسى يمثل أحد أبرز ملامح القرن العشرين.

هل ارتدع الشجيع الأبيض؟

لا بالطبع، لأن فكر الإبادة جزء من تكوينه وسلوكه. هكذا اتجه إلى العالم العربى، حيث يوجد الكيان الصهيونى الذى تدعمه الولايات المتحدة بكل قوة. وكما يبدو فإن رهانها المطلق عليه قد تجسد الآن. إنه يذكر صانعى السياسة الأمريكية بتراثهم فى الإبادة. ثمة تماثل فى النشأة، إذ يقوم الكيان الصهيونى أيضًا على فكرة إبادة الشعب الفلسطينى وإخفاء هويته وملامحه وثقافته، هذه الفكرة التى أصبحت واقعًا فعليًا وما تزال الإبادة تنفذ فى فلسطين وما تبقى منها.

إن تأمين هذا الكيان الصهيونى ودعمه فى الواقع يقتضى إضعاف ما حوله، الأمة العربية، وهذه الأمة برغم كل سلبياتها الآن، ومظاهر ضعفها، فإنها تحتوى على عناصر قوة كامنة، روحية ومادية، رغم كل شىء فإنها أمة ليست سهلة، والمركز منها مصر بموقعها وثقافتها وحضارتها العريقة وتأثيرها.

من هنا اتجه فكر الإبادة إلى الأمة العربية، والهدف الرئيسى لهذا الفكر هومصر، إن لم يكن اليوم فغدًا. وجد الشجيع الأمريكى أوضاعًا تساعده على تنفيذ مخططاته: دول عربية تشبه المرحلة التى سادت فيها دويلات

ملوك الطوائف فى الأندلس والتى كانت مقدمة لضياع الأندلس، ثمة تشابه مخيف إذا ما قارنا أوضاع العرب الداخلية فى المرحلتين، فى الحقبتين التاريخيتين.

أسباب ضعف الأمة العربية الآن عديدة، متشابكة، منها التمزق والتشرذم، وآثار الثروة النفطية المفاجئة السلبية، وتمكن الشجيع الأمريكى من مقدرات بعض الأقطار، وسوء الأنظمة العربية القامعة لشعوبها، يكفى أن نتذكر مرحلة عشناها فى عام ستة وخمسين، عندما أمم جمال عبد الناصر قناة السويس وبدأت ردود الفعل الغربية الممهدة للعدوان الثلاثى، لقد خرجت المظاهرات فى جميع الأقطار العربية تؤيد مصر، وكان بعض هذه الأقطار واقعًا تحت الاحتلال البريطانى مباشرة وقتئذ.

إن بلدًا عربيًا مهما يضيع أمام أعيننا الآن بعد أن ضاعت فلسطين (من يذكرها الآن؟) ولم نر مظاهرة واحدة مهيبة تهز الشارع العربى. لقد نسى الناس عادة التظاهر أو الاحتجاج فى ظل سنوات طويلة من القمع، وبعد سنوات طويلة من المنع أصبح أى نظام عربى يرتعد خوفًا وغضبًا من مجرد ترديد كلمة مسيرة أو مظاهرة.

باستثناء صيحات داخل الجامع الأزهر، ومشروع مظاهرة لم يكتمل فى عمان عاملته الشرطة الأردنية بقسوة رهيبة تتفوق على قسوة الجنود الإسرائيليين فى مواجهة المتظاهرين الفلسطينيين فى رام الله. باستثناء ذلك، فالعالم العربى كله خانع، والأمة ذات الرسالة الخالدة (!) فى أسوإ حالاتها. بينما الشجيع الأمريكى يخطط لإبادة قسم منها، وفى سبيل ذلك ينفخ فى الجزء الذى يستهدفه من الأمة، أعنى العراق، ويملأ الدنيا ضجيجًا عن خطره المزعوم تمهيدًا للذبح. وله فى ذلك أساليب شتى نتوقف عندها الأسبوع القادم إذا لم تقع الكارثة!

تغيير القانون ضرورة

فى عام تسعة وثمانين، ذات صباح حار قصدت محكمة جنح بولاق القريبة من دار أخبار اليوم، وقد عشت عمرى كله أتجنب المنازعات القضائية واللجوء إلى أقسام الشرطة، لكن عندما تحولت مناقشة حادة حول حرب الاستنزاف إلى قضايا متبادلة، وتسلمت إعلان المحضر، مضيت فى الموعد المحدد. فى القاعة المتواضعة التى لا تشبه أبدا قاعات المحاكم الفخمة فى السينما المصرية جلست، وجاء أصدقائى المحامون الذين تطوعوا للدفاع عنى، كانت المرة الأولى التى أمثل فيها كمتهم، المحكمة خاصة بالجنح، أى أنها تنظر قضايا السب، والقذف، والإيذاء البدنى، والمشاجرات، وكل ما يحفل به قاع المجتمع من مشكلات هابطة، وأيضا.. القضايا الخاصة بالصحافة والرأى!

لم أكن مزودًا بخبرة، ولم يتخيل صحبى من المحامين أننى أفتقر إلى معرفة البديهيات، ومنها أننى يجب أن ألزم الصمت، طالما أننى وكلت محاميًا للدفاع عنى. لم أكن أعرف، لذلك عندما صاح الحاجب مناديا اسمى وقفت على الفور، وهنا أمر القاضى بإيداعى فى قفص الاتهام. هكذا وجدت نفسى بجوار نشال يخفى شفرة حلاقة فى فمه، حرص على أن يأتى بحركة يستعرضه فيها. أما المرأة قوية البنية مكحولة العينين فكان منظر الأسنان الذهبية مثيرًا للخوف أكثر مما هو مثير للجمال، وطريقة مضغ

اللبان الذكر توحى بالاستهتار والبؤس أيضًا. وكان آخر يجلس القرفصاء ويخط بأصبعه على الأرض.

بين هؤلاء المجرمين الصغار كان لا بد أن أقف حتى يحين نظر القضية المتعلقة بخلاف فى الرأى حول حرب الاستنزاف وموقعها فى تاريخنا الوطنى الحديث. قال صاحبى المحامى والغيظ فى عينيه ولهجته: لماذا أجبت عندما نادوا اسمك؟

قلت: الحاجب صاح باسمى وكان لا بد أن أجيب.

قال: أمال أنا باعمل إيه؟

المهم.. أمضيت ما تبقى حتى موعد نظر القضية فى القفص، متأملاً وضعى وأحوالى، وما جرى وما يجرى، وبين هؤلاء يقضى الزملاء الثلاثة مدة عقوبتهم الآن. صحيح أن النقابة تدخلت، وبذل النقيب مكرم محمد أحمد جهدا فى زيارة هذا والتوسط عند ذاك لتحسين ظروف الحبس، وتمت الاستجابة بدرجة ما، ولكن فى أى لحظة يمكن لجمال فهمى ومجدى حسنين ومحمد هلال، ومن ينتظر الآن من الصحفيين أن يجدوا أنفسهم فى السجن العادى المخصص لمن صدرت ضدهم أحكام فى قضايا السب والجنح. ومثل هذه العقوبة يمكن أن تجهز على أى إنسان نفسيا وبدنيًا خاصة مع وجود جميع أشكال التحرش النفسى والبدنى.

هل السجن مع صغار المجرمين، ونفايات المجتمع هو المكان الأمثل، المناسب للعقوبة التى يمكن أن تلحق بالصحفى؟

لا أظن، بل.. بالقطع لا. إن الإيذاء البدنى عقوبة منحدرة من القرون الوسطى، وتلك مرفوضة الآن بالنسبة للقتلة ومن ارتكبوا جرائم الاغتصاب، فما البال بالصحفيين وحملة الأقلام؟

هل سمعنا عن صحفى إنجليزى سجن؟

هل قرأنا عن صحفى فرنسى دخل السجن بسبب مقال أو رأى؟

لا بالتأكيد. لست خبيرًا قانونيًا، ولا أدعى أننى ملم بجميع المواد الخاصة بقانون العقوبات المتعلق بالنشر، ولكن ما طالعته من مواد قاس جدًا. والعجيب الغريب أن بعض الأصوات تنادى بسن قوانين جديدة لتكميم حرية الصحافة والصحفيين والحد منها، أو لإنزال العقوبة بالبعض، حتى يخاف الآخرون عملاً بالمثل المصرى القديم «اضرب المربوط يخاف السايب»، والآن يوجد ثلاثة «مربوطون»، وباعتبارى من «السايبين» ما زلت فأحمد الله أن الخوف لم يتسرب إلى القلب بعد، وأن لدىّ من صفاء الفكر رغم الهموم الثقال ورياح الخماسين النشطة هذا العام، وكأن الطبيعة تواكب الواقع الساخن، أقول إن ما يجب أن تتجه إليه جهود النقابة هو تغيير قانون العقوبات، بحيث لا يؤدى إلى إلحاق الأذى البدنى بالصحفى أو الكاتب.

ربما يقول البعض هنا: وماذا عن التجاوز وعن الابتزاز الذى مارسه الدخلاء والصحف الساقطة؟

هنا أضطر إلى ضرب المثل بالغرب. فى إنجلترا بالتحديد يتمتع الصحفيون بحرية واسعة، خاصة فيما يتعلق بالنقد الموجه إلى الشخصيات العامة أيا كان موقعها، ولكن إذا أصدرت محكمة إنجليزية حكمًا ضد صحفى فإنه يكون غالبًا متمثلاً فى غرامة مالية كبرى قد يصل حجم الإيذاء المترتب عليها إلى إغلاق الجريدة ذاتها. إن العقوبة المالية الضخمة يمكن أن تكون رادعًا كافيًا، أما الإيذاء البدنى بواسطة الحبس وتقييد الحرية، فهذا ما يجب أن نتخلص منه إذا كنا جادين حقًا فى دخول القرن الواحد والعشرين بعد عشرين شهرًا فقط. لتبدأ النقابة جهدها فى هذا الاتجاه، وليس فى اتجاه

الوساطة والسعى لتحسين ظروف السجن والعقاب. إن ستة شهور مدة طويلة جدًا فى السجن، والسجن فى حد ذاته عقوبة جهنمية، فما البال إذا كان السجن من أبشع السجون؟!

لنبحث نحن الصحفيين عمن يتبنى هذه القضية من أعضاء مجلس الشعب، ومن أساتذة القانون، ولتكن قضية مصيرية، تعديل قانون العقوبات ومواده القاسية، بحيث يستبعد منها كل ما له صلة بالإيذاء البدنى، وبالجهد المخلص يكون فى ميثاق شرف حقيقى وفعال، وعقوبات مالية كبرى، رادعًا لكل من يتجاوز ويستخدم الرأى أو القلم فى إيذاء الآخرين ولنا فى الدول عريقة الديمقراطية أسوة وقدوة.

تلك المفارقة

سيظل بيت الشعر الشهير للمتنبى بمثابة قانون لكل العصور مهمَا اختلفت الأيام، أو تنقل الزمن بالناس من شهر إلى شهر ومن عام إلى عام ومن قرن إلى قرن، حقًا.

وكم ذا بمصر من المضحكات

لكنه ضحك كالبكا

لنتأمل فيما يجرى الآن، ثمة تحول واسع يجرى فى اتجاه ما يسمى بالاقتصاد الحر، أو الخصخصة بتعبير صندوق النقد الدولى. الشركات التى تعدّ ملكية عامة للشعب تباع.

لا نعرف من يبيع، ولا نعرف حتى من يشترى؟ وإذا كان ثمة مشتر فلا نعرف اسمه. لقد اخترعت الحكومة هذا التعبير الغريب «المستثمر الرئيسى». من هو «المستثمر الرئيسى هذا؟»، أهو شخص بعينه؟ أهو شخص معنوى؟ أهو وصف أو نعت؟

الشعور القوى عندى أن كل شىء معروض للبيع بعد أن طال الأمر قناة السويس، والصروح الكبرى، مجمع الألمونيوم فى نجع حمادى تم تقييمه كله بثلاث مليارات جنيه، وهذا ثمن جد بخس. هذا مشروع أتيح لى أن أتابعه منذ نشأته ومتابعة مراحل تطوره. بكل المقاييس يعد مفخرة للإدارة

المصرية، كما أنه غير وجه الحياة فى نجع حمادى، وأتاح ما يقرب من عشرين ألف فرصة عمل، وهو مشروع ناجح، لماذا يُباع؟ ولكن. . هل الألمونيوم أغلى من قناة السويس الرمز؟

منذ أيام رأيت الدكتور عاطف عبيد يتحدث إلى الصديق الدكتور عبد المنعم سعيد فى التليفزيون، عن نجاح الخصخصة، وبراعة الخصخصة، والأرباح التى تحققت بعد الخصخصة، وكان كلاهما يتبادلان الإطراء ويشيدان بالخصخصة.

جميل. . ونحن معهما سنشيد أيضًا بالخصخصة بحسبانها وصفة سحرية ستنقذ الاقتصاد وتجعل مصر من النمور التى طال الحديث عنها ثم اكتشفنا أخيرًا بعد انهيار إندونيسيا أنها من ورق.

إن الخصخصة تعنى الاقتصاد الحر، البعيد عن سيطرة الدولة، والشمولية وآخر هذه الأوصاف التى أصبحت لها دلالة سلبية، ولكن هذا الاقتصاد يتطلب تطورًا موازيًا حتى يكتمل للمناخ أركانه، يقتضى حرية التعبير، حرية إضراب العمال، حرية القول، ولكن فى مصر تقوم الحكومة بإيجاد نظام جديد لا نعرف له توصيفًا، ملخصه، حرية فى الاقتصاد، وقهر للحريات وتقييد. كل شىء يباع، يباع لكل من هب ودب، لكن إذا تعلق الأمر بالصحافة، فالقوانين الرادعة موجودة، لا يكتفون بالمستحدث منها، ولكن المواد التى طال تجميدها تدب فيها الحيوية فجأة. ولأول مرة منذ سنوات طويلة ينتظم طابور طويل من الصحفيين فى انتظار أحكام بالسجن، وإذا لم يكن هناك حكم، يمكن تدبير علقة ساخنة على طريق صلاح سالم ليلاً، أو فى أى مكان آخر، بعدها يعتدل القلم ويتعلم صاحبه الدرس فيصبح حكوميًا أكثر من الحكوميين أنفسهم حتى لو كان معارضًا بالاسم!

هذا هو جوهر التناقض الموجود فى مصر الآن. حرية اقتصادية وفى نفس الوقت تضييق على الحريات، وإغلاق الصحف الجريئة. والغريب أن الصحف الصفراء فعلا ما تزال تصدر وبنفس المضامين المثيرة، أفضل ما كان يصدر هو الذى طاله الغلق والمصادرة، أعنى الدستور، وامتد الأمر إلى حوالى سبع وثلاثين صحيفة ومجلة فى المنطقة الحرة (لا أدرى كيف تتم المصادرة وسحب التراخيص من منطقة تسمى حرة، كيف تكون حرة إذن؟ وأى مستثمر سيأتى إليها بأمواله بعد مصادرة الصحف ومعظمها عادى متخصص فى شئون ثقافية ورياضية ورشاقة وطبيخ، وما شابه).

كيف نفهم هذا الأمر؟ حرية فى الاقتصاد، وتضييق على الصحافة؟

لا يكون الأمر هكذا إلا فى حالة وجود ما يحرص البعض على إبقائه بعيداً عن الأضواء، ولكن ليس بعيدا عن كل ذى فهم.. هنا نصل إلى الخطوط الحمراء، فلا نملك إلا الترديد الحزين لما أنشده المتنبى قبل ألف عام وبضع سنين..

اللغة.. والحكومة!

توصلت الحكومة إلى استخدامات جديدة للغة لم تخطر ببال علمائها على مر القرون والعصور، بدءاً من سيبويه إلى شوقى ضيف وأحمد مختار عمر فى العصور الحديثة مروراً بأبى الأسود الدّؤلى، والزمخشرى والتوحيدى والهمذانى وابن منظور صاحب لسان العرب، والفيروز أبادى صاحب القاموس المحيط، والزبيدى صاحب تاج العروس.

هذا الاستخدام العبقرى الذى توصل إليه الجهابذة فى السبعينيات يقوم على إيجاد مسافة بين اللفظ والمضمون، أو التمويه على المضمون بشنكلة اللفظ المستخدم، أو اللعب ببعض الألفاظ لتعديل أوضاع معينة.

وهؤلاء العباقرة ليسوا من أساتذة دار العلوم، ولا من خريجى كلية اللغة العربية بالأزهر، ولا من الأدباء، إنما هم المبررون الكبار لشتى الأوضاع، فى البرلمان، فى دهاليز المصالح الحكومية، فى أروقة الحزب الحاكم الذى هو مجرد تجمع لأصحاب المصالح. وأضرب مثلاً بما أشير إليه:

عندما قررت الحكومة فى السبعينيات رفع الأسعار، قال المسئولون فى بياناتهم الرسمية إن الحكومة بصدد «تحريك الأسعار» وليس رفعها أو زيادتها. ومثل هذا السلوك فى التمويه القصدى لا يقوم عليه إلا من يرتكب وزراً، أو بلغتنا الدارجة «عامل عملة»، ومثل هذا يحاول سلوك

دروب مختلفة للتمويه على الآخرين. هكذا لجأ المسئولون إلى استخدام كلمة «تحريك» بدلا من «زيادة» لأن كلمة تحريك تعنى الزيادة أو النقصان، أى أنها تمسك بطرفى المعادلة، بالنقيضين فى الحالة المطروحة. أما كلمة «زيادة» فتعنى شيئًا واحدًا، حركة محددة. هكذا سمعنا كلمة التحريك. وبرغم ذلك لم «ينطل» الأمر على الناس الذين خرجوا فى واحدة من أقوى الهبات المفاجئة التى عرفتها مصر فى القرن الموشك على الغروب، والتى تحول وصفها أيضًا من (حركة) أو (مظاهرات) أو (انتفاضات) إلى انتفاضة حرامية.

نموذج آخر لكيفية تطويع اللغة إلى وسيلة لتغيير وضع قائم، أو لتبديل مفهوم معين. كان الدستور المصرى ينص على أنه لا يجوز انتخاب رئيس الجمهورية إلا فترتين فقط متعاقبتين، مدة كل منهما ست سنوات. كان النص يتضمن كلمة «مدة» وهنا جاء المشرع العبقرى الجاهز دائمًا فى البرلمان وأبدل حرفًا واحدًا، حرف واحد فقط جرى تغييره فى السبعينيات أدى إلى وضع مغاير تمامًا. كلمة (مدة) أصبحت (مدد)، وبالتالى أصبح الزمن مطلقًا، غير محدد، ولو شئنا ترجمة أدق للكلمة لقلنا (مدى الحياة)، وهذا فى رأيى أفضل من القول بلفظ مغاير، أو لا يعبر بدقة فى الظاهر عما يعنيه المشرع فى الباطن.

مرة أخرى تطالعنا قدرة الحكومة على استخدام اللغة هذا الاستخدام الغريب، الفريد، عندما سمعنا فى التسعينيات مصطلح (الخصخصة) وفى بعض بلدان شمالى إفريقيا العربية، سمعته بشكل آخر (الخوصصة) للتعبير عن نفس الهدف أو المضمون، وهو تحويل الملكية العامة إلى الخاصة، أو بمعنى أدق أو أوضح بيع القطاع العام المملوك للشعب، أو للدولة إلى أفراد. ويبدو الأمر هنا وهناك كما لو كان هناك مخطط أعظم لنفس

السياسة، ربما كان البنك الدولى، أو صندوق النقد الدولى، أو العولمة كما تفهمها وتعمل على تطبيقها الولايات المتحدة. المهم. . أن حكومتنا العبقرية خرجت علينا بهذا المصطلح الذى بدا لى غامضا فى البداية، أعنى الخوصصة أو الخصخصة، والذى يستدعى إلى ذهنى (الخضخضة) من (الخضة) وإن كان المعنى بعيدًا، وربما كان قريبًا والله أعلم!

غير أن جعبة الحكومة لا تنفد ولا تفرغ، لقد أصبح مصطلح الخوصصة ساريًا، وبعد تطبيقه عمليًا ظهر مصطلح آخر ليخفى أمرًا جرى الإعلان عنه مع بداية عمليات بيع شركات القطاع العام. لقد قيل فى البداية إن البيع سيتم أولا للعاملين، والنسبة الكبرى ستكون لهم، ولكن مع التطبيق العملى، ومع بيع ما هو ثمين بالثمن البخس، ظهرت أمور تتعلق بخبايا البيع والشراء، وفوجئنا بمصطلح جديد، هو (المستثمر الرئيسى).

هذا المصطلح لا يشير إلى شخص بعينه، أو جهة محددة، إنما هو تعبير مجازى، وبالتالى يموه على الشخص الذى تقدم لشراء شركة أو مصنع، أو نسبة أكبر من أسهم هذه المنشآت الناجحة، الرابحة، والتى لا أفهم مبررًا لبيعها أو التخلص منها، ورأس المال الخاص بالطبع لا يقبل على شراء ما يخسر.

يعنى مصطلح (المستثمر الرئيسى) إخفاء شخصية المشترى، أى انتفاء الشفافية فى عملية الخوصصة، وهذا خطير. صحيح أن (المستثمر الرئيسى) الذى بيعت إليه شركة إيديال الناجحة اتضح أنه رأسمالى مصرى وطنى لديه مصانع على أرض مصر، ويعمل فى صناعة ناجحة، لكن من يضمن فى المرات القديمة ألا يكون (المستثمر الرئيسى) من أولاد العم؟

وإذا ظهر كذلك، فكيف ستسميه حكومتنا فى فهمها الغريب، الفريد لاستخدامات اللغة التى نتكلم ونتعامل بها؟

مأسـاة .. مأسـاة

قال محدثى ـ وهو من كبار المثقفين فى الأقصر ـ إن ما جرى فى البر الغربى كان فظيعًا، محزنًا، وإن الشعور بالقهر والكراهية ضد القمع الذى قامت به الشرطة ضد الأهالى ما زال مخيمًا، وإن أجهزة الإعلام لم تنقل الصورة بدقة. إنها كارثة بكل المقاييس. قال بحزن: إن ما جرى يذكره بأحداث دنشواى، لكن فى المرة الأولى كان الرصاص الذى أطلق على صدور الأهالى العزل إنجليزيًا، وكان منطقيًا أن يقدم المحتل على اغتيال الفلاحين العزل، وأن ينصب لهم المشانق، ولكن ليس من المنطقى أبدًا أن تنطلق رصاصات مصرية من أيد مصرية ضد مصريين لتضرب فى المليان بدون أى مقدمات، لا تحذير، لا غازات مسيلة للدموع، لا طلقات فى الهواء، إنما خرجت الرصاصات إلى صدور الأهالى العزل الفقراء، الذين خرجوا فى رمضان وهم صائمون ليتصدوا للبلدوزرات والقوة المسلحة التى هاجمتهم لتزيل البيوت بالقوة.

أصغيت إلى محدثى. سعيت إلى الاتصال ومقابلة عدد من الأصدقاء الأقصرين الذين أمضوا حياتهم فى البر الغربى، عاشوا فيه أبًا عن جد، وشارك بعضهم هذه الشرطة نفسها فى مطاردة الإرهابيين الذين أقدموا على تنفيذ مذبحة الأقصر ضد السياح الأجانب فى ساحة الدير البحرى.

أى مأساة؟

إن ما جرى خطير، ويتجاوز أى قصور أو مخيلة مهما شطت، الحق أننى صدمت، ليس لأنى صعيدى صميم، وليس لأنى أغضب لكل ما يلحق أهلى الفقراء، البسطاء، الشجعان، فى الجنوب، ولكن لأن هذا يحدث بعد سنوات طويلة من الاستقلال الوطنى، ومع ذلك فإن جوهر النظرة إلى الصعيد لم يتغير منذ العصر المملوكى حتى الآن عند البعض. كنا نشكو من الإهمال الذى لحق بمحافظات الجنوب، حتى أصبح الفقر علامة والبطالة مقيمة، وتخلف المرافق. والآن نشكو ونصرخ من وطأة القهر بعد أن خرجت الرصاصات لتضرب فى الصدور العزلاء التى لم يكن لدى أصحابها إلا حجارة الجبل.

فى طفولتى بجهينة الغربية، كان الهجانة ينزلون فجأة علينا، تبرك جمالهم فى ساحات القرية، ويطاردون الأطفال والنساء بالكرابيج، يمنعون التجول ويفرضون إتاوة على كل بيت، مقدارا معينا من الطعام، ويتعهد العمدة بإطعامهم طوال مدة إقامتهم. رأيت هذا بأم عينى فى العصر الملكى.

وفى السبعينيات، فى وزارة النبوى إسماعيل، رأيت عربات الأمن المركزى وقواته تحاصر قرى الصعيد، وتسعى إلى القبض على البعض، أو تفرض قائمة سلاح على كل ناحية مطلوب تسليمها، وإذا لم يجدوا السلاح كانوا يعتقلون الرجل، وإذا لم يجدوا الرجل كانوا يعتقلون النساء، وهذا ما يشق على الإنسان عامة، خاصة فى الصعيد، حيث التقاليد العريقة، والأصالة بكل معنى الكلمة، والشجاعة، والرجولة، والدماثة والتحضر. نعم.. ليس من باب الانحياز لأهلى، ولكننى لم أعرف فى الدنيا كلها من يماثل طيبة ودماثة وتحضر الصعايدة البسطاء، الأصلاء. الواحد منهم يمكن أن تأسره الكلمة الطيبة، ولكن بعض ضباط الشرطة

القادمين من العاصمة فرحين، مختالين، مرتدين جميع تقاليد السلطة التى كانت تتعامل مع الأهالى من منطلق القمع، هؤلاء بقلة خبرتهم، وجهلهم بطبيعة الناس وعاداتهم يتسببون فى مآس لا حصر لها، وآخرها مجزرة البر الغربى الثانية.

لماذا لم تلجأ قيادات الشرطة إلى الشخصيات المؤثرة فى المنطقة لتنفيذ القرارات الإدارية بالإزالة؟ وما الضرورة العاجلة، الملحة التى دفعت الشرطة إلى الهجوم برفقة البلدوزرات، والضرب فى المليان؟ إن هدم المنازل بالبلدوزرات لا يتم إلا فى الضفة الغربية الفلسطينية المحتلة، وليس البر الغربى للأقصر. من أمر بتحريك هذه المعدات لهدم البيوت على رءوس أصحابها وساكنيها الفقراء؟ لماذا لم يتم الأمر بالتفاهم من خلال الأجهزة الشعبية؟ وماذا عما يتردد عن وجود خلاف بين رئيس المدينة الجديد والشرطة وبعض القيادات المحلية؟ هل يصل الأمر إلى حد إراقة الدماء البريئة؟

نريد بيانًا مفصلا عن الحادث من وزارة الداخلية، يحدد المسئولية بدلا من ترك الأمر للإعلام الأجنبى.

نريد تحقيقًا دقيقًا يكشف عن المسئول ويعاقبه. لقد كانت نتيجة هذا التصرف الأحمق إهدار دماء بريئة، وهذا سيعمق الهوة بين الشرطة والأهالى فى وقت يتربص فيه الإرهاب بالجميع.

لا أفهم إطلاقًا دوافع العجلة على التحرك الأحمق الذى تم. وإذا كان البعض يحتج على وجود هؤلاء الأهالى قرب الآثار، فماذا عن المنتجعات السياحية التى يتم التخطيط لها وملاعب الجولف؟ ألن تفسد هذه آثار البر الغربى أيضًا؟ إن الصمت على ما جرى فى البر الغربى خطير خطورة المذبحة نفسها التى راح ضحيتها الأبرياء من الأهالى. وإذا كنا قد أشرعنا

أقلامنا فى وجه إرهاب المتطرفين، فإننا نشرعها فى وجه المختالين، قليلى الخبرة، والذين لا يفهمون أهالى هـذا الوطـن ولا يعرفون كيفية التعامل معه فيلجئون إلى الضرب فى المليان، فى رمضان الكريم وقبل أيام من حلول عيد الفطر المبارك، ثم يحل صمت.

إن ما جرى الأسبوع الماضى لأهالى القرنة، لا يقل خطورة عما جرى للسياح فى ساحة الدير البحرى.

إنها لمأساة دامية!

المخبر.. ملكًا!

كنت أشاهد البرنامج التليفزيونى الذى أعدته محطة التلفزة البريطانية بمناسبة مرور نصف قرن على إسرائيل. كنت فى صحبة حميمة، وكان على مقربة منى شاب فى بداية العشرينيات، مثقف، قارئ، ممن نشأ على المبادئ البالية، مثل الشرف والعلم وتحصيل المعرفة والصدق وعدم الكذب والغش، وكل هذه القيم تدفع صاحبها إلى الانزواء فى ذلك الزمن العجيب، ولكن أسرته المصرية الصميمة الأصيلة لم يكن بوسعها غير ذلك التزامًا منها بالقيم الخلقية والإنسانية.

كان الشاب متحمسًا وهو يتابع الأحداث المؤدية إلى حرب أكتوبر، وكانت الأفلام التى تبث نادرة لم نطلع عليها من قبل. وبالنسبة لى كانت الأحداث التى عشت بعضًا منها تبدو وكأنها تمتُّ إلى عصر ما قبل الأسرات، لهول ما جرى بعد ذلك وكثافة الأحوال، وانقلاب المعايير.

حتى وصلنا إلى لقطة تجمع بين الرئيس السادات، والرئيس حافظ الأسد، والملك حسين. قال المعلق إن الرئيسين المصرى والسورى اتفقا على موعد الحرب، والخطة، وقررا إخفاء ذلك عن الملك حسين.

هنا تنتقل الكاميرا إلى الملك ويتحدث هو، يقول إنه فى أثناء اللقاء الثلاثى شعر أن الرئيسين يخفيان أمرًا عليه، واستنتج أنهما ينويان بدء

الحرب ضد إسرائيل، وأنه استقل طائرة هليكوبتر قادها بنفسه، وعبر الحدود ليجتمع بجولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل.

هنا صاح الشاب.

«الله.. الله.. الحقوا.. الحقوا.. إيه ده؟»!

كانت صيحاته الفزعة من القلب. كانت تعكس البراءة وعدم التصديق، ولكن كيف لا نصدق والملك بنفسه يروى، ويحكى، والتليفزيون يؤكد بالصورة، الملك الطيار الذى يحرص على قيادة طائرته بنفسه يركب الهليكوبتر بنفسه ويتجه إلى إسرائيل؟!

لو أننا سمعنا هذا الخبر قبل حرب أكتوبر، كيف كنا سنتلقاه؟

لو أن الصحف نشرت نص اللقاء بينه وبين جولدا مائير، هل كنا سنصدق؟ لم يكف الشاب الذى تربى على قيم الوطنية أن يطلق صرخاته الدهشة، التى تعكس الصدمة والفجيعة. وكنت أتأمل فى صمت، فلم تعد أفدح الأمور تدهشنى بعد كل ما رآه جيلنا من أهوال. وماذا يضير تكسر نصال جديدة على نصال قديمة والجسد مثخن بالجراح والروح متعبة؟!

كنت أفكر فى دموع الملك على رابين. إذن.. هذه الدموع لم تأت من فراغ، وكنت أفكر أيضًا فى دهاء وحكمة الرئيسين السادات والأسد وإخفائهما خبر الحرب عن الملك. إذن كانا يعلمان بالتأكيد اتصالاته، أو لديهما شكوك.. أعود إلى الوراء عدة سنوات، إلى عام سبعة وستين، والدور الغامض الذى قام به.. أعود إلى الأربعينيات عندما أعلنت دولة إسرائيل، وفى نفس الوقت دولة الأردن، وكان الإنجليز هم اللاعب الأساسى فى المنطقة.

أعود إلى التليفزيون .

يقول الملك الهاشمى المؤصل إنه أبلغ جولدا مائير بشكه فى استعدادات مصرية سورية تجرى لبدء الحرب ضد إسرائيل ، وحذرها ، وأكد أنه فى حالة قيام الحرب فإن الأردن لن يدخلها .

تستمر صيحات الدهشة الصادرة عن الشاب وقد تحولت إلى ألم .

يظهر مدير المخابرات الإسرائيلية وقتئذ ، وأمامه جهاز تسجيل من النوع القديم ، لعلنا نذكره ، الذى كان يضعه أصحاب محلات العصير فى الواجهة ليذيعوا عليه أغانى أم كلثوم ، كان الشريط الإسرائيلى يحمل تسجيلا للقاء الملك بجولدا مائير .

قال مدير المخابرات الإسرائيلى إن جولدا مائير غير مقتنعة ، غير مبالية . وقالت إن المعلومات المتوافرة لديهم عكس ذلك وإنها تثق بالمخابرات الإسرائيلية ! هذا ما أعلنته الحلقة ، وهذا ما اعترف به الملك بنفسه على الملأ .

بدا الشاب حزينًا ، وكنت أحملق مذهولاً ، فقد جاء اليوم الذى يعترف فيه ملك دولة عربية بالتجسس علنًا . هل تبدو الكلمة فظيعة؟

إذن بماذا نسمى ما قام الملك به؟ وكيف يعمل الملك عمل الوشاة وصغار المخبرين؟!

إنها والله من علامات القيامة ! !

الأزهـر.. والعـودة إلـى الأصـول

استقلالية الأزهر خطوة أولى نحو استعادة المصداقية التامة التى تمتعت بها هذه المؤسسة العالمية لمدة ألف سنة، لم يكن خلالها الأزهر مرجعية دينية فقط، بل كان مركزاً وطنيّا وثقافيا فريدا وعلميا، بدأ كمؤسسة دعوة للمذهب الشيعى، ثم تحول إلى المركز العالمى للمذهب السنِّى. ولم يتوافر لأى مؤسسة إسلامية أخرى ما توافر له من تراكم وأصالة، ولكن منذ نهاية القرن الماضى بدأ دوره فى الانحسار، وتكأكأت عليه التدخلات عبر هذا القرن، بدءا من محاولة الأسرة المالكة السابقة للسيطرة عليه لتدعيم وجودها، وصولاً إلى ما سُمى بقانون تطوير الأزهر فى الستينيات، وحتى محاولات الاختراق القادمة من الجزيرة العربية فى السبعينيات. ومن خلال بعض مذاهب الفقه البدوى (المصطلح للإمام محمد الغزالى رحمه الله) والتى أوتى أصحابها الثراء، سعوا إلى تواجدهم فى الأزهر، وساير بعض ضعاف النفوس النفوذ المالى الجديد، فأصبح تسجيل رسائل علمية فى الكليات الأزهرية عن الفقيه ابن تيمية والفقيه الشيخ محمد بن عبد الوهاب جواز مرور إلى الإعارات التى توفر الدخل المادى المريح. بل وصل الأمر إلى أن نائب رئيس جامعة الأزهر أقام مركزاً داخل الجامعة العتيدة يحمل اسم ثرى عربى تبرع بمبلغ مليون جنيه. وهذا مبلغ جد ضئيل بمقاييس عصرنا، ولكن أن يحمل مركز داخل جامعة الأزهر اسم هذا أو ذاك من عتاة الأثرياء العرب، فهذا لا يليق ولا يجوز. لن أفيض فى ضرب مثل

هـذه الأمـثلة، ولكننى أدعـو إلـى إصـلاح الأزهر بما يمكن اعـتباره عـودة إلى الأصول.

فمن ناحية، يجب أن يجىء شيخ الأزهر بالانتخاب، ويمكن أن يقوم بهذه المهمة مجمع البحوث الإسلامية، أو هيئة كبار العلماء. ويمكن اتخاذ إجراءات تكفل الشفافية لتلك الانتخابات حتى لا تتحول عند إقرارها إلى ما يشبه الأحوال الكهنوتية. إن اختيار شيخ الأزهر بالانتخاب سوف يحقق الفصل بين منصب المشيخة الجليل وبين أى حكومة قائمة، ويوفر المصداقية التامة لقرارات الشيخ وفتاويه، وبالتالى سيضعف هذا حجج أمراء الجماعات من صغار الطلبة والحرفيين الذين يصكون الفتاوى ويهدرون من خلالها الدماء.

النقطة الثانية، إصلاح التعليم الأزهرى. ويبدأ الأمر من المراحل الابتدائية بحيث لا يدخل المدارس الأزهرية والمعاهد الدينية إلا المتفوقون، وبذلك يمكن ضمان مستوى متقدم للطلبة الذين سيتقدمون للالتحاق بالكليات الأزهرية.

النقطة الثالثة، قصر التعليم العالى فى الأزهر على الكليات التى تتصل مباشرة برسالته الروحية، مثل كلية أصول الدين، وكلية اللغة العربية، وغيرهما، على أن تتبع هذه الكليات شيخ الأزهر مباشرة. أما كليات الطب والهندسة والتجارة التى قامت بعد قانون تطوير الأزهر فيمكن أن تشكل جامعة أخرى مستقلة. ولكن ما علاقة هذه الكليات الآن بالأزهر إلا أنها تحمل اسمه فقط؟

لقد كانت دراسة العلوم فى الأزهر قائمة فى القرون الوسطى، وفى العصر العثمانى. كان الأزهريون يدرسون الفلك والزراعة والطب.

ولبعض شيوخ الأزهر العظام مؤلفات علمية مهمة مثل الشيخ حسن العطار الذى وضع مؤلفات فى اكتشاف المياه الجوفية، وفى فروع أخرى من العلم. لكن وجود ودراسة هذه العلوم فى الأزهر كان له ما يبرره، إذ لم يكن يوجد إلا الأزهر كجامعة علم فى ذلك الزمن البعيد. ولكن قرار تطوير الأزهر أدى إلى تمييع الدور التعليمى التقليدى للأزهر، وإفقاد الجامعة العريقة خصوصيتها.

والحقيقة أن تطوير الأزهر لا يكون بإضافة كليات هندسة وتجارة موجود مثلها فى الجامعات الأخرى وقائمة بالفعل. إنما التطوير الحقيقى يجب أن يتم فى رؤية العاملين به وأساتذته، وأن يضعوا فى اعتبارهم التحديات العديدة التى تواجه الإسلام ونحن ننتقل من قرن إلى قرن، وخاصة فيما يتعلق بالحداثة ومواجهة دعاوى العولمة والتكيف مع الثورة التكنولوجية الحديثة. هذا ما يجب أن يواجهه بجدية مشايخ المسلمين وعلمائه. وهذا ما يحدث الآن زلزلة حقيقية فى العالم الإسلامى، من ملامحها حركة طالبان الرهيبة، ومذابح الجزائر، وأمراء الجامعات.

أن يختص الأزهر بعلومه التقليدية ويطورها، فهذه أهم خطوة أيضًا باتجاه تأكيد استقلاليته وقوته. وهنا يجب المطالبة بالصرف على أنشطته من الأوقاف الخاصة به، وهى مهولة لو عدنا إلى حججها وحجمها، وأن يتقاضى علماؤه - بما فيهم الشيخ - رواتبهم من هذه الأوقاف كما كان الأمر معمولا به من قبل.

النقطة الأخيرة والمهمة أن تعمل القوى السياسية كافة على حماية الأزهر من التدخل، بدءا من محاولات الحكومة التى تستهدف انتزاع تأييد الأزهر لسياساتها التى يمكن أن تتغير اليوم قبل الغد، إلى مواقف بعض التيارات

الفكرية والتى تحاول شد الأزهر أو تأويل ما يصدر عنه لصالحها، أو الزعم بذلك. وأشير بالتحديد إلى مواقف بعض المثقفين من الأزهر، والذين يرفعون الصوت بالتأييد إذا وجدوا ما يتفق معهم، ويهاجمونه إذا صدر عنه ما يخالف رؤيتهم، ثم علينا أن نتضافر لحماية هذه المؤسسة من كل المحاولات الرامية إلى إضعافها أو هز هيبتها، فإنها الحصن الحصين ضد الإرهاب والمتاجرين بالدين.

نكسة للديمقراطية

كنت فى دولة الإمارات عندما صدر القرار بإغلاق جريدة الدستور، وكما توقعت أحدث ذلك انزعاجًا شديدًا، ليس بين المصريين العاملين هناك فقط، ولكن أيضا بين المثقفين العرب الذين تجمعوا فى دبى لحضور احتفال مؤسسة سلطان العويس بجوائزها فى الدورة الخامسة، وبين المثقفين من أبناء الإمارات.

العين على مصر دائمًا، وكل ما يصدر منها أو عنها مؤثر سواء كان بالسلب أو الإيجاب. نجد هذا على كل المستويات السياسية والفنية والثقافية، حتى مفردات اللغة. وخلال الأسابيع الأخيرة شهد العالم العربى تطورات مهمة فى المسألة الديمقراطية.

فى المغرب أسند الملك الحسن الثانى تشكيل الحكومة إلى اتحاد القوات الشعبية المعارض، حزب بن بركة المعارض التاريخى المعروف فى المغرب، وهذا تطور مهم يحدث لأول مرة فى أقصى مغرب الوطن العربى. وفى أقصى المشرق كان البرلمان الكويتى يزلزل الواقع هناك باستجواب أدى إلى استقالة الحكومة، رغم أن موضوع الاستجواب ذاته مزعج جدًا لأنه يتعلق بمصادرة الكتب، إذ اتخذت الجماعات المتشددة العاملة تحت ستار الدين فرصة عرض العناوين، لتقديم استجواب ضد وزير الإعلام لسماحه بعرض هذه الكتب. ومع أن الهجوم على الكتب صار من مخلفات الماضى

البعيد، فإن الاستجواب أحدث ضجة فى الحياة السياسية الكويتية أدت إلى استقالة الحكومة. وهكذا يقع تطور ديمقراطى آخر فى الوطن العربى وإن كان دافعه سلبيا، أو المحرك له بمعنى أدق. ولكن أن تشكل المعارضة حكومة فى المغرب وأن تستقيل حكومة فى الكويت بسبب استجواب فهذا مما يثير الأمل بالنسبة لمستقبل الديمقراطية فى العالم العربى.

فى هذا المناخ جاء إغلاق «الدستور»، وتعاقب صدور الأحكام بحبس الصحفيين، وإغلاق «الدستور» فى حد ذاته كارثة، ولكن الأخطر والأدهى، الطريقة التى أغلقت بها، إذ شكا أحد رجال الأعمال من موضوع نشرته الجريدة، فتمت الاستجابة له، وصدر القرار بالإغلاق.

كان من الممكن أن يُستَلفت نظر الجريدة، أو أن يصادر هذا العدد بالتحديد، خاصة أنها كانت توزع فى الأسواق على أساس أنها تصدر برخصة من قبرص. وهذا أيضًا وضع مضحك، وغريب، فلماذا لم يسمح بترخيص للدستور مثل العديد من الصحف الرخيصة، الهابطة، التى ما تزال تصدر بالفعل، والتى أساءت إلى الصحافة وإلى المهنة؟! لقد كانت المعالجة غريبة حقًا. فبدلا من وقف هذه الصحف الصفراء عند حدها، إذا بالقرار يغلق جريدة جديدة، كانت تعبر عن رؤية مختلفة، وجديدة، حتى وإن شابها أحيانًا بعض النزق، ولكن فى كل الأحوال كانت الدستور منبرًا جريئًا، يدعم المناخ الديمقراطى، ويؤكده، ولكن الأزمة الحقيقية، أن الهامش الذى نتحرك فيه يضيق شيئا فشيئا، ولا يتحمل هذا الهامش المحدود جريدة مثل الدستور. إن إغلاق صحيفة خطوة خطيرة ما كان يجب الإقدام عليها قط.

يُقال دائمًا إن الصحافة حرة فيما تكتب، خاصة عند نشر بعض المقالات التى تسبب حساسية لدى دول أخرى أو جهات أجنبية، ويجىء الرد

التقليدى الذى كنا نقرؤه دائمًا، وهو أن الدولة لا علاقة لها بالصحافة وحرية الصحافة. وإغلاق الدستور بسبب موضوع نُشر (مع التحفظ على طبيعة الموضوع) يهز مصداقية هذا القول، ويؤكد تدخل الحكومة السافر فى الصحافة، ويظهر الحرية التى نتحدث عنها وكأنها غير حقيقية. هذا من المعانى الخطيرة الكامنة فى قرار إغلاق جريدة.

التطور الثانى المزعج حقّا، هو نقل الصحفى عادل حموده من روز اليوسف إلى الأهرام. ويعلم القاصى والدانى أن علاقتنا كانت فى حدها الأدنى، وقد افتتح مسئوليته بحملة شرسة ضدى منذ سنوات، ولكن نقله من المؤسسة التى يعمل بها أثار عندى انزعاجا شديدا وحالة من الاكتئاب. إن نقل الصحفى من مؤسسته يشبه تجريده من الجنسية، حتى لو كان النقل إلى أعلى، أى إلى الأهرام. فى الماضى كان النقل يتم إلى أسفل، إلى باتا، والآن يتم إلى أعلى. ومعاذ الله أن أشبه باتا بالأهرام، ولكن النقل إلى الأهرام كعقوبة يسىء إلى هذه المؤسسة العريقة، ونقل عادل حمودة واضح فيه العقوبة، وإجراء قرص الأذن، أو العمل بمنطق الذبح حتى يخاف الآخرون. إن نقل الصحفى إجراء كنا نظن أنه قد انتهى واختفى ولكنه يطل برأسه من جديد.

إغلاق الدستور، ونقل صحفى من مؤسسته كعقاب من أسوإ ما تعرضت له حياتنا السياسية، وقد أحدث هذان الإجراءان بما فيهما من تعسف، آثارًا كئيبة، تجعلنا جميعًا نتوجس من المستقبل وما يحمله، وتتراجع بالديمقراطية فى مصر، وتجعل أحلامنا تتضاءل. حتى لنتمنى أن تصبح الديمقراطية فى مصر مثل المغرب، أو.. مثل الكويت!!

حملة صليبية جديدة

يجب ألا يغيب عنا جوهر هذه الحملة العسكرية الشرسة ضد العراق.

إن المستهدف ليس شعب العراق شبه الأعزل، المنهك، المستباح فى مواجهة هذه الآلة الحربية الرهيبة. إن الهدف الحقيقى هو العرب والإسلام، ليس فى ذلك أى مبالغة. بل إن الحجج والأغطية الإعلامية المختلفة والسياسية الأمريكية تسفر عن حقيقتها من خلال تصريحات هنا أو هناك، فى برنامج لارى كينج الشهير يحاور هذا المذيع الصهيونى، الليكودى، المتعصب، عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى، ويتهجم على الإسلام والمسلمين مباشرة، ونتيجة لرد الفعل السلبى الذى وقع لدى المسلمين فى الولايات المتحدة اضطر هذا السناتور إلى إصدار بيان يعتذر فيه عما قاله، بينما يكتب معلق آخر فى جريدة الواشنطن بوست مهاجمًا العرب قائلا ما نصه: إنهم لم يُخلقوا إلا للضغط عليهم.

هكذا تلوح العنصرية البغيضة صراحة، سافرة، مكشوفة. أما البعد العنصرى الدينى فيمكن أن نراه واضحًا فى هذا الحشد الصليبى الذى يحتشد فوق أراضى دولة الكويت. إن محطات التليفزيون العالمية والعربية تنقل يوميًا صوراً حية لوصول هذه الحشود إلى الكويت.

قوات أسترالية تغادر القواعد العسكرية إلى الكويت، جنود بيض يرتدون ملابس القتال، ضخام، عراض، حليقو الرءوس.

أى مصلحة لهؤلاء فى ضرب العراق؟هل اعتدى العراق على حدود أستراليا أو نيوزيلنده؟ هل ألحق أذى بمصالح هاتين الدولتين النائيتين؛ لماذا يجىء هؤلاء مع عدم وجود غطاء قانونى أو شرعى من الأمم المتحدة أو مجلس الأمن؟! إننى لا أرى إلا العنصرية المقيتة ضد العرب والمسلمين.

تتدفق طوابير الضباط والجنود القادمين إلى الكويت من قواعد فى صحراء نيفادا وكلاهارى، ومن قواعد بعيدة فى المحيطين الهادى والأطلنطى، يقف الضباط الكويتيون فى استقبالهم عند سلالم الطائرات العملاقة، يرتدون زيا عسكريا مشابهًا تمامًا، الملامح فقط هى التى تدل على جنسية الطرفين!

اللقطات تتوالى من البحر، من فوق حاملات الطائرات رمادية اللون، المدججة بالسلاح النووى وكل ما هو فتاك.

طائرات الإف 18 والإف 16، وطائرات التورنيدو البريطانية تحتل صورها الصفحات الأولى من الصحف الكويتية، الصور ملتقطة بدقة ومن زوايا بحيث يكاد القارئ أن يسمع هدير الطائرات ويرى ما تحمله من دمار، من قنابل عنقودية وانشطارية، وأسلحة معلنة وأخرى غير معلنة.

طائرات تقلع، وأخرى تنزل فوق الحاملات الجبارة، جنود يحملون صواريخ مستطيلة، مقدماتها معدنية وزجاجية، بعض أجزائها حمراء، وأخرى صفراء، ربما صاروخ جديد مطلوب تجربته فى أطفال ورجال وشيوخ العراق العرب، المسلمين، ومسيحيين شرقيين أيضا فهؤلاء لا محل لهم عند الولايات المتحدة العنصرية البغيضة التى تحكم سياستها فكرة الإبادة.

ربما ينتمي هذا الصاروخ إلى نوعية لا بد أن يتخلص منها الجيش الأمريكى، وأن يقصف بها هؤلاء البشر العراقيين العرب المسلمين أرخص تكلفة من تدمير هذه الصواريخ والعبوات التى قارب عمرها الافتراضى على النفاد. لن يشعر هؤلاء الطيارون البيض الذين يرتدون أحدث ملابس الطيران، والواثقون بأنفسهم جداّ، لن يشعروا بالذنب، الأمر مجرد ضغطة زر فقط تماما كلعبة الأتارى، ينطلق بعدها هذا الصاروخ الفتاك لينهى حيوات آلاف مؤلفة من بشر يحملون أسماء محمد وعلى وحسين وعبد الرضا وحسن و. . . . . لا بأس من إزهاق أرواح مئات الآلاف بضربة نووية محدودة الأثر تفنى بغداد فقط، أو البصرة، أو كربلاء أو النجف. لا بأس من إبادة هذه الجموع المسلمة، ومعهم أعرق الآثار والثقافات البابلية والآشورية والعربية، هذه الثقافات التى تشكل مع تراث مصر الفرعونى جذور الإنسانية. فى مقابل هذه الآلات الفتاكة التى تحتشد فوق أراضى دولة الكويت العربية، المسلمة أيضا، نرى شعبا شبه أعزل، مواطنين عراقيين يرتدون ملابس مدنية، وينتظمون فى طوابير وكأنهم على وشك مباراة رياضية، تدريبات بدائية على فك رشاش أو قنبلة يدوية وفى أحسن الأحوال مدفع آر بى جى!

أسلحة بدائية جداّ فى أيدى العراقيين، بينما الإعلام الغربى يمارس الإفك والزنا بعقول البشر عن أسلحة الدمار الشامل. طبعا لا بد من تسمين الضحية قبل ذبحها ولو بالكلام، غير أن الوضع العربى المتردى ينبض بما يبعث بعضا من الأمل.

تلك الغضبة الجماهيرية التى تعم مصر من أدناها إلى أقصاها، رفض معظم الدول العربية ـ باستثناء الكويت ـ استخدام أراضيها ومطاراتها

للهجوم على الشعب العراقى . إن موقف المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة ، وتصريحات زعيمها الشيخ زايد يوم الخميس الماضى ، وموقف دولة البحرين وقطر لما يبعث الأمل ، بعض الأمل فى النفوس ، ويثبت لنا أن فى أعماق هذه الأمة ما تزال تكمن بعض النخوة والشعور بالتآخى ، وإدراك الهدف الحقيقى للحملة الأمريكية العنصرية الجديدة .

تلك المسيرات

التاسعة صباحًا تقريبًا.

أمر يوميًا بمبنى السفارة الأمريكية، دائمًا أتطلع إلى مبانيه بفضول، تبدو كقلاع غامضة، النوافذ ضيقة جدًا، وكثير من المساحات مصمت، أصم. أما الهوائيات فمن كل صنف ونوع، أطباق هائلة الحجم، وأشكال مختلفة من المعدات التى ترسل وتستقبل.

الأبواب من فولاذ، والمصدات الخرسانية مزروعة بالأزهار، على الرصيف الآخر تقوم السفارة البريطانية، المبنى الشهير الذى كانت مصر تعرفه فى الحقبة الاستعمارية بقصر الدوبارة. كان مقرًا للسفير البريطانى، أهم سفير فى مصر وقت أن كانت الإمبراطورية لا تغرب عنها الشمس، وكان المبنى متصلا بالنيل مباشرة، كان بعيدا عن القاهرة رغم وقوعه فى هذه المنطقة الجميلة، المهمة. كان معظم سكانها من الأجانب، وتمر الأيام ويتقلص المبنى، وتتحول قاعة الرقص الإمبراطورية إلى قاعة لمنح تأشيرات الدخول.

أفكار عديدة يثيرها مبنى السفارة الأمريكية الذى يعكس الخشية والحرص والسرية، منها مثلا الملفات والتقارير الموجودة فى أقسامه المختلفة ورؤيتهم لمصر، لرجالها وأقسامها ومنشآتها. يُقال إن بعض الهوائيات متصلة بأجهزة تتنصت على الهواتف الحساسة فى مصر. تُقال أشياء كثيرة

عن ممرات وحجرات لا يمكن حتى للعاملين أن يدخلوها إلا بتصريحات خاصة، فى كل الأحوال يثير المبنى المصمت الخيال.

هذا الصباح لاحظت تغييراً فى الشرطة المصرية التى تتولى حمايته، إذ يتحرك أمامه عدد من ضباط الشرطة، رتبة عميد ولواء، وعلى النواصى المؤدية جنود مدججون بالسلاح، حسنو المنظر، مزودون بأسلحة حديثة.

إذن.. فى الأمر مسيرة.

وكلمة «مسيرة» إحدى ظواهر قلب اللغة أيضًا، فهى تعنى «تظاهرة»، ولكن كلمة «تظاهرة» مكروهة منذ قيام ثورة يوليو، وغير مسموح بها إلا فى حالات التظاهرات المدبرة والتى تخصص فيها الحزب الحاكم عندما كان اسمه هيئة التحرير، ثم الاتحاد القومى ثم الاتحاد الاشتراكى ثم حزب مصر ثم.. الحزب الوطنى. إن كلمات مثل «تظاهرة» أو «اعتصام» أو «إضراب» من المحرمات.

وبالرغم من الخوصصة أو الخصخصة، فلم يسمح حتى الآن بحق الإضراب، وهذا موضوع عويص، التطرق إليه خطر، فلنتجنبه.

غير أن هذا الصباح يشهد حدثا حقيقيا، فثمة مسيرة تضم ممثلى الأحزاب والقوى الشعبية احتجاجا على العدوان الأمريكى المتوقع على العراق. كان ذلك قبل إعلان التوصل إلى اتفاق مع الأمم المتحدة. إن ظهور «مسيرة» فى الشارع المصرى أمر نادر الحدوث، ولكن فى الأزمة الأخيرة عادت «المسيرات» أعنى «التظاهرات» واستمع العالم إلى صوت مصر وإلى ضميرها الوطنى والقومى. تمثل هذا فى التظاهرات التى شهدها الجامع الأزهر. ما زال الأزهر فى الصدارة، ما زال منبراً لإعلان الرأى والجهاد. وتمثل فى تظاهرات الطلبة بجامعة القاهرة الذين خرجوا من الحرم حتى نهاية الشارع الذى تقع حديقة الحيوان على جانب منه وأمامها حديقة الأورمان. كان حشداً رائعًا، هادراً يذكر بأيام الكفاح ضد الاستعمار والدفاع عن قضايا الوطن، تلك الأيام التى يسخر منها البعض الآن.

تعامل الجميع بوعى رائع وراق مع اللحظة التاريخية، المتظاهرون عبروا بقوة والتزموا، والأمن كان حاميًا ومؤمنًا لمن أرادوا أن يرفعوا الصوت احتجاجا على العنصرية الجديدة التى تنفذها وتقودها الولايات المتحدة ضد العرب والمسلمين.

فى مثل هذه الأحداث الجسام يرهف العالم حواسه متطلعا إلى مصر، منتظرًا ردود الفعل، وكثيرا ما كان منع المظاهرات بسبب الخوف منها يؤدى إلى إضعاف الموقف الحكومى نفسه.

على سبيل المثال كنت أتمنى بعد مذبحة الأقصر أن تخرج تظاهرة ضخمة فى القاهرة ضد الإرهاب، كانت ستؤدى إلى أثر إيجابى لدى العالم كله الذى كان يتطلع باهتمام إلى ردود فعل الشارع المصرى تجاه الجريمة، وكتب إلىّ أصدقاء من جنسيات مختلفة، بعضهم أساتذة جامعة وأدباء وصحفيون يبدون دهشتهم من عدم خروج تظاهرات احتجاج ضد الإرهاب وسفك دماء الأبرياء، تماما كما حدث فى إسبانيا، عندما خرجت تظاهرة يقودها رئيس الوزراء نفسه وضمت مليون شخص احتجاجا على حادث ارتكبه أعضاء الجماعة الداعية إلى انفصال إقليم الباسك.

وبالطبع تجاهلت أمنيات الأصدقاء وحدثتهم عن الشعور الشعبى العميق الذى يكره إراقة الدماء، ولم أقل لهم إن اتحاد الكتاب طلب التصريح بخروج مسيرة صغيرة من أعضائه ترفع لافتات احتجاج على ما ارتكبه الإرهاب، وكان الهدف إعلان موقف فقط، فقط تظاهرة صغيرة من باب مبنى الاتحاد إلى باب المجلس الأعلى للثقافة المجاور، على نفس الرصيف، ولكن.. التصريح لم يأت.

لقد أعادت التظاهرات القوية الهادرة ضد العدوان على العراق الحيوية إلى الشارع المصرى، ولا أبالغ إذا قلت إنها كانت أحد الأسباب غير المباشرة ـ والمباشرة أيضًا ـ التى أدت إلى وقف العدوان.

المبنى.. المبنى

لنؤجل النصائح المتينة بعض الوقت، فثمة ما هو أهم الآن، إذ انتابنى بشر، وغمرنى حال من التفاؤل فى هذا الزمن الصعب عندما تأكدت بتقدم الأستاذ إبراهيم نافع لمنصب نقيب الصحفيين، وحتى أشرح الأسباب الداعية إلى هذا التفاؤل، أستعيد بعضا مما كتبته فى نوفمبر الماضى بجريدة الأسبوع فى هذه الزاوية، كتبت ما نصه فى المقال الأول تحت عنوان «تحديات عاتية»:

«على امتداد أسابيع كتبت عن وضع النقابة منذ تلك الليلة السوداء التى قاد فيها الدكتور جاب الله بعض موظفى وزارة الثقافة لإفساد الندوة العلمية التى نظمتها اللجنة الثقافية بعد حريق المسافرخانة، وهذه ظاهرة تصاحب أى ندوة تناقش ما له علاقة بأمور الآثار خاصة أو أوضاعا تتصل بسياسة وزير الثقافة عامة، وهذا ما لم نسمع عنه حتى فى أشد الأنظمة السياسية المعادية للثقافة والفكر. منذ تلك الليلة أمعنت التفكير فى أوضاع النقابة التى صارت مستباحة، وكانت أولى ملاحظاتى انتقال المقر، واختفاء المبنى القديم وحلولنا ضيوفًا لقاء إيجار مدفوع على مبنى شائه، فى موقع لا يليق بالنقابة. وكما أشرت، أكاد أوقن أن تدمير المقر القديم تدبير لإفقاد النقابة ذاكرتها، ولذلك فإن إعادة المبنى إلى ما كان عليه يجب أن تلقى اهتماما من النقيب الجديد..».

هذا ما كتبته في نوفمبر الماضى، وانتقلت بعد ذلك لمناقشة التحديات التى تواجه المهنة، ومنها قضية التبعية، والإدارة، والمصداقية، ومستقبل المهنة، وتلك أمور سأعود إليها، لكن قد يبدو غريبًا للبعض، تركيزى على المبنى وأولوية بذل الجهود لتشييده وإعادته إلى موقعه السابق. لا أدرى الظروف التى أدت إلى سرعة إزالة المبنى القديم، وقد كان متينًا، جميلا، ارتبط عندنا بسائر ما عرفناه من نضال وجهود من أجل المهنة، وتحتفظ ذاكرتى بلحظات مجيدة من كفاح الصحفيين، من أجل الوطن، ومن أجل الحرية، من سنوات السبعينيات المضطربة، وهتافات الطلبة أمام مبنى نقابة المحامين والصحفيين، ثم النشاط الذى شغل المبنى فى أثناء حرب أكتوبر، والأمسيات الحاشدة، والانتخابات، ثم ذروة العمل المهنى والسياسى لنقابة الصحفيين، عندما تصدت الجموع للقانون ٩٣.

وسوف نظل نذكر ذلك الحشد المهيب يوم السبت، عندما توافد الصحفيون منذ الصباح الباكر، شيوخًا وشبابا لإعلان الموقف من القانون ٩٣. كانت لحظة نادرة، توصف حقا بأنها تاريخية، تاريخية فعلا وليس مثل اللحظات الأخرى التى توصف بأنها تاريخية من قبيل المبالغة. أين ذلك الحشد المهيب من المحاولات الثلاث التى جرت لعقد الجمعية العمومية فى المبنى الكئيب المستأجر بالقللى؟ لثلاثة أسابيع لم يتم انعقاد الجمعية لعدم اكتمال النصاب القانونى، مع أن الموضوع المطروح كان من أجل الزملاء المسجونين.

المبنى جزء من شخصية النقابة، وهو بمثابة وعاء الذاكرة لها، والمكان أيضا. ومن الصور التى لن تمحى من ذاكرتى قط، إبراهيم نافع نقيب الصحفيين يختتم أعمال الجمعية العمومية المناهضة للقانون ٩٣، وهو يهتف عاليا لمصر ولحرية الصحافة، لأسباب عديدة، أولها ثقتى بقدرته على النهوض بمبنى النقابة وإعادتها إلى موقعها، أى إعادتها إلى الحياة. لأسباب عديدة انتابنى الفرح عندما تأكدت أن الأستاذ إبراهيم نافع تقدم للترشيح لمنصب النقيب، وللأسباب أسباب.

.. قـل .. وأنـا أقـول

يا خبر! خضنى . . أى والله خضنى!

فاروق حسنى يهددنى، يقول فى الوفد: «من هو الغيطانى حتى يسألنى عن ذمتى المالية؟! أقول له: اسكت لأننا نعرف مصادر ثروتك . . ».

بصراحة خفت على ثروتى، خشيت من هتك أسرارى، الأمامية والخلفية، لذلك تراجعت عن الردود المنطقية، كالقول إننى مجرد مواطن من حقه أن يتساءل عن مصادر ثروة الوزير الطائلة، عن البواخر العائمة، والمبانى المشيدة، وهو رقيق الحال، متواضع النشأة. ومشكلتنا أننا نعرفه، رأيناه بأعيننا وهو يتردد على دور الصحف يستجدى صحبة أو نشر خبر عن أعماله المتواضعة . . .

لا . . لن أستمر. إنه وزير، والوزير فى بلادنا خطير، وهو رجل قوى جدًا، لا يخاف، ويتهم كل من يختلف معه، لذلك سأسكت خوفًا وأسترضيه، ولن أطمع فى المزيد، بل سأخطو إلى ما هو أبعد فالخوف منه شديد، والرعب يغزونى. هو العنيد، الدولى، أقصد العالمى، من أنا حتى أواجهه حقًا؟! سأتنازل حتى عن حقى كمواطن وسأعترف بمصادر ثروتى.

أنا يا سيادة الوزير أصلى متواضع، رقيق الحال، من أسرة متواضعة، وكنت قبل المناصب أمشى منفوش الشعر. البنطلون الجينز لا أبدله لمدة سنة أو أكثر حتى تصبح له رائحة، وأحمل حقيبة على كتفى أتردد بها على دور

الصحف، وبعض الأماكن الأخرى بحثا عن أصدقاء من الشباب، أرتاح إليهم ويرتاحون إليّ. ولم أكن أفضفض إلا مع أبناء الجنوب خاصة إذا كانوا طوالا كالحراب، نحيلى القدود مثل أبناء النوبة الخلّص. وعندما تسلمت مسئوليتى، جاءنى خبر تعيينى صحفيّا ثقافيّا، وأنا فى شقتى. كنت أستضيف صديقًا حميمًا جدّا، وكان بيننا عمل ثقافى جاد استغرق أربعة أيام. لم أكن أملك إلا مرتبى، وشقة فى ضاحية من غرفة وصالة، غرفة وصالة فقط يا سيادة الوزير.

وخلال اثنى عشر عامًا من إشرافى على صفحة أخبار الأدب المعنية بشئون الثقافة من رواية وقصة وآثار، آثار بالذات، نمت ثروتى وتبدلت أحوالى. فتح الله علىّ. بدأت أبيع قصصى القصيرة ورواياتى أى أعمالى الفنية. هكذا ارتفع سعر القصة من خمسة وسبعين قرشًا كان يقررها لنا الأديب الراحل عبد الفتاح الجمل إلى مائة ألف جنيه للقصة القصيرة، ومائتى (ألف طبعا) للرواية.

وفى أثناء رحلاتى الصحفية أقيم معرضًا لكتبى، خاصة فى الخليج، الخليج بالذات، وأصحب معى المساعدين الذين اخترتهم كلهم من الشباب لتشجيع الأجيال الجديدة وكشف المواهب أولا بأول، أعرض وهم يسوقون لى قصصى ورواياتى.

وبما أنى أعترف، فيجب أن أحدثك بما جرى لى فى الإمارات، عندما أقمت معرضًا لقصصى ورواياتى فلم يعرنى أحد التفاتا، ولم أبع ورقة واحدة، فذهبت زميلة من أسرة عريقة تعمل معى، وقالت للمسئولين بالحرف إننى «زعلان» لأن قصصى ورواياتى لم يعرها أحد التفاتا. عندئذ تطوع أحدهم واشترى لوحة قصصية من النوع الذى لا تفهم له رأس من رجل، ولا مربع من مثلث، ولا أبيض من أسود، وأنت يا وزير سيد من يفهم فى الحداثة والتجريب، أعانك الله على التجريب.

أحكى لك أيضا: مرة أخرى أقمت معرضًا لقصصى ورواياتى. ولأننى أخاف ألا أبيع، قررت التأمين عليها بمبلغ كبير جدًا. وضعت لوحاتى القصصية فى براويز خشبية، وقام أحد أصدقائى بكسر البرواز عن طريق إسقاطه على الأرض، وحصلت على التأمين.

ها أنذا مضطر إلى الاعتراف يا وزير. وكما ترى، فإن الأدب لا يحقق مثل هذه الثروة، فالأدباء ينفقون على الأدب مهما بلغت شهرتهم، ولكن النفوذ، النفوذ أهم، وأنت وزير، والوزير يعنى عضوا فى الحكومة، وبالعقل هل يقدر أحد على الحكومة؟! لذلك سأعرى لك الثروة وأذكر بعضها، على الأقل ما يعرفه البعيد والقريب، وهى كالآتى:

* شقة على النيل، ترى فرعى رشيد ودمياط فى وقت واحد.

* شقة خاصة للكتابة فى قلب الزمالك ولاستقبال الأدباء من أعضاء الرابطة فقط، بشرط إبراز العضو للبطاقة الرسمية.

* فندق عائم، سيتى الثانى، تقدر قيمته بعشرين فقط، أقصد عشرين مليونا ويرسو فى ترعة بلدنا بالصعيد.

* فندق عائم آخر سيتى الثالث، ويرسو فى بحر الرمال الأعظم.

* قرية سياحية أبنيها بنفوذى فوق مقابر الأجداد لهواة الجولف.

* مجموعة أرصدة فى إيطاليا وفرنسا وسويسرا نتيجة بيع بعض الحجارة القديمة التى كنت ألعب بها فى حارة درب الطبلاوى أمام المسافرخانة التى احترقت فى عهد سيادتك.

هل يكفى هذا يا سيادة الوزير؟! طبعا أنا اعترفت لأنك قوى جدًا، والحق أنك «سيبت» مفاصلى. وكما قلت، قل أنت أيضا.. عندك كم؟ ومن أين؟ وفى الأسبوع القادم سأكشف لك المزيد!

دفاعًا عن الطرشى

اسمح لى يا وزير أن أحدثك عن الطرشى، وأن أبسط لك حقائق عن المخلل. والحقيقة أننى لم أتصور قط أننى سأدافع يومًا عن الزيتون والبصل والجزر واللفت والليمون والباذنجان، وما أدراك يا وزير بالباذنجان، بنوعيه الأسود والأبيض! لكننى بعد أن قرأت سخريتك منا وقولك إننا ندافع عن بقاء دكاكين الطرشى فى القاهرة القديمة تعجبت من منطقك.

ولأننى أعرف مدتك التى أمضيتها فى بلاد الفرنجة، مدة طويلة أثرت فيك بلا شك، خاصة مع ضعف روابطك بثقافتنا العربية عامة، وتراثنا الحضارى المصرى خاصة، لذلك تبدو أفكارك وتصريحاتك ورؤاك شبيهة بموقف بعض المستشرقين الذين لم يروا من حضارتنا إلا سطحها، وعجزوا عن فهم أبعادها وجوهرها.

قلت لنفسى، فلأدع الأمر يمر، خاصة أن تصريحاتك تعددت وتلاحقت حتى ليعجز المدقق عن متابعتها: تصريح ضد الطرشى يفوت ولا حديموت. لا عجب منه إذا جاء من وزير مستشرق. لكننى بعد فحص وتمحيص وتدقيق فى سير المستشرقين واستعراض أعمالهم، وجدت أن تصريحك جديد، فلم يحدث أن أحدهم هاجم الطرشى من قبل ولا دكاكين الطرشى التى تعد من خصائص القاهرة القديمة، فللطرشى منازله وأماكنه، فى عابدين، والحلمية، لكن أشهرها ما نعرفه فى المغربلين.

المستشرق الحقيقى لا يمكن أن يهاجم الطرشى أو يسخر منه، لأن الطرشى من الطعام، والطعام من عناصر الحضارة. إنه ثقافة بالمعنى العميق الذى لا يمكن لمعاليك إدراكه ما دمت تسخر من الطرشى. وهنا أنصحك أن تطلب من دار كتبك أو أى جهة تتبع لك عندها خبرة بالكتب القديمة أن تدلك على كتب الطعام فى أدبنا القديم، وأشهرها كتاب «الوصلة إلى الحبيب فى الطيبات والطيب» لابن العديم. وابن العديم يا وزير مؤرخ حلبى شهير له موسوعة كبرى طبعتها دار برين فى ليدن الهولندية. كتاب آخر عنوانه «فضالة الخوان فى أطايب الطعام» من التراث الأندلسى (الأندلس تقع فى إسبانيا) حققه الدكتور إحسان عباس. والكتاب الثالث طبع فى ألمانيا يا وزير، عنوانه «كنز الفوائد فى تنويع الموائد» لمؤلف مجهول، حققه اثنان من المستشرقين الألمان، مانويلا مارين، وديفيد واينز.

يمكننى أن أحصى لك ثلاثين كتابا ضخمًا فى الطبيخ. كتبت خلال الأربعة عشر قرنًا الماضية (الهجرية يا معالى الوزير). المفاجأة أن كل كتاب خصص للطرشى قسمًا كبيرًا، فالطعام ينقسم إلى مشهيات، ومتون، وحلويات، ومشروبات، والطرشى عماد المقبلات.

تعال يا معالى الوزير أحدثك عما ورد فى كتاب «كنز الفوائد فى تنويع الموائد». فى الباب الثامن عشر نجد أن عنوانه: «فى سائر أصناف المخللات من اللفت والبصل وتخليل الفواكه والبقول على سائر أصنافه وتمليح الليمون وغيره».

هل جربت البصل المخلل يا معالى الوزير، أو اللفت، أو الجزر الأصفر، أو الطماطم المحشوة بالبقدونس والثوم؟ هل تعرف الباذنجان؟ وما أدراك ما الباذنجان! ينقسم الباذنجان إلى أسود وأبيض، وكلاهما يصلح للتخليل. اسمع يا وزير ما يقوله الكتاب الذى طبعته ثلاث مؤسسات ثقافية ألمانية، شوف يا سيدى وركز معى فى الباذنجان.

صفحة الباذنجان:

«يؤخذ ورق كرفس ونعناع وبقدونس، ينقى ورقه وشيء من القلوب، ويجعل فى إناء ويدرّ عليه كزبرة يابسة وكراوية مدقوقة، محمصة، وأطراف طيب، وفلفل، ورؤوس ثوم صحاح مقشرة. يؤخذ الباذنجان، يقطع أقماعه وبعض أطراف الأقماع بحيث لا يبقى إلا بعضه، ويحط الباذنجان فى إناء ويقلب عليه الخل..».

هذه فقط مجرد عينة. هل جربت المرور أمام دكان طرشى؟ هل تنسمت الرائحة المعتقة؟ هل شربت من ماء الطرشى بنوعيها الحلو أو المالح؟ هل تعرف مقادير الشطة اللازمة لتلك اللسعة التى تصحب تذوق الليمون أو الزيتون؟ هذا الطرشى يا معالى الوزير نتاج حضارة، له فوائد غير «تفتيح» الشهية، منها تقوية مناعة الجسم، وإخراج «السميات» مع العرق، وأمور أخرى، لا أقدر على شرحها لك إلا على الطبيعة، أمام البراميل الخشبية داخل دكان الطرشى. وأنا أثق أنك بعد أول مذاق ستغير رأيك، وتبتعد عن القاهرة الفاطمية، حفظها الله وصانها من أمثالك أعداء الطرشى.

مجــرد تساؤلات

أعترف أننى أرتبك إلى حد ما عندما أقدم على الاقتراب من منطقة أو شأن يتعلق بالقضاء، بل إننى أتحاشى ذلك قدر الإمكان، فالثقة بقضائنا تامة، والتعليق على أمر ما زال موضع تحقيق فيه حرج كبير. لكن أحيانا يصبح من واجب الكاتب المهموم بالشأن العام، أى ما يتجاوز ذاته وما يتعلق به، أن يطرح التساؤلات، فقط مجرد الاستفسار طلبًا للحقيقة، خاصة إذا كان الأمر يخوض الناس فيه بالقول، همسًا أو جهراً.

منذ شهور قبضت النيابة على سكرتير وزير الثقافة متلبسًا بعد تحريات طويلة قامت بها هيئة الرقابة الإدارية، الجهة المكلفة بمقاومة الفساد، ونشرت تفاصيل عن هذا السكرتير، الذى قفز فى سنوات قلائل من بائع آيس كريم فى زفتى إلى سكرتير لوزير الثقافة. كان اسمه ينشر لسنوات بهذه الصفة، وكان من الواضح أنه ذو نفوذ يتجاوز صفة الوظيفة. لقد نشرت قصة صعوده السريعة، وصحب ذلك تفاصيل عديدة ترددت همسًا وعلنًا، وأصبحت هذه القضية، وما تزال، محل اهتمام الرأى العام، خاصة أن أسماء كبيرة تردد عن صلة هذا السكرتير بها، ومنهم محافظ تم سؤاله بالفعل. ولاحظت أنه منتشر إعلاميا بكثافة فى جميع وسائل الإعلام.

ونشرت الصحف أخباراً مصدرها مكتب النائب العام أن قرار الاتهام سوف يصدر خلال أيام. ومضت الأيام، ثم الأسابيع، وأصبحت

الأسابيع شهوراً، السكرتير المتهم ما زال فى السجن، يتجدد حبسه. وقد حدث ليلة اجتماع الأوبرا الشهير، الذى دعا إليه أمين المجلس الأعلى للثقافة بحجة مناقشة السياسة الثقافية والأوضاع الراهنة، مستغلاً لجان المجلس، وعضوية عدد كبير من المثقفين المحترمين بها. وفوجئ الجميع أن الاجتماع منظم لتأييد الوزير. ومثل هذه الأمور لا تمر بسهولة على ضمير الحياة الثقافية، حتى وإن بدا الأمر يوحى بأن الموضوع (عدى). فى تلك الليلة سرت إشاعة أن محمد فودة كان يقف بين موظفى وزارة الثقافة فى استقبال المدعوين، وصل الأمر إلى أن البعض أكد رؤيته.

هل كان الأمر نبوءة؟ أم أنها إشاعة الغرض منها اختبار الجو ورد الفعل؟ ثم نشرت الزميلة درية الملطاوى برقية على صفحات «صباح الخير» قالت فيها إن السكرتير الصحفى المتهم، المسجون حاليا، ما زال يتقاضى مكافآته الشهرية. ومن الطبيعى أن يتقاضى المتهم مرتبه أو نصف مرتبه حتى ينتهى التحقيق ويصدر حكم نهائى، قوانين الدولة تنظم ذلك. لم يرد أحد، وشيئا فشيئا لف الموضوع صمت، وتوارى قليلا اسم محمد فودة، نُسى أمره وغاب خبره، ولكن الهمس والأقاويل والمبررات تتردد، ومعظمها غريب، عجيب، لو كتبناه فى روايات لاتهمنا القراء بالعبث واللامعقول!

ما يدفعنى إلى النطق بالتساؤلات تلك الروح الجديدة التى لمسناها خلال الأسابيع الماضية مع مجىء النائب العام الجديد لمنصبه، أهم ملامحها سرعة البت فى قضايا كانت المحور لاهتمامات الناس، وامتداد يد العدالة إلى مناطق حساسة، (نواب القروض). هناك روح جديدة تسرى بلا شك فى هذا الجهاز الذى يعد ركنا ركينا من نظامنا القضائى، كل ما نريده أن نعرف، لماذا الصمت؟ ولماذا تأخرت صدور نتائج التحقيقات؟

فقط.. مجرد استفسار.

إبراء الذمة.. مرة أخرى

يكتب الأبنودى نثره بنفس الصدق الذى يكتب به شعره، خاصة فى «الأسبوع». مقالاته الأسبوعية الرهيبة تعبر عن رؤية ثاقبة، عميقة، صادقة، كما أنها تعد شهادة جيل نما على مبادئ وقيم، تتلخص فى التضحية بالخاص من أجل العام، والانتماء إلى أغلبية شعبنا الفقير، وتلك المبادئ التى أصغينا إليها عبر تلقين الأهل، تلقين منحدر من العصور القديمة، ما تزال وصاياهم محفورة داخلنا، كما أنها محفورة على الجدران:

لا تسرق، لا تكذب، لا تنظر إلى امرأة جارك، لا تلوث ماء النيل، ارحم المسن، كن عونًا لصديقك. . .

وإذا بهذه القيم تتغير، تتبدل. وإذا بنا نقع فى مآزق، فلا نحن قادرون على الخلاص منها، ولا نحن قادرون على مسايرة القيم الجديدة التى سادت فى هدوء. بمعنى أوضح، لو قررت أن أفسد الآن مثل الآخرين فلن أتقن الأساليب االمتاحة، ولن يصدقنى أحد، ولن أصدق نفسى، سأنشطر من الداخل. نرى الواقع يتبدل، ليس فقط من خلال الأباطرة الجدد، وأعضاء الدائرة التى تضيق يومًا بعد يوم، بل من خلال بعض من رفاق الأمس. أعرف رجالاً، جلدوا، وصلبوا، وعذبوا، ورفضوا توقيع ورقة. مجرد توقيع كان ينهى حبسهم، ويخرج بهم إلى الحرية، لكن منهم من

أمضى سنوات فى المعتقل والظروف الوعرة، وخرج مرفوع الرأس بالمقاييس القديمة. بعض هؤلاء يتهاوون الآن أمام مغريات جد ضئيلة، وأمام شخصيات مشوهة، لا حضور لها فى الماضى، أو الحاضر، فماذا جرى؟

مناخ راكد، لم أجد له تشبيها إلا سائل الفورمالين الذى تحنط به الفراشات والجثث. هكذا أصبحت الكلمات أيضًا. يكتب الأبنودى ما يخيل إليه أنه سيحرك الضمائر الهامدة. أو ما سيدفع البعض إلى إيذائه، أو الانتقام منه كما كان يحدث فى الماضى، ويقدم البعض على الكتابة التى تتجاوز الخطوط الحمراء، والتى لا ندرى أين موقعها ولا من وضعها. وتظهر أعمال أدبية جميلة، مثل رواية إبراهيم عيسى الأخيرة، ولكنها تقابل فى صمت فورمالينى، تماما كما تقابل مقالات الأبنودى، وصرخاتنا من أجل الآثار المهدرة، والقيم الثقافية التى تتحول إلى تجارة وشطارة وتربح من المناصب عينى عينك، بينما يبيع بعض الأدباء أثاث بيوتهم ليطبعوا كتابا لا يوزع إلا عشرات النسخ. لقد تدنت مستويات القراءة فى مصر إلى أدنى حد لها. حتى كتب الدين والجنس لم تعد توزع، وكل ما كتبه الأبنودى، وكل ما كتبته عبر أربعين عامًا، أصبح يمثل الآن عبئًا. والآن بعد أكثر من خمسين كتابا أسعى إلى ناشر يطبع كتابى، إذا كان كريما بمنحنى بعض النسخ، وإذا كان يقبل إغماض عينيه فبدون مقابل تقريبًا، ولهذا حديث طويل.

لم يعد للكلمة قيمة، لا معنوية، ولا مادية.

هكذا وصلنا إلى حال فريد، جديد على بلدنا الذى قام وجوده على الكلمة. من هنا يصرخ الأبنودى مخاطبا القراء فى الأسبوع الماضى: «لا يصلنى خطاب يجادلنى فيما أكتب، ينبهنى إلى خطإ أو يقودنى إلى صواب».

ثم يقول الأبنودى :

«ماذا نفعل بالله عليكم ؛ إذا كان أصحاب المصلحة الذين ندافع عنهم، عن مصالحهم، عن كرامتهم، عن مستقبل أطفالهم، هم الذين يطالبونك بالكف عن هذا الدفاع؟ هل يئس الناس؟ هل لم يعودوا يصدقون لعبة الديقراطية وإنسانية الدولة؟

هل فقدوا إيمانهم بالحرية لكثرة ما رأوا وعانوا فارتدوا يتشرنقون على أمورهم وهمومهم خوفًا من أن تذرو الرياح العاتية أحلامهم أو أن تدوسها الأقدام القاسية؟

يعرفون جميعا الآن أن مصر هزمت، فقدت ريادتها الثقافية والوطنية والإعلامية والرياضية، وأن الذين هزموا مصر هم لصوصها الذين استباحوا أرضا وفكرا وقيما، وداسوا بأقدامهم العريضة على الأرض الأصيلة ليطبعوا نجمة داود!

أيها القراء. ردوا لنا اليقين الذى تكاد بقاياه أن تفر!!..».

ويا أخى عبد الرحمن، لن أقول لك لا تيأس، فأنت لست بيائس وإلا ما كتبت ما كتبت. يا أخى إننا نبرئ الذمة، ويوما يأتى قد لا نبلغه، يكفينا أن قراء ذلك اليوم البعيد سيقولون حتمًا : لقد رأوا وما صمتوا! يكفينا هذا الوهم!

ويا صاحبى لا تهن ولا تحزن.

كشف هيئة

كلا، لم تفرغ حياتنا مما يثير الأمل، ويبعث الثقة. يكفى عبقرية المصريين البسطاء فى القدرة على العيش، على التكيف مع ظروف الحياة الوعرة والمتغيرات الصعبة. صور عديدة سأتوقف عندها من خلال الحياة اليومية للناس، لكننى مثل معظم المصريين يتطلعون إلى الشخصيات العامة، إلى أولئك الذين يتصدرون الواجهة. وهنا أشير مرة أخرى إلى حساسية المصريين الشديدة تجاه من يتولى المواقع العامة، لا شيء يخفى. الخبرة الكامنة فى أقدم دولة بالعالم، ليست قاصرة على أجهزة تلك الدولة، إنما تشمل أيضا الشعب المحكوم والذى بدونه لا تكتمل الدولة. وعندما أستعيد وقائع السنوات الماضية أكاد أذهل لدقة تقييم الناس البسطاء، رغم ضراوة أجهزة الإعلام، وتنوع أساليب التلميع، وكثرة الظهور فى المهرجانات، وحفلات الافتتاح التى صارت هدفًا فى حد ذاتها. سنجد الناس مدركة، ثمة إحساس خفى، ميراث قديم يمكن إدراكه فى مجمله، وقد نفهم بعضا منه، ولكنه يأتى فى إطار علاقة الحاكم بالمحكوم، وصبر المحكوم على تحمل بعض المسئولين الذين فُرضوا عليه بالقوة، أو لم يكن اختيارهم موفقًا، كم سيستمر المسئول سيئَ السمعة، المنحرف، الضار فى موقعه، خمس سنين، عشر سنين، ثلاثين سنة؟

وماذا يعنى هذا الوقت بالنسبة لشعب يُقاس تاريخه بآلاف السنين؟ صحيح أن الأمر على المستوى الفردى يعد مأساة، لكنه شعب قديم،

وعندما يُغلب على أمره يصمت، وقد ينفجر فى لحظة، وقد تأخذ الطاقات المكتومة مسارب جانبية، لكن فى كل الأحوال تظل هناك حساسية الجموع تجاه القيادات المسئولة فى مواقع العمل العام.

أتردد كثيراً فى الكتابة عن الشخصيات النزيهة خشية إلحاق الضرر بها، أقلق على بعض من يؤدون الأمانة بتجرد شديد وإخلاص، لأن ذلك صار استثناء وليس القاعدة. أحيانا تبدو العاهة النفسية، أو السيرة الرديئة عونا للاستمرار والتمكن. ويجرى ذلك لأن درجة المصارحة والمكاشفة ليست بالقدر الكافى. والأسبوع الماضى ضربت مثلا بهذا المحافظ الذى ما زال فى موقعه، تنشر أخباره. ولا يكف عن التصريحات وإعلان التأييد، وتفاصيل تورطه فى قضية فساد ما زالت تحت التحقيق جارية، ولو أن أى جهاز من الأجهزة المختصة بقياس الرأى العام نزل إلى الناس فسيفاجأ من فيه بأدق التفاصيل تُروى بين عامة الناس.

لماذا الإصرار على الاحتفاظ بالمعطوبين، سيئى السمعة، فى مواقع بارزة؟! تلك ظاهرة كان يتم تصحيحها فى الماضى، لكن المكابرة سمة غالبة فى العقود الأخيرة. أصبح المنصب مجرد حماية لصاحبه. فكلما كان رفيعًا كانت الحصانة أمتن، (هل معقول أن يعزل وزير لاستغلاله النفوذ أو لثبوت انحراف خلقى فى سلوكه؟ هل معقول أن يعزل محافظ؟).

إن حديثا يجرى الآن عن التغيير، وتلوح بشائر، وتتردد أسماء ذات دلالة، وهنا أشير مرة أخرى إلى أن أدق التفاصيل معروفة على مستوى الناس، لا شيء يخفى!

أعتقد أن النزاهة، وقوامة الخلق شرطان أساسيان يتمنى الناس توافرهما فى أى مسئول، لذلك يبدو أهمية التدقيق. وأقترح أن يجرى كشف هيئة لمن يتم ترشيحه لمنصب قيادى أيا كان مستواه. وكشف الهيئة مرحلة مهمة

معمول بها فى الكليات العسكرية وكلية الشرطة، بعد اجتياز الكشوف العملية والاختبارات النظرية والعلمية، وبعد النجاح يجرى كشف الهيئة، حيث يقف الطالب الناجح أمام أهل الخبرة والتمكن، يتفحصونه ويسألونه، ويحاولون سير أغواره والتعرف على أبعاد شخصيته.

أليس من الممكن إيجاد صيغة لتطبيق كشف الهيئة على الذين يتم اختيارهم للمواقع القيادية؟ لو جرى ذلك ستطالعنا وجوه جديدة، تلقى قبولا من الناس، هذا إذا كان لرأى الناس وزن!

بلوغ الأمل فى كشف الحيل

لما كثر الحديث عن التغيير، بعد طول صبر، وانقضاء أوقات كثيرة، بدأ كل من يتوسم فى نفسه الذهاب، يطرق سبلاً طريفة، ويأتى من الحركات والخطوات ما يبدو معه الأمر وكأنه صدفة، والحقيقة أنه يخاطب من بيده الأمر، وإليه الشأن فى الإبقاء أو الإقصاء. لنلاحظ من خلال ما ينشر فى الصحف الآن بعضا من الحيل الذكية، والألاعيب النميسة (الماكرة) التى يسلكها أصحاب المناصب العتيقة، الذين انقضت عليهم السنوات وهم فى المواقع عينها، رغم ما أحاط بعضهم من روائح تزكم الأنوف، وإشاعات تفسح الطرق لليأس وسد أبواب الأمل.

أول الحيل، كثرة الإعلان عن المشروعات طويلة الأجل، وعقد المؤتمرات الصحفية للحديث عنها، وشرحها وبيان أهميتها وخطورتها وفائدتها. وقد يتطور الأمر من الحديث عن المشروعات طويلة الأجل إلى إرساء حجر الأساس لبعضها، ولننتبه جيدًا إلى أحجار الأساس التى توضع خلال الفترة الأخيرة، لدرجة أننى أتوقع شحّا فى تلك الأحجار، وندرة فى توافرها لكثرة الطلب عليها. ليس مهما المشروع فى حد ذاته، المهم الإعلان عنه، وبيع الوهم للجميع. إن هناك مشروعات طويلة النفس، فى حاجة إلى سنوات وسنوات، وبالتالى إلى بقاء الوزير أو الخفير ليرعى المشروع: الوزير حتى ينجزه، والخفير ليحرس المؤن وحجارة الأسس.

ثانى هذه الحيل الادعاء بالعالمية، أن يشيع الوزير أو المسئول الكبير عن نفسه أنه مطلوب فى مؤسسة دولية، وأنه يضحى بالبقاء فى منصبه الوزارى، وأنه يخسر العملة الصعبة التى ستعود عليه من تسلم المنصب الدولى، وبتحويله جزء من راتبه يسهم فى حل أزمة الدولار. ولهذا يكثر البعض من نشر أخبار عن صلاتهم بمؤسسات دولية، وأقوال خواجات غير معروفين شهدوا لهم بالتفوق والكفاءة. أحدهم قال إن خواجة اسمه سيكى سوسكو (أو شىء من هذا القبيل) أشاد به وعَدَّه عالميا فى تخصصه.

الحيلة الثالثة هى إشاعة الغرض من بثها أن المسئول مسنود، ورغم كل ما يُقال عنه، والتأكيد بأنه سيخلع من موقعه المتين، فإن صلاته القوية بمراكز التأثير سوف تبقيه، وإن الهاتف سيرن فى اللحظة المناسية فيقويه ويحقق له التمتين. والحقيقة أن الهاتف يؤدى دوراً مهما الآن، سواء عند أصحاب المناصب، أو المرشحين لها. أو إظهار القوة. أذكر أننى كنت فى اجتماع برئاسة مسئول، ثم جاء من يهمس فى أذنه، فقام واقفًا واعتذر لنا لأن هاتفًا مهما يطلبه. وترك الاجتماع لدقائق قال خلالها بعض المقربين منه إن شخصية مهمة فى الحكومة اعتادت أن تطلبه، وأن تستنير برأيه، وإنه مسنود فى موقعه لحسن صلته. إن ظاهرة المسئول المسنود بالعلاقات الشخصية من الظواهر المتخلفة السلبية، فالمفترض أن خير سند. السمعة الحسنة، النزاهة، التفانى فى العمل.

الحيلة الرابعة، إظهار المسئول الذى تحوم حوله شبهة التغيير أنه «شغال» لا يهدأ ليلا ولا نهاراً، ولذلك يجرى بث الأخبار المكثفة عبر المحررين التابعين. فمرة سيادته يفتتح، ومرة يسافر، ومرة يكتشف، ومرة يفتش، ومرة يتلقى جائزة عالمية، ومرة يبتسم، ومرة يعبس. وأتمنى من الدكتور فاروق أبو زيد عميد كلية الإعلام أن يلاحظ صفحات الأخبار الشخصية، وأن يكلف أحد أساتذة الكلية بتتبعها وتتبع البرامج التليفزيونية التى

تستضيف المسئولين لمتابعة محاولات الوجود وإثبات الظهور. إنها بالضبط نفس حركة الموظف الصغير الذى يتظاهر بالعمل عند مرور رئيسه.

طبعًا هناك حيل مكشوفة، مثل نشر الإعلانات، وتدبير المسيرات، وإرسال البرقيات. وهذا كله من أساليب البسطاء الذين ليس لهم فى المكر باع طويل، مثل أصحاب المشروعات الوهمية التى تستغرق سنوات، أو العالمين الذين يتفضلون على الشعب المصرى المسكين بالبقاء فى منصب الوزارة، أو المسنودين الذين يلوحون ويشيرون وأحيانًا يصرحون ويهددون، وقانا الله شرهم وحيلهم.

وا.. حسيناه!

غداً الليلة الكبيرة لمولد سيدنا وحبيبنا ومولانا الحسين عليه السلام. ومن يعرف المنطقة وعاش بها، أو تردد عليها، أو ينتمى إلى محبى سيد الشهداء وهم في مصر بلا حصر، سيدرك أن هذه السنة تشهد أتعس ظروف يُقام فيها المولد الذى يعد أكبر موالد مصر قاطبة.

إننى لا أشك لحظة فى وجود قوى تسعى إلى ضرب الروح المصرية فى الصميم. هل يعقل أن شيخ مسجد الحسين عليه السلام متأثر بأفكار وافدة غريبة، ترى في إقامة الأضرحة نوعًا من البدع، تُعادى الأمر، خاصة إذا ما تعلق الأمر بآل البيت؟ هذه الأفكار كانت معزولة وسط جماعات صغيرة فى عمق الصحراء، لكن أتيح لها أن تنتشر وأن تؤثر فى البعض، وجدت طريقها للأسف إلى مصر واقتنع بها البعض.

هنا أتوجه لوزير الأوقاف، الدكتور حمدى زقزوق، وهو رجل فاضل علمًا وخلقًا، نزيه الفكر واليد، إنه أحد الوزراء القلائل جدًا الذين لم نسمع عنهم ما يشين، ولم نر من أفعالهم ما يثير الأقاويل سرًا أو علانية، إننى أتوجه إليه بالسؤال: هل من المعقول أن يُسلم أمر المسجد الحسينى، أطهر البقاع فى مصر، إلى من يرى أن إقامة الأضرحة بدعة، وأن الاحتفال بالموالد كفر؟ هل من المعقول أن يقوم شيخ المسجد بإجازة لمدة شهر ونصف

الشهر فى ذروة الاحتفال بذكرى مولد سيد الشهداء؟ هل من المعقول أن يضيق على الناس الذين أوتوا مقدرة ويقدمون الطعام من اللحم والثريد فى قاعة الأفراح الملحقة بالمسجد؟ هذا يتم سنويّا ومنذ سنوات طويلة، بل . . منذ أن بدأنا نعى على هذه الدنيا. هل تعلم يا سيدى الوزير أن جموعًا غفيرة لا تذوق اللحم إلا فى مولد سيدنا من خلال هذه الهبات التى يوزعها عدد من محبى آل البيت ومحبى سيدنا ومولانا؟ هل من المعقول أن يلجأ بعضهم بالشكوى إلى الدكتور يوسف والى، وإليكم شخصيا لكى ينفذوا ما جاء بالآية الكريمة:

﴿يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا * ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا..﴾.

صدق الله العظيم

إننى أرجو أن تتخذ قرارًا شجاعًا بتولية محب لآل البيت الكرام مشيخة مسجد الحسين. ألا يكفى تجريد المسجد من الآيات القرآنية ولوحات الخط النادرة بحجة أنها تشغل المصلين عن العبادة؟ (تمت إعادة لوحة واحدة بعد أن أثرت الموضوع فى يوميات الأخبار، أما بقية اللوحات القرآنية الرائعة فما تزال أسيرة المخازن).

طوال الأيام الماضية كنت أرى أيضا ما يحزن المرء، إذ تقوم شرطة المرافق بشن هجمات على البائعين حول المسجد. ويتكرر الموقف عدة مرات، عندئذ يتحول الجمع إلى ظروف تشبه ما يصاحب الغارات الجوية، إذ بمجرد ارتفاع صيحات الناضورجية يهرع الباعة إلى الحوارى الضيقة هربًا ويحملون على رءوسهم بضاعاتهم الفقيرة من أمشاط وحلويات ولعب لأبناء الفقراء، ثم يعودون بعد انتهاء الغارة.

هل يكون مولدا فعلاً؟ إن المساحة المحيطة بالمجسد تقلصت جداً بسبب المعدات الهاتكة التى تعمل بهمة غريبة لتنفيذ النفق تمهيداً لبدء ما يُسمى بمشروع تطوير القاهرة الفاطمية، والذى سيجهز على روح المكان. كلها أمور تمضى متجاورة، متوازية. كلها أحوال، صغرت أو كبرت، دقت أو عظمت تجعلنا نصرخ من غم وهم..

«واحسيناه..».

تدخل سافر

تبدو المسافة بعيدة جداً بين الخبر فى مصدره، والخبر كما ينشر فى مصر. ليلة الخميس الماضى سمعت خبراً خطيراً فى أكثر من محطة تليفزيون فضائية، بعضها عربى، والآخر أجنبى، يقول إن الخارجية الأمريكية أصدرت أول تقرير من نوعه عن الحريات الدينية فى العالم. والغريب أن هذه المحطات ركزت على بلدين بالتحديد، مصر والسعودية بحسبانهما بلدين لا تتوافر فيهما الحرية الدينية. وفى السادسة صباحاً بثت الإذاعة البريطانية ذات الخبر بمضمونه، وتوقعت أن أقرأ المزيد من التفاصيل فى صفحتنا الصادرة صباح الجمعة. وفى الأهرام وجدت فى الصفحة الأولى رسالة من السيدة هدى توفيق من واشنطن نصها كما يلى:

«مبارك دعم الحرية الدينية للأقباط ولم يرفض طلبا لبناء كنيسة. أكد تقرير وزارة الخارجية الأمريكية عن الحرية الدينية فى العالم أن الرئيس حسنى مبارك اتخذ إجراءات لتسهيل ومساندة الحريات الدينية للأقباط المصريين، ووافق على كل طلبات بناء كنائس جديدة أو إصلاح الموجودة. وأشار التقرير ـ الذى صدر أمس ـ إلى أنه خلال فترة التسعينيات زاد عدد تراخيص وبناء وإصلاح الكنائس فى مصر بحوالى ٢٠ ترخيصا فى العام، مقابل ٥ تراخيص فقط فى الثمانينيات، كما فوض الرئيس مبارك المحافظين فى إصدار تراخيص البناء والإصلاح فى محافظاتهم. ونقلت وكالة رويتر للأنباء عن التقرير قوله إن الأقباط يمارسون شعائرهم دون تدخل».

إلى هنا ينتهى الخبر رغم الإشارة إلى وجود تفاصيل أخرى فى الصفحة الخامسة لم أجد لها أثراً. هنا ملاحظة قد تبدو شكلية ولكن لها صلة بموضوع مهم يتعلق بتعاملنا مع مصادر المعلومات خاصة بعد أن بحثت فى اليوم التالى عن تقرير رويتر وتأكدت أن العنصر الرئيسى هو قول التقرير الصادر عن الخارجية المصرية إن مصر والسعودية تفرضان قيودا على الحريات الدينية!

خبر خطير كهذا كان يجب أن ينشر كاملاً حتى نقف على ما يدبر لمصر وقيادتها الوطنية، أما أن نأخذ ببعض تفاصيل فيه فقط فهذا خطأ جسيم على المستويات كافة. ولست بحاجة إلى الحديث عن المعلومات التى أصبحت متاحة فى الهواء الطلق. ولوى عنق الأخبار من مصادرها أمر زمانه ولى.

الملحوظة الثانية الأخطر بالنسبة للمنشور فى الأهرام، أن الرئيس مبارك لا يحتاج إلى شهادة من الخارجية الأمريكية بخصوص بناء الكنائس أو المساجد، وإذا كانت الخارجية الأمريكية قد سمحت لنفسها أن تذكر تفاصيل كهذه فيجب أن نستنكر ذلك، وأن نكشف خطورته لقومنا، فهذا تدخل سافر فى شأن داخلى بحت يخص مصر وحدها، وهو لن يرضى الأقباط كما لن يرضى المسلمين. إن مصر أقدم وأعرق بلد فى العالم يجب ألا يعامل هكذا، غير مسموح، ولن نقبل من قوة خارجية أيا كانت التدخل فى أمور من صميم شأننا الداخلى، ولكم أتمنى أن تعد الخارجية المصرية تقريراً عن الحالة الدينية فى الولايات المتحدة، والعنصرية أيضا، وقضايا التمييز العنصرى. من الغريب حقّا أن يصدر مثل هذا التقرير عن دولة ما تزال فيها العنصرية قضية قائمة. إذا كانوا قد سمحوا لأنفسهم بالتدخل فى شئوننا، فلنتدخل فى شئونهم، فإذا لم نستطع، فلنرفع الصوت عاليًا برفض هذا التدخل السافر.

وفى حدود ما نشر فى الأهرام، فلا يسعدنى ولا يسعد أى مواطن مخلص قبطى أو مسلم هذه الإشادة ببناء الكنائس، لأن من يضع نفسه فى موقع الإشادة، يمكنه ببساطة أن ينتقد. وهذا ما حدث للأسف فى نفس التقرير ولم تبرزه المراسلة فى واشنطن.

الخطير ما تضمنه التقرير عن حدود الحرية الدينية فى مصر والسعودية. هذا ليس تدخلا فى الشأن الداخلى، لكنه اتهام خطير، اتهام يجب أن نرد عليه، وأن ننتبه إلى خطورته، خاصة أنه يصدر عن قوة عظمى ترى أنها المتحكم الوحيد فى العالم. ولننتبه إلى ما يجرى فى أماكن أخرى، منها الآن إندونيسيا التى يستهدف الغرب إضعافها.

يتجاهل التقرير تماما دولة إسرائيل العنصرية، القائمة على أساس دينى، والتى لا تسمح للمسلمين بدخول المساجد فى كثير من الأحيان، وسهلت اغتصاب دير قبطى مصرى. إن مجرد قيام إسرائيل على أساس دينى يضعها فى مقدمة الدول التى تضيق على الأديان الأخرى، ومع ذلك تجاهلها التقرير تماما. إن مصر بلد قائم على التسامح، والمسلمون والأقباط فيه أبناء شعب واحد، ومصر البلد المتحضر العريق لا يمكن مقارنته بأى بلد آخر.

هذا التقرير خطير، ولكم أتمنى نشره كاملاً حتى نعرف ما يدبر لنا فى المستقبل، فثمة أمور أخطر يمكن أن تبدأ بإشارات كهذه أو اتهامات صريحة سرعان ما تتطور إلى حملات سياسية أو عسكرية. فلننتبه، ولكن قبل الانتباه يجب أن نعرف، أن نطلع على الأمور فى جوهرها وحقيقتها حتى يمكن التعامل مع الواقع الفعلى، وليس الذى نتمناه نحن!

إلــى أيــن؟

كـان المتـحدث من الصـعيد، يمت إلى صـديق عزيز من أهالى سـوهاج بصلة، قال إنه يريد المقابلة، فلم أتردد، على الفور حددت له موعداً صباح اليوم التالى.

الحادية عشرة كان يجتاز باب مكتبى. لم أره من قبل، شاب فى حوالى الثانية أو الثالثة والعشرين، يرتدى قميصاً رمادياً، وبنطلونا أسود، كلاهما تم كيّه بعناية. أما الحذاء فبدا مجهداً، متعب الجلد، وما من شيء يدل على حال الإنسان مثل حذائه.

أبديت الترحيب والمودة، وتطلعت إليه مستفسراً، متسائلاً، وإن خمنت الهدف الذى جاء من أجله. كان هادئا، صوته ذو نغمة واحدة، عيناه تشعان بذكاء هادئ وعنده حضور خجول.

قال إنه جاء بعد أن ضاقت به الحال، إذ تخرج منذ عامين من كلية إعلام سوهاج، وطرق أبواباً عديدة ليجد فرصة عمل، لكن كلها مسدودة. قال إنه عمل لمدة شهر واحد فقط كاتباً فى فندق صغير، حل مكان موظف أصلى لحقه مرض وعندما صح، عاد إلى الخواء، إلى البحث عن فرصة عمل، لقد درس الإعلام، وإنه يود العمل به.

سألته عما إذا كان قد تقدم إلى جهة ما؟

قال إن الأمر يحتاج إلى وساطة.

تطلعت إليه صامتًا. شيء ما في ملامحه أثار حزنًا عميقًا عندي. بدا مهذبًا، عميق المعاناة، لقد طرق بابي ظنًا منه أنني ذو نفوذ، يمكنني أن أساعده، ألست صحفيًا معروفًا، ورئيسًا لتحرير جريدة أسبوعية، وكاتبا له روايات عديدة، كما أنني أظهر في التليفزيون من حين إلى آخر؟

لم أشأ أن أقول له إن من جاء يستعين به لا يملك ما يمكن أن يعين به، ليس له من الأمر شيء. منذ ثمانية وثلاثين عامًا كنت في موقفه، وساعدني الدكتور سيد عويس، والكاتب والفنان الكبير، العظيم عبد الرحمن الخميسي، والمفكر أمين عز الدين أطال الله عمره، ومن بعد هؤلاء الأستاذ محمود أمين العالم. كان لوساطة كاتب أو عالم قيمة، وكان المجتمع يقدم الفرص لأبناء الكادحين. أما الآن فقد ضاقت الفرص إلى حد مروع، وأصبح الباب مسدودًا في وجوه الملايين من الطلاب الذين يتخرجون من الجامعات ومدارس التعليم المتوسط إلى مجتمع لا يقدم إليهم إلا فرصا دعائية، يمضون إليها فلا يجدون إلا الوهم والمعاناة.

رحت أتطلع إلى الشاب وحزني يعمق، لقد ثابر، وصان نفسه عن الزلات، وتحمل أهله ما تحملوا، أدى ما عليه، سهر الليالي، وأنفق الوقت الثمين، والجهد الأعظم، ثم أنهى دراسته ليجد الخلل قائمًا. فالحكومة تنفق المليارات على التعليم، على تخصصات في الجامعة لم يعد لديها فرص عمل حقيقية، لم تعد البطالة قاصرة على خريجي الكليات النظرية، ومدارس التعليم المتوسط، الفني، والمعاهد المختلفة، إنما طالت كليات ونوعيات دراسة لا يدخلها الطلبة إلا بالجهاد الصعب، مثل التجارة والهندسة والمعاهد الفنية العليا. يخرج الملايين كل عام ليجدوا مجتمعا لا يوفر لديهم الحد الأدنى، مجرد مصروف اليد، وينظر هؤلاء إلى الخريطة

القائمة، والواقع الماثل، فلا يجدون موضعًا لهم، أين يذهبون؟ ماذا يفعلون؟ أين يذهبون فى مجتمع تقوم فيه العلاقات على أساس القوة، القوة فى الثروة، فى النفوذ، لقد أصبح نظام التعليم القائم فى حاجة إلى إعادة مراجعة جذرية، إنه أشبه بالوهم، هذا نظام كان مناسبًا لبلد كان فيه عدد ضخم من شركات القطاع العام تحل مشكلة البطالة، ونظام القوى العاملة الذى تتم السخرية منه الآن.

ولكن تبدل الوضع الآن، فالشركات الخاصة الآن تطلب نوعيات معينة من الخريجين (الأولوية لخريجى المدارس الأجنبية، والآن الجامعات الأجنبية). يحتاج موضوع البطالة، أو خطر البطالة إلى مؤتمر قومى لدراسته، وإلى مواجهته بصراحة شديدة.

تطلعت صامتًا إلى الشاب الهادئ، المنتظر، لا أرغب فى أن أنطق بعجزى عن مساعدته، أو أسد فى وجهه أبواب الأمل، سوف أسبب له ألما شديدا، وبقدر ما يتألم يكون ألمى.

وخلال صمتى تذكرت عنوانا قرأته صباح ذلك اليوم، يقول إن سبعة عشر مليونا ونصف مليون طالب التحقوا اليوم مع افتتاح الجامعات والمدارس، هل يفكر أحد فى معنى هذا العدد؟ واحتياجات هؤلاء الذين سيتخرجون إلى البطالة؟!

طال الصمت بيننا، وكأنه أدرك بذكائه الواضح ما يمكن أن أقوله، فإذا به ينهض واقفًا، يقول:

«أعتذر لإزعاجك..».

تطلعت إليه صامتًا، وعندى رغبة شديدة فى البكاء، وعندما ودعته لم أدر إلى أين ذهب. وهل سألقاه مرة أخرى أم لا؟

انتبـــــاه

تتحرك الآن القوى الصهيونية فى الولايات المتحدة بنشاط ضد مصر ، ودورها التاريخى الذى يعد محصلة عوامل عديدة منها التاريخى والحضارى والجغرافى والسياسى، وهذا ما لا تستطيع أجهزة الحواسب الآلية التابعة للولايات المتحدة أن تستوعبه.

القوى الصهيونية تضغط وتتكتل فى اتجاه إصدار القانون الخاص بالدول التى تمارس الاضطهاد الدينى ضد الأقليات، وقد تضمن إشارة واضحة إلى السعودية والصين والسّودان ومصر. ورأيى أن مصر هى الهدف الحقيقى من إصدار هذا القانون الأول من نوعه، إذ إنه من حيث الجوهر قانون داخلى سيطبق على المستوى الخارجى، أى أن الولايات المتحدة بتأثير غطرسة القوة سنجد أنها تَعُدّ نفسها بديلا للمنظمات الدولية. العالم كله مجال لقوانينها الداخلية، وليس من المستبعد أن تتمادى فى المستقبل، وتحدد مواعيد النوم واليقظة لشعوب الكوكب، ونأمل أن تراعى عندئذ فروق التوقيت!

لا يخفى على أحد أن الهدف الحقيقى من هذا القانون، هو مصر.

إن المواجهة الحضارية طويلة الأمد بين مصر وإسرائيل فى المنطقة. هذا ما يجب أن نعد أنفسنا له. وإسرائيل التى يحكمها الآن التطرف والتعصب تسعى إلى السيطرة على المنطقة، على العالم العربى. والنموذج المثالى

للعـلاقة التى تريدها، تلك القـائمة مع الأردن، حيث مكاتب الموسـاد فى عمان، وتأجير الأراضى العربية لسنوات طويلة، وعلاقة حميمة بين الملك حسين وإسرائيل (اعترف الملك أخيراً فى الحلقات التى أذاعـهـا التليفزيون البريطانى عن دولة إسرائيل بمناسبة مرور نصف قرن على إعلانها أنه ركب الطائرة وذهب إلى جولدا مائير ليبلغها باستعدادات مصر وسوريا للهجوم على إسرائيل. كـان ذلك قبل حرب أكتـوبر بأيام. ولكن جولدا مـائير لم تصدقـه، وقـالت إنهـا تثق بتقارير المخـابرات الإسرائيليـة. ولى عـودة إلى موقف الملك حسين هذا).

فى الأسبوع الماضى نشرت الصحف الإسرائيلية تقريرا تم تسريبه من المخابرات إلى الصـحف حول تحديث الجيش المصرى وخطورة ذلك على إسرائيل، وجاء فـيه أن القـوات المسلحـة المصرية تمتلك طائرات حديثة، وتتدرب بانتظام على مواجهة إسرائيل. يجىء تسريب هذا التقرير فى نفس الوقت الذى تتحرك فيه القوى الصهيونية لإصدار هذا القانون الغريب.

وتسـاند القوى الصـهيونيـة مجمـوعة من المتطرفـين الأقبـاط وهم قلة محدودة جداً. وأنبه هنا إلى خطر إطلاق تعبـير أقبـاط المهجـر على تلك القلة. لقد زرت الولايات المتحدة والتقيت بأقباط مصريين يتصدون لهذه القلة المتطرفة، وهم مـرتبطون بالوطن الأم، ولست فى حاجة إلى الدفاع عن وطنيتهم، ولكننى أنبـه إلى هـذا الخطإ الذى قـد يخلق شعـوراً بـالعداء تجاه أبرياء ليس فى الخارج فقط، إنما داخل الوطن أيضًا.

لقد قـرأت عن مؤتمر عـقد أخيـرا فى بيروت ضـم أطرافًا من المسلـمين والمسيحيين للتصدى لهذا القانون، وهذا تحرك محدد ومطلوب على أوسع نطاق داخل مصر. أتمنى أن تستنفر القوى الوطنية لمواجهة هذا الخطر، وثمة مؤشرات إيجابية تقول إن النبض قوى، وإن الروح الوطنية سارية، تنبض،

رغم دعاوى الأمركة، ومحاولات تدمير الذاكرة الوطنية. ولنتأمل الموقف ضد الاحتفال بغزوة بونابرت، ومحاولة الحكومة خصخصة قناة السويس.

إن إصدار هذا القانون مقدمة لقرار لن يطول انتظاره كثيراً بحصار مصر. ولنتذكر أن ثلاث دول عربية تحت الحصار الفعلى الآن. للأسف ليس لدى العرب قوة ضغط فى الولايات المتحدة يمكنها أن تؤثر فى الكونجرس، ولكن الولايات المتحدة تحسب مصالحها أيضًا، وأعتقد أن حركة شعبية واسعة تساهم فيها الأحزاب والنقابات والمنظمات الجماهيرية المختلفة يمكن أن تحدث صدى ما، ولو تم تصعيد حملة مقاطعة البضائع الأمريكية وتعميمها عربيّا، فسيكون التأثير قويّا.

طوال سنوات والتساؤل يتردد عن مشروع قومى يستنفر الهمم ويتضمن تحديًا، وأثق بأن مواجهة هذا القانون نقطة كفيلة بتجميع القوى كافة واستنفار القوى الكامنة. إن إسقاطه فى الكونجرس يبدأ من هنا، من مصر، فهل نعى؟

القنبلة .. واندونيسيا

حدثان أثارا البهجة فى زمن تنعدم فيه مصادر البهجة.

أما الأول، فهو تفجير الهند لقنبلتها الذرية، رغم انزعاجى لخطورة التجارب من هذا النوع على الحياة البشرية، وعلى الكوكب الذى نعيشه. ولكن الظلم الذى يعيشه العالم الآن يوصل الإنسان إلى لحظة لا يقرر فيها تحسين وسائل الحياة، بل المفاضلة بين أنواع الموت. وإذا كان أصحاب الجبروت يريدون الاحتفاظ بالقوة المهلكة بمفردهم لتهديد الضعفاء والمقهورين، فلماذا لا يحاول الضعفاء أن يمتلكوا من القوة ما يتحقق به ولو قدر ضئيل من الردع للقوة الطائشة؟

من هنا مصدر البهجة بامتلاك الهند للسلاح النووى. وإننى أتمنى أن نفاجأ يومًا قريبًا بأخبار تفجير إيران قنبلة نووية، أو باكستان، أو أى دولة إسلامية أخرى. أما امتلاك دولة عربية لقنبلة نووية فيبدو أن هذا يقع خارج دائرة التمنى الآن وإن كان الأمر «ليس مستحيلاً». إن العالم الذى تحكمه شريعة الغاب الأمريكية يحتم على كل من يعيش فيه أن يحمى نفسه، وهذا مشروع جدًا، ومبرر جدًا. وامتلاك قنبلة نووية إحدى وسائل حماية النفس والذات.

على المستوى الإنسانى أتمنى أن يسود السلام كوكبنا الأرضى، أن يتم نزع السلاح النووى الذى يهدد الحياة البشرية، لكن هذا أمل طوباوى يبدو

بعيدا الآن، إذن حتى يتحقق، يجب على المستضعفين فى الأرض، أن يجدوا وسيلة لحماية أنفسهم، ومن أهم تلك الوسائل امتلاك سلاح الردع، بل إن امتلاكهم لهذا السلاح قد يعجل بنزع السلاح التدميرى نفسه، عندما تدرك البشرية أن الخطر يهدد وجودها ذاته بكل فصائلها، الثرى والفقير، القادر والعاجز. أتمنى أن يحين اليوم الذى يتحقق فيه ذلك، ولكن إلى أن تحل تلك اللحظة لا بد من العمل الدءوب والمستمر للوصول إلى يوم تمتلك فيه الدول العربية أو الإسلامية قنبلة نووية، إنها الوسيلة الفضلى الآن لحمايتنا من الإبادة، من الانقراض المنظم لنا.

بالطبع ظهر رد الفعل من جانب الولايات المتحدة، وجرى الحديث عن عقوبات ضد الهند، وهى عقوبات يمكن للهند استيعابها. ولكن المثير هنا أيضًا، لماذا لم تنطق الولايات المتحدة بكلمة واحدة عن القوة النووية الإسرائيلية؟ هذه القوة التى جرى إنشاؤها بمعونة غربية وربما أمريكية تحديدًا، لماذا لا يتحدثون عنها وعن خطورتها فى المنطقة؟ ولماذا لا يستجيبون إلى النداء الذى أطلقته مصر منذ سنوات عن ضرورة إبقاء منطقة الشرق الأوسط خالية من السلاح النووى؟ مرة أخرى نجد أنفسنا أمام الكيل بمكيالين وانعدام الضمير السياسى والإنسانى. إذن.. مرحبًا بالقنبلة النووية الهندية، وعقبى للقنبلة النووية الإسلامية، والعربية.

أما الحدث الثانى، فهو بالطبع ما جرى فى إندونيسيا. لقد كنت أتابع ما يجرى عبر شاشات التليفزيون العالمية بدقة وعناية شديدة. ولنترك التفاصيل الآن جانبًا، لكن أهم ما يتأكد هو قدرة الشعوب على إسقاط النظم الفاسدة. إن المشاهد الإندونيسية التى رأيناها تذكرنا بالثورات الكبرى فى القرن، ثورة أكتوبر فى روسيا عام ١٩١٧، والثورة الإيرانية. الجموع فى مواجهة الدبابات، الطلبة فى مواجهة القمع، والدكتاتور الدموى الذى صعد عام ستة وستين على أشلاء أكثر من مائة ألف قتيل،

وها هو ذا يخرج مدحوراً مع أسرته الفاسدة، وهو يستعد لتجديد ولايته السابعة!

فى المقابل تأملت الزعيم الإسلامى أمين رئيسى، النحيل، الهادئ، المؤثر، زعيم حركة الأمة المحمدية. إن حديثه عاقل جداً، لا يهاجم الأدب أو الفن، لا يفتى بذبح النساء أو الأطفال كما يفعل أمراء الجماعات فى الجزائر، إنما يقود معركة سياسية ضد الفساد، ضد القوة العاتية بحكمة وصبر، هدفه الأساسى هزيمة الفساد ونصرة المظلومين فى مواجهة الأثرياء والفساد، إنه فهم جديد وعميق للإسلام يستحق منا الانتباه والإصغاء.

حقّا.. إنهما حدثان رائعان فى عالم شديد الكآبة.

الـدوام للشورى..!

أخيرًا، أخيرًا تنفست الصعداء. . ! شعرت براحة عميقة، وفرحة غامرة، وسعادة حقيقية، عندما قرأت فى الصفحات الأولى من الجرائد السيارة أن لجنة عليا فى الحزب الوطنى الديمقراطى اجتمعت، وأقرت ترشيح الدكتور مصطفى كمال حلمى رئيسًا لمجلس الشورى، والكاتب الأمجد، والجناب الأفخم والأسعد، ثروت أباظة وكيلا لمجلس الشورى، وآخر ثالث فليعذرنى القراء لأننى لا أذكر اسمه!!

منذ سنوات طويلة لا أدرى عددها، وزمن طويل يبدأ إذا لم تخنى ذاكرتى التى أصبحت ضعيفة، نحيفة، تتساقط منها الأسماء، وتهرب منها المعالم، وهذا من سنة الحياة، إذ بدأنا نطعن فى العمر ونتقدم فى السن، والعلل تدركنا واحدة بعد الأخرى، نحن جيل الستينيات الذى كان من المفروض أن يتولى أبناؤه مقاليد الأمور فى مواقع كثيرة، ولكن هيهات! هيهات! طالما أن مصر عامرة برجال مثل الدكتور مصطفى حلمى، والأديب ثروت أباظة! أطال الله فى عمريهما ومد لهما بقاءهما فى الشورى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها!

منذ سنوات بعيدة أتابع بدقة أخبار الدكتور مصطفى كمال حلمى، منذ أن كان وزيرًا للتعليم فى عصر الرئيس الراحل أنور السادات، وكان من أبرز إنجازاته الاعتراف بشهادة تعادل الثانوية العامة أظن أن اسمها الجى سى

إيه، أو الجى سى إم. المهم أنها تيسر دخول الجامعة بسبب سخامة الثانوية المصرية ورذالتها وصعوبتها على البعض.

وكما يقول مؤرخنا المملوكى القديم، الأثير عندى ابن إياس لو أنه يؤرخ له: «وما زال منذ ذلك الحين نجمه فى صعود، وحاله فى سعود، والكل راض عنه»!! حقًا، إن الرجل مثال للدماثة، وللأدب الجم، أراه فى نفس المكان منذ سنوات، يدير المناقشات وكأنه صامت لا ينطق، ويلقى الكلمات بأدب جم، وكله مهابة، ملامحه الهادئة جدًا، وشاربه الفضى المنمق، ونظراته الهادئة من تحت نظارته.

عندما قرأت أنه يخوض معركة الانتخابات أمسكت أنفاسى خشية، ولكن بعد أن انسحب القوم من أمامه وفاز بالتزكية حمدت الله كثيراً، وإن قرأت خبرًا فى جريدة يقول إنه استمر يخوض المعركة، كيف؟.. وضد من؟ لا أعرف.

رحت أعد الثوانى والدقائق والساعات والأيام، حتى تمت الانتخابات وفاز من فاز، وأعلنت أسماء الأعضاء الجدد.. خرج من خرج ودخل من دخل. ولمحت اسمًا أو اسمين جديدين، فخشيت ألا ينتخب الرجل الدمث مرة أخرى، وأن يحرم المجلس من الأديب ثروت أباظة. كنت أخاف بسبب مرضه وتثاقل حركته، وتعثر الألفاظ عند نطقه، شفاه الله وعافاه.

كنت أسأل نفسى، ترى.. من سيحل محلهما لو أنه ـ لا قدر الله ـ لم يتم انتخابهما؟ صحيح أن مصر عامرة، وتعدادها خمسة وستون مليونًا، وفيها من الخبرات والرجال ما يغطى حاجة القارة الإفريقية، ولكن من له هدوء الدكتور حلمى، ورسوخ الأديب ثروت أباظة؟ كيف يمكن لمصر أن

تستغنى عنهما؟ كيف يمكن لمجلس الشورى أن يكتمل بدونهما ، حتى لو كان أحدهما تجاوز السبعين والآخر يثقله المرض؟!

أعوذ بالله من التغيير ، ودعاته ، وطلابه! وإذا كنا - نحن الذين عدُّونا شبابًا إلى سنوات قريبة - نستعد الآ ن للرحيل الأبدى ، ونرى الوطن فى حالة تامة من الثبات ، والاستقرار التام ، فما الحاجة إلى التبديل والتغيير؟ أى تغيير يطالبنا به المتطلعون والمشتاقون ومن بقلوبهم مرض؟! لقد اعتدت الوجوه التى تطالعنا منذ ربع قرن ، كيف أودع عالما يخلو منها؟! لقد خلقوا ليظلوا ، ويبقوا إلى الأبد! أطال الله أعمارهم ، وأبقاهم فى أماكنهم .

أمضيت ليلى قلقًا ، حتى طالعتنى صحف الصباح بالخبر السعيد : الحزب يقرر : الدكتور مصطفى كمال حلمى رئيسًا ، وأباظة وكيلا ، وثالث أيضًا للوكالة . هتفت من أعماقى ، الدوام للشورى!

هذا التدخل السافر

هكذا تمضى الخطوات المعادية لمصر فى السياسة الأمريكية، والورقة التى يلوحون بها الآن، بل وبدءوا استخدامها فعلاً، الأقباط.

عندما قبلت دعوة السفير الأمريكى الجديد دانيال كيرتزير، كان أهم دافع لى أن أقول له مباشرة ما أراه فى سياسة بلده تجاه مصر والأمة العربية. تم اللقاء منذ أسبوعين، وفى نفس اليوم رأيت فى التليفزيون وفداً كنائسيّاً أمريكيّاً، رئيسه أمريكى أسود، يصرح فى التليفزيون بأنه لم يجد اضطهاداً للأقباط فى مصر.

ورغم إيجابية ما قاله فلم أكن سعيداً بما قال، ولن أكون سعيداً بأى أجنبى يأتى ليدلى بشهادة حسن سير وسلوك للمصريين أنهم يفعلون هذا ولا يفعلون ذاك.

إن من يقول بالإيجابى، يمكنه أن يقول بالسلبى. وعندما أسمع أمريكيّاً يتحدث عن علاقة المسلمين بالأقباط فهذا تدخل سافر فى الشأن الداخلى المصرى، وهذا ما يمس صميم المشاعر الوطنية المصرية عند الأقباط والمسلمين معاً.

قلت للسفير الأمريكى، إنكم قوة عظمى ماديّاً الآن، وما من قوة عظمى تستمر إلى الأبد إذا كانت تعتمد على القوة المادية والسلاح القوى،

ولست بحاجة إلى القول إن كل قوة عظمى مصيرها إلى اندثار. تلك سنة الحياة، وقانون التاريخ والحاضر. إن مصر قوة روحية وثقافية عظمى، حضورها الفاعل مستمر فى التاريخ والحاضر، ولذلك فإن منطلق العلاقات معها يجب أن يكون مختلفًا وله خصوصية. وأول الشروط اللازمة فهم تاريخ هذا الوطن، وخصوصية الشعب المصرى، قلت إننى عندما أصغى إلى حديث أمريكى عن الأقباط، عن أى ملاحظة تتعلق بشأن مصرى خالص فإننى أرفض ذلك على الفور، وهذا ينطبق على المسلم والقبطى معًا.

كان ذلك الحديث بالتحديد يوم الاثنين قبل الماضى. أصغى السفير الأمريكى جيدًا، وقال إنه يتفهم ذلك.

غير أن الأيام القليلة التالية حملت أمورًا مزعجة، إذ قرأنا عن إعلان قام بنشره بعض أقباط المهجر فى جريدة الواشنطن بوست. أقول بعض لأنه أتيح لى أن أتعرف خلال زيارتى الوحيدة - للعلاج - إلى الولايات المتحدة على أقباط مصريين يقيمون هناك منذ ثلاثة عقود أو أكثر، وهم بكل المقاييس نماذج مشرفة ورائعة للمصريين، ولا يوافقون على ما يقوم به البعض فى المهجر ضد الوطن الأم.

لم يكن هذا الإعلان إلا تمهيدا لهذا القرار الذى أصدرته إحدى لجان الكونجرس الذى حدد أربعة دول تقوم بممارسة الاضطهاد الدينى، مصر والصين والسودان والسعودية.

هنا نحن أمام تدخل سافر فى الشأن الداخلى، وهذا القرار يمهد لصدور عقوبات، ليس أهمها قطع المعونة الأمريكية التى ستتوقف بالفعل، لكنه يمهد لخطوات عملية، منها الحصار والعقوبات الاقتصادية، وربما التدخل العسكرى فى مرحلة لاحقة، فهل سنسكت حتى نستيقظ يومًا على

أخبار تقول إن الولايات المتحدة تمنع الطيران جنوب المنيا، أو شمالى قوص وقفط وجهينة؟

هذا قرار خطير يجب مقاومته، والوقوف ضده باعتباره ماسًّا بوطنيتنا، وفيه تحرش واضح بالقيادة المصرية الوطنية المتسقة مع نفسها ومع مكانة ومضمون الوطن الذى تمثله.

التحرك الشعبى فى مواجهة هذا القرار يجب أن يكون الأساس. وقد دهشت يوم الجمعة الماضى عندما قرأت فى صحف الصباح النبأ متواريًا، وأشارت إحدى الصحف المعارضة إلى السعودية بتعبير (دولة خليجية).

أتصور أن يبدأ هذا التحرك من خلال القيادات الدينية الإسلامية والقبطية، وأن تستنفر الهيئات الشعبية فى مصر للتعبير عن رفضها هذا التدخل السافر للكونجرس الأمريكى الذى يسن قوانين أمريكية لتطبيقها على العالم. إن الإرهاب الدموى الذى تعيش بعض قياداته فى الولايات المتحدة يقتل من المسلمين أضعاف من يستهدفهم من الأقباط. وللعلاقة بين أبناء مصر من مسلمين وأقباط ميراث عظيم وثرى للوحدة الوطنية. وكانت هذه الوحدة تتجلى فى لحظات التعرض لتهديد خارجى. وقرار الكونغرس تهديد سافر، وينبئ بخطوات أخطر، لذلك يجب أن يكون رد فعلنا عنيفًا وقويًّا، فى مواجهة هذا القرار الأحمق الذى لا سابقة له فى العلاقات الدولية. إن الموضوع جد خطير، ويقتضى تكاتف مصر كلها.

لنصغ جيداً إلى المشير

نادراً ما يتكلم المشير طنطاوى، تصريحاته قليلة، صموت، عسكرى حتى النخاع، ماضيه وحاضره مشرفان بكل معنى الكلمة، فهو من أبطال حرب أكتوبر، خاض معركة شرسة من معارك الثغرة عندما كان ضابطاً بالمظلات، يضفى الطمأنينة والثقة. والحق أننى مطمئن، طالما أن قواتنا المسلحة قوية، متماسكة، بخير، حديثة، قادرة على الردع. بصعودها يصعد الوطن، وبقوتها تستقر الأمور، وهى الملاذ الأخير والمأوى.

منذ أسبوعين أدلى المشير بتصريح قال فيه إن الأوان قد حل لكى يكون للعرب قوة عسكرية موحدة، يتحقق من خلالها الأمن القومى. ومضى التصريح المهم بدون أن يتوقف عنده الكثيرون بالتأمل والتحليل فيما عدا الإعلام الإسرائيلى والإذاعة البريطانية.

أن يجىء هذا التصريح من المشير طنطاوى فى هذا التوقيت بالذات، فهذا يعنى الكثير. إن هناك فى القوات المسلحة المصرية إدراكا عميقا بحقيقة المخاطر التى تحيط بالأمة العربية، وإن هناك أسبابا فاعلة تعمق الإحساس بالخطر على المستوى القومى.

يجىء هذا التصريح فى وقت يعد الأسوأ بالنسبة للأمة العربية كلها، فثمة تشرذم لم تعرفه الأمة من قبل. بل إن تعبير الأمة نفسه أصبح غريب الوقع على الأذن الآن، بعد أن طال التشكيك كل شىء حتى المقدسات التى

نشأنا عليها، وشاهدناها، وعشناها. وتبدو حرب الاستنزاف للأسف هدفًا سهلاً لأن من خطط لها هو الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، والهجوم على عبد الناصر مباح. أما الرئيس السادات فله من يدافع عنه ومن يتصدى للذود عنه. لقد ترك عبد الناصر مبادئ، وترك السادات مصالح. ولكن للسادات إنجازا لا ينكره عليه حتى معارضوه وهو حرب أكتوبر، ولا أدرى الوقت الذى سيخرج علينا فيه البعض ليقول إن حرب أكتوبر كانت غلطة، وسوف تستمر محاولات تدمير الذاكرة الوطنية والقومية، وسوف يشارك البعض بحسن نية والبعض الآخر بسوء القصد. والحقيقة أننى لم أقرأ ولم أعرف أمة جرى استباحة تاريخها مثل أمتنا، سواء المصرية أو العربية.

يجيء تصريح المشير طنطاوى فى وقت بلغ اليأس مداه، والخنوع صار علامة لكل العرب الذين لا يفهمون مكونات حضورهم. لقد تعمق التشرذم، وتقوقع كل قطر على نفسه، وازدادت المسافات النفسية شسوعًا.

إن إيجاد قوة عسكرية عربية واحدة أمر يبدو حلمًا الآن، بل إنه حلم بعيد المنال، فالأقطار العربية تنفق على شراء السلاح معدلات عالية جدًا، ولكنه تكديس لسلاح حديث لا فائدة منه عند الوقت الحرج. بل إن الدافع على شراء هذا السلاح العمولة المرتفعة، أو فرض الصفقات من شركات السلاح الأمريكية بالتحديد.

والاختلاف بين الجيوش العربية فى النواحى الفنية مشكلة كبرى. أذكر خلال حرب أكتوبر أن قوة عراقية كانت قد وصلت إلى الجبهة السورية، وفجأة صاح أحد الجنود:

«سمتية فى الجو.. سمتية فى الجو»!

ولم يدرك المقاتلون العرب الآخرون ماذا يقصد. فبالنسبة للسورى تعنى السمتية عنده «الحوامة» وعند المصرى «الهليكوبتر»، هذا مجرد مثل،

وهناك محاولات موجودة بالفعل فى الجامعة العربية لتوحيد المصطلحات العسكرية العزبية، ولكن هذا يدخل فى باب التفاصيل.

لقد جعلنا تصريح المشير طنطاوى عميق الدلالة والمغزى ننساق وراء الأحلام، فكأن الوحدة العسكرية أقرت بالفعل، ولم يبق إلا توحيد المصطلحات، وشبكات الاتصال، وأنواع السلاح. لكن من يدرى؟ فربما يكون هذا التصريح بداية يقظة حقيقية على كل المستويات. فأن يصدر عن القائد العام للجيش المصرى فهذا له مغزاه، وأن يتكلم قائد جيشنا بهذا المعنى فهذا يعنى إدراك الخطر، والوعى الأتم بالمسئولية القومية التى تتآكل مفرداتها فى خضم هذا الإحباط المهيمن، وفى مواجهة العربدة العسكرية الإسرائيلية والصلف الصهيونى.

إن هذا التصريح صيحة تحذير أيضًا لكل العرب. وعندما يأتى من مصر فلا بد أن يصغى العرب، وعندما يأتى من المشير الذى لا يتكلم إلا نادراً، فعلى الكل أن يصغى من المحيط إلى الخليج.

الدفـاع الجـوى

الثلاثون من يونيو.

مر فى هدوء، باستثناء برنامج تليفزيونى تحدث فيه قائد قوات الدفاع الجوى، برتبة فريق. الثلاثون من يونيو، يوم أصبح عاديا مثل كل الأيام، لكنه فى ذاكرتى حى بجميع تفاصيله، وفى ذاكررة الوطن التى يستهدفها البعض الآن.

هذا اليوم من الأيام المهمة فى مسار حرب الاستنزاف، إذ بدأ فيه تساقط الطائرات الفانتوم والسكاى هوك الأمريكية الصنع، الإسرائيلية الأداء فى سماء الجبهة المصرية، وكانت الفانتوم، إف، ٤، من الطائرات التى أحيط وصولها إلى إسرائيل بدعاية مركزة ومكثفة.

كان القتال قد بلغ درجة من الحدة فاقت كل ما جرى منذ بدء حرب الاستنزاف فى مارس عام تسعة وستين وتسعمائة وألف رسميّا. كان الصراع فى جوهره يتلخص فى محاولة إسرائيل منع القوات المسلحة المصرية من بناء شبكة الدفاع الجوى المصرى، وكانت مصر قد نجحت فى حماية العمق، ولكن بقيت المنطقة الأصعب، الجبهة الممتدة على ضفتى القناة. كان بناء قواعد الصواريخ فيها يشهد إصراراً من الجانبين، إسرائيل تضرب بأقصى قوتها لمنع إقامة القواعد التى ستهدد طيرانها المتفوق، ومصر

تقدم كل التضحيات الممكنة لتبنى هذه القواعد، وكان ما نسميه وقتئذ بطولة هو الخبز اليومى لحياتنا.

كان العمال الصعايدة الفقراء، عمال التراحيل الذين شيدوا المدن والحضارة يجيئون من الجنوب ويدخلون إلى الجبهة، وبمجرد ظهورهم، وبدء التخطيط بالعلامات لموقع القاعدة، يجىء الطيران مرتفعًا ومنخخفضًا، ويقصف بقنابل الألف رطل والمسامير والنابالم، وكل ما هو محرم دوليّا. وتختلط أجساد الشهداء بمواد البناء. فى ليلة واحدة استشهد أكثر من مائة عامل صعيدى وجندى وضابط غربى السويس، وفى اليوم التالى جاء أكثر من مائتى عامل ليتموا ما بدأه شهداء الأمس. رأيت هذا بأم عينى، لم يحدثنى به أحد، ولم أقرأه، لكننى عشته.

لم يكن دخول القواعد سهلا. وحتى تكون الفكرة مجسدة، كانت كتيبة الصواريخ وقتئذ تتكون من ست وثلاثين عربة نقل، وكانت معدات التوجيه تحتاج إلى منصات إطلاق، وخنادق من الأسمنت المسلح لعربات التوجيه والقيادة. وابتكر علماؤنا أعمدة الخرسانة سابقة التجهيز، وطرقا خاصة للإنشاء، وازداد الطيران الإسرائيلى شراسة.

هنا، كان المطلوب عملاً ذا روح فدائية، وسرعان ما تقدم الرجال. واجتمع جمال عبد الناصر بقادة الكتائب، وكان كل منهم برتبة مقدم، وحضر الاجتماع الفريق محمد على فهمى، واللواء أحمد سلامة غنيم قائد الفرقة الثامنة دفاع جوى التى كانت مكلفة بالدفاع عن الجبهة، أطال الله عمر الفريق فهمى. أما اللواء غنيم والذى كان شخصية فذة بكل المقاييس، فلا أعرف أخباره، إذ انقطعت عنى منذ سنوات طويلة، لكننى أقول إنه واحد من أعظم الرجال الذين عرفتهم فى حياتى ولى عودة إلى الحديث عنه.

كانت المهام الانتحارية لقادة الكتائب، دخول الجبهة على المكشوف، بدون قواعد، ونصب معداتهم وصواريخهم فى كمائن متقنة، وإسقاط طائرات العدو المميزة.

كانت المهمة صعبة، ولكنها ضرورية. وأقدم الرجال، وقُدر لى أنا وزميلى مكرم جاد الكريم نتيجة تواجدنا المستمر فى الجبهة أن نشهد سقوط أولى طائرات الفانتوم الإسرائيلية محترقة فى منطقة أبى سلطان جنوبى الإسماعيلية، وحققنا خبطة صحفية بمقاييس المهنة، وشهدنا لحظات إنسانية عميقة فى صحراء الإسماعيلية.

ولم يخطر ببالى منذ ثمانية وعشرين عامًا، أن مثل هذه الذكرى ستمر شبه مجهولة، وأن الحرب التى جرت فى إطارها واستشهد فيها الآلاف من أبناء هذا الوطن، سوف تصبح موضعًا للهجوم من جانب بعض الذين بوأهم هذا الوطن نفسه مكانًا رفيعًا. إنه منطق الزمن الذى اختلط فيه كل شىء، ولم يعد عند البعض قيمة لأى شىء، إننى أستعيد الثلاثين من يونيو بإكبار، وأثق بأن الوطن لن ينسى.

بيـــع الأصـــول

قال الدكتور عاطف عبيد، أحد وزراء الخصخصة يرد على الانتقادات الموجهة ضد خصخصة أحد البنوك الأربعة الكبرى، إن هذه الانتقادات لا محل لها من الصحة، لأن البنوك فى الأصل مشروعات خاصة، أنشأها أفراد. قال ما معناه: إنها تعود إلى ما كانت عليه.

وهذا كلام ينطبق عليه القول المأثور «حق يُراد به باطل»، فهو حق من ناحية الشكل اللغوى فقط، ولكنه باطل، باطل، تمامًا. فبنك مصر الذى سيعرض للخصخصة قريبًا لم ينشئه طلعت حرب، إنما جاء نتيجة تطور تاريخى، وثورة كبرى ضد الاحتلال الإنجليزى وكل ما هو أجنبى. لقد كان وراء إنشاء بنك مصر شخصية وطنية عظيمة، هو طلعت حرب العقلية الاقتصادية الكبرى، ومؤسس الرأسمالية المصرية الحديثة. بنك مصر ليس بنكًا عاديا أسسه فرد، إنما هو محصلة تطور تاريخى واقتصادى واجتماعى، ولن أقول إنه رمز، فنحن نعيش فى حقبة من الصعب القول فيها إن هذا رمز، فلن يبعث مثل هذا القول إلا السخرية عند أهل المال الجدد الذين تمهد لهم الأرض للسيطرة على مقدرات هذا الوطن.

قيل لنا فى البداية إن الخصخصة لن تمس إلا المشروعات الخاسرة حتى لا تشكل عبئًا على الدولة، وفوجئنا بأن ما يطرح للبيع أنجح المشروعات، وبالطبع كان الرد البديهى على الحجة الأولى: ومن سيشترى مشروعًا

خاسراً؟ لكن كان من الواضح أنه من المطلوب تمرير فكرة البيع في حد ذاتها.

القول بالبيع للمشروعات الخاسرة، ثم بيع المشروعات الرابحة بالفعل، ثم بيع المشروعات الكبرى. لا أفهم كيف يُعرض مشروع ناجح ورابح ويحفظ التوازن الاجتماعي في الصعيد مثل مجمع الألومنيوم للبيع؟. مجمع الألومنيوم معروض لبيع بثمن بخس، بثلاثة مليارات جنيه، أي أقل من مليار دولار، وهذا أقل من ثمن المنشآت المقامة داخل المصنع.

الآن، نفاجأ بأن الخصخصة ـ هذا التعبير الغامض الذي تتحايل به الحكومة على اللغة لتمرير فكرة البيع، بيع كل شيء ـ تطول الأصول. وما البنوك الكبرى إلا بمثابة أصول الاقتصاد الوطني، فإذا تم بيع هذه الأصول، فماذا يبقى إذن؟

من سيشترى؟

أهو أحد الأسماء القليلة التي تتردد منذ سنوات، تلك المجموعة الضيقة التي يطلق عليها اسم رجال الأعمال، ومعظمهم وجوه وافدة، لم يكن لها وجود حتى في السبعينيات، عندما بدأت الخطى الأولى لسياسة الانفتاح.

البنوك المصرية هي محصلة مدخرات ملايين المصريين الشرفاء، الكادحين، أولئك الذين يعيشون على عائد الفائدة المحدود، كيف تسلم مدخرات وأموال المصريين إلى من لا نعرفهم؟

كيف يمر قانون خصخصة البنوك بهذه السرعة العجيبة في مجلس الشعب؛ ويبدو الأمر كأنه استيفاء إجراءات شكلية فقط، مع أن الموضوع يمس الملايين من المصريين، حاضرهم ومستقبلهم؟

منذ سنوات ثارت ضجة هائلة حول شركات توظيف الأموال، وضاعت على المصريين أموالهم التى لم يستردوها حتى الآن، وكانت البنوك المصرية تبدو كقلاع، كبرى صامدة، ثم سمعنا أن بعض رجال الأعمال الجدد اقترضوا من هذه البنوك مليارات، وأن مديونية أحدهم تجاوزت المليار ونصف المليار، وأنه يستثمر هذه الأموال فى الخارج.

واضح أن البنوك الكبرى صارت هدفًا. واضح أن سياسة ما مجهولة تنفذها الحكومة بليل، وأنها تسفر عن تفاصيلها المخيفة، ويتم هذا كله فى خواء مطلق، وبعيداً عن أى مناقشة حقيقية. لقد قرأت ما كتبه مفكرون يشجعون الاقتصاد الحر، مثل الأستاذ سعيد سنبل، والدكتور نعمان جمعة وغيرهما، والكل يحذر من تدمير الاقتصاد الوطنى، وسيطرة الأجانب مرة أخرى، خاصة بعد بيع البنوك، أى بيع الأصول، فأى مستقبل ينتظر هذا الوطن؟

الكحلاوى

رحم الله الحاج محمد الكحلاوى رحمة واسعة. رحمه الله لأنه أمتعنا وأطربنا وشكل ركنًا جميلاً من ذكرياتنا عنه كفنان، كمطرب، كمنشد. رحمه الله رحمة جميلة لأنه أنجب لنا عالمًا أثريًا، نبيلاً، كأنه ضمير، لم نكن نعرفه، ولم نسمع به، لكنه طالعنا من خلال برنامج الإعلامى الموهوب ـ وصديقنا العزيز الذكى، الألمعى، مفيد فوزى ـ حديث المدينة والذى خصصت الحلقة الأخيرة منه لموضوع باب العزب.

الدكتور محمد محمد الكحلاوى هو من سيتبقى فى ذاكرتنا إلى جانب الأديبة الكبيرة، المقاتلة الصلبة، المثقفة، الموهوبة، بنت هذا الشعب النبيل سكينة فؤاد، وهناك من لم يظهر على الشاشة لكنهما كانا غائبين وحاضرين أيضًا، أعنى الدكتورة نعمات فؤاد، والشاعر الكبير فاروق جويدة. هؤلاء كانوا بمثابة ضمير، ومثالا يثبتون به إخلاص المثقف المصرى، وصلابته فى مواجهة الفساد والتحلل، وربما كان الفساد الاقتصادى مقدورا عليه، يمكن معالجته بقرارات. كذلك الفساد السياسى، يمكن التغلب عليه بالتغيير. ولكن الفساد الثقافى يصيب الروح ويبطل الوجدان، ولنا الله من قبل ومن بعد، والصبر الجميل، وليس بوسعنا إلا الثبات، وقول الحق، وما يتفق مع الصالح العام، ولنا فى المثقفين الأربعة الذين ذكرتهم أسوة حسنة.

إننى معجب حقًا بذكاء الأستاذ مفيد فوزى، إذ يبدو برنامجه كساحة حوار حر، فيه الرأى والرأى الآخر، فيه الموافقة وفيه المعارضة، لكننى أهمس فى ذهن الأديب، اللبيب، مفيد، أن الحلقة الأخيرة، كان بها بعض الثغرات.

الشخصية المركزية بالطبع هو المسئول الكبير، والكل يدور من حوله، حوار مع هذا وعودة إليه، حوار مع ذاك وعودة إليه. ورغم المساحة الزمنية وعدم التوازن، فقد أخل بها منطقه الضعيف، وتهافت حجته. فالقضية عنده بتساوى فيها الحق بالباطل، ليس الأمر تحويل أثر إلى فندق، ولكنه يفترض أن كل المعارضين لم يروا الموقع، لم يذهبوا إليه.

هنا تقوم الكاميرا باستعراض المكان، مركزة على الجدران المهدمة، والسلالم المبعثرة، تمهل بطىء فى إظهار تدهور المكان، ولكن يبطل حركة الكاميرا المقصودة المخططة، هذا الصدق المخيف، النابع من القلب للدكتور محمد الكحلاوى إذ يصرخ متسائلا:

«من أوصل هذا المكان إلى هذا المستوى، إن الأمر يبدو مقصودًا، تمامًا مثل تجريف الأرض الزراعية وتبويرها للبناء عليها».

طبعا المسئول هيئة الآثار التى لم تعد عمليًا موجودة منذ أن حلها السيد الوزير وحولها إلى مجلس أعلى يرأسه هو الذى لا خبرة له بالآثار، وما بين الترغيب والترهيب تضيع اللجان.

طبعًا المسئول انتهاك قانون الآثار، لو أن مواطنا أزال حجرًا أو دق مسمارًا فى واجهة أثر لعوقب وتم تجريمه، ولكن أن يقوم السيد الوزير ببناء فندق كامل مع الجانب الإيطالى (لماذا الإيطالى أيضًا؟)، فهذا الأمر تتم

مناقشته بروح تبدو رياضية، وكأنها مباراة فى الشطرنج. طبعًا تم حشد باقة من المؤيدين، بعضهم أعضاء مجلس شعب لهم مصالح، فى مجالات السياحة والاستثمار، وبعض أهالى الناحية المختارين بدقة وعناية، بينما الكاميرا تتحرك وتستعرض المكان القديم، المجنى عليه. ولا بأس من إجراء حوار مع إعلامى يعيش فى باريس، صديق حميم للوزير.

وعندما يتحدث الأستاذ مفيد عن الوزير الراحل عبد الحميد رضوان يشيد به، وباهتمامه وعنايته بالآثار. هذا صحيح. ولكنه نسى المسئول عن الآثار، آخر رئيس للهيئة، المرحوم الشهيد أحمد قدرى، الذى عزلوه ظلمًا، وأبعدوه قهرًا، وترك الرجل مصر كلها إلى اليابان وانفجر كبده ألمًا. إن الازدهار الحالى فى القلعة بفضله، وثمرة من ثمار جهده، للأسف نسيه الأستاذ مفيد.

الحق أن البرنامج كان مثيرًا، وكان التدقيق فى الملامح متعة بالنسبة لى، خاصة عند التحديق فيمن ينطق كذبًا، وترتفع درجة حماسته المصطنعة ليبرر الإفك، بينما المحاور العتيد، الأستاذ مفيد يدير حديث المدينة بذكاء ودهاء، يرصد من خلاله صدق الدكتور محمد، سليل الفنان الكبير محمد الكحلاوى، ورغم الدقائق المحدودة التى ظهر فيها، فإنه بصدقه كشف أبعاد الموضوع المدبر كله، وأثبت أن فى مصر ضمائر حية، لا تباع ولا تشترى، أمد الله فى عمره ورحم والده الحاج محمد الكحلاوى رحمة واسعة.

أى تنوير؟ .. أى ظلام؟!

الدكتور فؤاد زكريا ممن يُعتد بهم، ومهما اختلفنا معه، فلا بد أن نتوقف عندما يقوله. فآراء الرجل تصدر عن اقتناعات حقيقية، وهو ليس ذا هوى أو عنده غرض يخفيه. تاريخه فى العمل الثقافى طويل، ويكفى ما ترجمه فى حقل الفلسفة، والمؤلفات ذات الصلة بالموسيقى العالمية. وهو ممن نأخذهم مأخذ الجد.

هناك كتّاب ـ من أمثال ثروت أباظة وسعد كامل ـ لا يتوقف المرء عند ما يسوِّدون به الورق. وأمثالهما كثيرون فى صحافتنا التى تعانى عُسراً. تطالعنى كتابات ثروت أباظة فأعرف مقدمًا ما يخوض فيه. أما سعد كامل اليسارى بالتاريخ، فيصر على نشر صورته مع المقال (ملامحه شديدة الشبه بشيمون بيريز زعيم حزب العمل)، ويبدى حماسة غريبة لإسرائيل، لا أتعامل معه بجدية، لأننى ما زلت أثق فى بعض مما قرأته عن ماضيه الوطنى.

إذن.. لا بد أن نناقش فؤاد زكريا فيما يكتبه، نحاوره، ونختلف معه. لقد نشر مقالاً فى مجلة المصور صباح الخميس الماضى بعنوان: «أصل الحكاية فى مسألة الحملة الفرنسية». يقول فى تقديمه إنه أول من أثار هذه المعركة بمقال صغير يحمل عنوان «الحملة الفرنسية ودهاء التاريخ». ويبدو أن عمل الدكتور فى الخارج أفقده القدرة على المتابعة، إذ إن موضوع

الاحتفال بالحملة مثار للنقاش على صفحات أخبار الأدب منذ عامين ونصف العام على وجه التحديد، كما أثير على صفحات الدستور والأسبوع والأخبار والأهرام وروز اليوسف فى عهدها القديم. يمكن القول إن الموضوع مطروح بحدة للنقاش منذ فترة طويلة قبل ظهور مقاله فى الأهرام منذ شهور، والذى شبه فيه الحملة الفرنسية، بحملة الجيش المصرى فى اليمن، وهو ما لم يستوعبه فاروق حسنى جيداً فردده فى مجلس الشعب، مما أثار ضجة واسعة بين الأعضاء فى أثناء استجوابه دفعته إلى الاعتذار.

لاحظت فى المقال أن أستاذ الفلسفة، الرصين، الحكيم، يتخلى عن مناقشة الآراء المعارضة له، ويلجأ إلى السخرية، وإلى السباب الرخيص، وإلى أساليب بالية.

فواحد من الذين اختلفوا معه ليس سوى محتال يسعى بالغش والخداع إلى اعتراف الحياة الثقافية به!

وآخر مجرد (كويتب) يعرف أنه لا يستطيع أن يكتب جملة عربية صحيحة! ويؤكد أستاذ الفلسفة أن لديه من الوثائق ما يثبت ذلك.

ثم يقول إن وراء هذا كله تيارا يحرك المعارضة كلها، أسفر أخيراً عن وجهه، وأتاح له أن يعرف أصل الحكاية. هذا التيار هو التيار الإسلامى السياسى الذى ينظر إلى عملية الاحتكاك الثقافى مع فرنسا نتيجة للحملة على أنها كارثة الكوارث.

وينطلق الأستاذ فى الهجوم على هذا التيار، ويختتم مقاله متهمًا الذين عارضوا الاحتفالات بأنهم يساندون من حيث لا يشعرون التيار الظلامى. والتيار الظلامى تعبير يستخدمه التنويريون الأشداء فى مواجهة ما يسمونه التيار الظلامى الإسلامى.

والتنوير مصطلح له ظروفه التاريخية فى أوروبا، وشاع استخدامه عند بعض المثقفين فى مصر فى مواجهة المناخ الإرهابى الذى تحاول بعض الجماعات المتطرفة أن تفرضه. لكن هذا المصطلح يتسع عند البعض ليشمل تيار الإسلام السياسى كله، بل والإسلام أيضًا! وهذا خطأ فادح. فالإسلام ليس ظلامًا، كما أن بعض دعاة التنوير طلاب وظائف عليا، وأصبحت كلمة التنوير تثير السخرية فى كثير من الأحيان.

القضية الرئيسية التى تجاهلها الدكتور فؤاد زكريا: موقف المثقفين المصريين الوطنى فى مجموعه والرافض لفكرة الاحتفال بغزو عسكرى أجنبى للوطن، سقط فيه آلاف الشهداء: ولا أريد أن أذكر الدكتور بالبديهيات. الجوهر هو الدفاع عن ذاكرة الوطن، عن تاريخه، فى مرحلة عصيبة تجرى فيها محاولات شتى لإلغاء هذا الوطن نفسه من الذاكرة، وتدميره روحيًا. والمتأمل لمسار الأحداث خلال الشهور الأخيرة، سيجد أن الموقف الوطنى للمثقفين المصريين هو الذى فرض نفسه، ولا يجرؤ مسئول من هنا أو هناك الآن ممن رتبوا لهذه الاحتفالات على الإشارة إلى وقائع الحملة، وإن كانت الاحتفالات عام ثمانية وتسعين ذات مغزى.

إن الدكتور فؤاد زكريا عندما ينسب الموقف كله المعارض للاحتفال بالحملة إلى التيار الظلامى كما يسميه، فإنه يمنحه شرفًا عظيمًا، وقيمة كبرى لم ينفرد بها هذا التيار. وإذا كان التنوير يعنى إفقاد الوطن ذاكرته وخلخلة مفاهيم الانتماء، وقبول الإهانة لتاريخنا.. فبصراحة يصبح الظلام هنا نعمة كبرى! إن ما يقول به الدكتور فؤاد زكريا يُعَدّ أيضا واحدا من أنماط قلب المفاهيم وتزييف الواقع، وهذا ما لا ننتظره منه.

عيد الإعلاميين

فرصتنا للقاء الرئيس ـ نحن الكتاب والإعلاميين ـ تتاح مرتين فى السنة، الأولى فى معرض الكتاب عند افتتاحه فى يناير، والثانية فى عيد الإعلاميين. وحرصى على حضور اللقاءين ليس مصدره رغبتى فى الكلام، ولكن متابعة ما يدور بين الرئيس والعاملين فى الإعلام والأدباء والمفكرين، والإصغاء إلى آرائه وانطباعاته.

والرئيس مبارك مصرى، أصيل، بسيط. وأشهد أننى عند الوقوف أمامه، والحديث عن قضية ما، أشعر باطمئنان لا أجد مثله عند مخاطبة بعض الوزراء أو الأقل مسئولية. أما سعة صدره فأمر مشهود، معروف عند كل من حضر هذه اللقاءات.

هكذا سعيت إلى مبنى التليفزيون فى تمام السادسة من مساء الأحد قبل الماضى، امتثالا للتعليمات المكتوبة فى بطاقة الدعوة التى وصلتنى وتقول بضرورة الحضور فى السادسة للانتقال بالحافلات الكبيرة إلى مدينة أكتوبر. وبالفعل كانت العربات المكيفة فى الانتظار. قابلت الصديق عادل حسين، وأبديت ارتياحًا لظهوره فى لقاء اليوم، منذ سنوات غاب عن اللقاءات هذه، واعتبرت ذلك خطوة إيجابية، جميلة، أن تمثل الاتجاهات كافة. قال عادل إنه منذ سبع سنوات لم يدع إلى أى اجتماع بالرئيس. قابلت أيضًا الزملاء والأصدقاء، عباس الطرابيلى، آمال بكير،

سليمان قناوى، والصديق الأعز مصطفى بكرى، وبعض كبار المسئولين بوزارة الأعلام.

ونحن الإعلاميين وبخاصة رؤساء التحرير مثل الشعراء العرب القدامى، مقسمون إلى طبقات: رؤساء تحرير الطبقة الأولى، ويمكن معرفتهم طبعًا. وهناك البين بين. أما العبد لله فممن يُطلق عليهم المنصب، ولكن الحقيقتين العملية والمادية لا صلة لهما به، تمامًا كرئيس تحرير الهلال صاحبى مصطفى نبيل، أو رئيس تحرير إبداع شاعرنا الكبير أحمد حجازى، أو غيرهما، وهذا حديث يطول.

رؤساء تحرير الطبقة الأولى ذهبوا بسياراتهم الخاصة، ومع كل منهم تصريح. وهكذا انطلقت الحافلات الضخمة بركابها القلائل، وقطعنا الطريق فى الحديث ذى الشجون، فنادرًا ما يلتقى الأصدقاء الآن.

وصلنا مدينة الإعلام، وهى إنجاز مبهر بحق، ومهم جدًا لمكانة مصر الثقافية والإعلامية. كل شىء منظم، كل شىء منضبط، دائمًا البدايات فى مثل هذه المناسبات هكذا. من بوابة إلكترونية إلى أخرى كهربائية إلى ثالثة ضوئية. ومن حافلات كبرى إلى عربات أصغر، ركبناها وطبعا عندنا شعور بالأهمية. ألسنا من الصفوة الذين سيشاركون فى لحظة مثيرة تُعَدّ الذروة خلال عيد الإعلاميين هذا العام، انطلاق القمر الصناعى؟!

أخيرًا.. وصلنا إلى مظلة مطلة على البحيرة الصناعية، موائد مستديرة حول أحدها أشهر نجوم مصر: عادل إمام، نبيلة عبيد، كمال الشناوى، عمر الحريرى، هالة صدقى، المطربة هالة البدرى، والدكتور سمير سرحان الذى وجد لنفسه مكانًا بينهم. وحول موائد أخرى جلس مطربون واقتصاديون ورجال أعمال أعرف ملامحهم وبعضهم ممن يمتلك المقدرات والمصائر فى مصر الآن.

شاشة ضخمة فى وسط البحيرة، نتابع من خلالها وقائع الاحتفال الذى يجرى فى مكان ما قريب منا، لكن أين بالضبط؟ لا نعرف.

الجو جميل، والهواء عليل، والمناظر مبهجة، والديكورات تلخص الأزمنة والعصور، والحديث يتصل. وبعد حوالى ساعة يظهر بعض رؤساء تحرير الطبقة الأولى فأعجب. إذن من هناك فى موقع الحفل؟ وأى إعلاميين يمثلون أمام الرئيس إذا كان الصحفيون بكل طبقاتهم، السوبر والعادة يظهرون هنا؟!

الوقت يتقدم، والنسمات العليلة تصبح باردة، والمكان محاط برجال ا لأمن حاملى أجهزة الاتصال الحديثة. وبدأت التساؤلات الخفية تصبح علنية: كيف سيتم اللقاء الذى اعتدناه؟ ومتى؟

لا أحد يدرى. لا أحد يعلم.

بعد حوالى ساعتين ظهر شباب جميل، مدرب، يرتدى الحلل السوداء والقفازات البيضاء، وضعوا أمامنا أكوابًا فارغة فيها مناديل ورقية. وظهر آخرون يحملون مشروبات هزيلة تخاطفتها الأيدى. ثم جاء بعضهم بصينية واحدة عليها قطع صغيرة من العجين المشوى، واحدة منه فقط تسد النفس، ورغم ذلك التهمناه! إذ بدأنا نجوع بتأثير الهواء العليل والجو الجميل، وربما بدء الإرسال الفضائى أيضًا.

كان نجوم مصر فى كل المجالات فوق هذه الرقعة الضيقة، وتذكرت أولئك الكومبارس الغلابة الذين يأتون بهم ليمثلوا الجمهور فى البرامج الحوارية. وجدت أن المقارنة غير صالحة، لأن الكومبارس يقومون بعمل، وهو ملء المقاعد، لكن مقاعدنا كانت بعيدة عن الصورة، وكنا محاصرين، معزولين، مهملين تمامًا. وبعد حوالى ثلاث ساعات ونصف

الساعة من الانتظار، مرّ الركب من أمامنا متمهلاً. وتوقعنا أن تتم دعوتنا إلى اللقاء المنتظر، ولكن امتلأت الطرقات بعد مرور الركب بالحراس والضيوف ورجال لم نعرف أين كانوا. وفوجئنا بأن رؤساء تحرير الطبقة الأولى كانوا محشورين فى مكان مظلم على ضفة البحيرة. رأينا الأساتذة إبراهيم نافع، وجلال دويدار، وسمير رجب، ومحفوظ الأنصارى، ومحمد عبد المنعم وصلاح منتصر ومحمد وجدى قنديل وعبد الله إمام وصلاح قبضايا وعبد العظيم رمضان ومكرم محمد أحمد. . .

طبعًا دبت الفوضى، واختفت العربات التى جئنا فيها. وأصبح هم كل منا أن يصل إلى القاهرة. أشفقت على عادل حسين، فتوكأنا بعضنا على بعض، ورحنا ندب فى الظلام، إلى أن لمحنا مكرم محمد أحمد فنادى علينا، وحشرنا أنفسنا إلى جواره. وجرى الحديث خلال طريق العودة عن مصر وعن مستقبلها خلال السنوات القادمة.

حفلة للحفلة

تعددت الاحتفالات فى أيامنا حتى لم يعد بوسعنا الملاحقة والمتابعة . وبلا شك فإنها تضفى علينا البهجة ، وتثير التفاؤل بالمستقبل ، وتُطلعنا على ما نجهل ، خصوصا المشروعات الكبرى ، والإنجازات العظمى التى لم يكن ممكنًا لنا متابعة تفاصيلها إلا من خلال الاحتفالات . وبالطبع لا قيمة لأى حفل إلا بتشريف مسئول كبير ، على قدر مرتبته يكون مستوى الحفل ، وقيمة المشروع المفتتح . وبالطبع الإعلام هنا أساسى ، فالمتابعة من خلال عدسات التليفزيون تكون مهمة ، ويصعب أن نتخيل حفلة فى زماننا بدون إذاعتها عبر المحطات المرئية .

وإن المرء ليتمنى أن تكون أيامنا كلها حفلات ، حفلة تليها حفلة ، ومراسم يعقبها أخرى ، لكن . . لا بأس من الإعراب عن خشية . ذلك أننى فى ملاحقتى للحفلات ، لاحظت أن الحفلة فى حد ذاتها صارت هدفًا!

لم يعد المشروع فى حد ذاته مهمّا ، المهم الحفلة ، بل إن بعض المشروعات يتم افتتاحها ثم استكمالها فيما بعد الحفلة ، وبعض المسئولين الذين طال عليهم الأمد ، وتعتقوا فى مواقعهم يختلقون المشروعات سعيًا وراء الحفلة ، وبقدر ضخامة الحفلة ومستواها وحجم الحضور ومراتب الحاضرين ، يكون مدى رسوخ الداعى لها وقوته .

وأحيانًا يكون المشروع فى حاجة إلى وقت، إلى تأن، ولكن المسئول عنه يتعجل الحفلة حتى يصير فى الصورة، ولهذا شاهدنا بعض المشروعات خلال السنوات الأخيرة يعلن عن افتتاحها، ثم يكتشف الناس أن الحفلة كانت بهدف الحفلة، وأن المشروع نفسه لم يتم بعد برغم الافتتاح المعلن.

ما نتمناه، نحن المتابعين، القابعين، ألا يجرى البدء فى الحفلة، إلا إذا جرى التأكد من اكتمال كل جوانب المشروع، خاصة مع ارتفاع مستوى حضور الحفلة. ولكى أقرب الأمر أضرب مثلاً على ما أقول يتعلق بتشغيل القمر الصناعى.

لقد شاهدنا حفلة ضخمة بمناسبة عيد الإعلاميين. لقد جرى ربط القمر بالعيد الذى يحل عادة فى إبريل أو مايو، والقمر له مواصفات، ومراحل، وأدوات، وأحوال ويحتاج إلى وقت.

أقول مجرد ملاحظة وأجرى على الله العلى القدير. إن الافتتاح والحفلة الخاصة بالقمر، كان المفروض أن يتما بعد ظهور القمر على الشاشة، ورؤية الناس له، ولكن أن تجرى الحفلة، ولا نرى له أثرًا حتى هذه اللحظة فهذا له آثاره السلبية على النفوس. من أخطر الأمور ربط المشروعات الكبرى بالمناسبات الثابتة.

إن إنجاز هذه المشروعات وإتمامها على خير وجه وبكمال تام يبرر إقامة الحفلة، وهذا ما شعر به كل إنسان بعد افتتاح الطريق السريع المؤدى إلى السادس من أكتوبر، وبخاصة كوبرى المنيب. لقد دخل هذا الطريق والكوبرى حياة الناس مباشرة فور انتهاء الحفلة، حتى إن القوم اتخذوا من الكوبرى مصيفا ومتنفسًا لشم الهواء والتنزه، وأصبح الكوبرى يشهد كل ليلة حفلة حقيقية، حياتية، بعد انفضاض الحفلة الافتتاحية، وهذا ما يجب أن يكون عليه أى احتفال حقيقى وليس الحفلة من أجل الحفلة .

هـذا الباتلـر..

لم أعرف شخصية تعكس ملامحها الحالة العنصرية الكريهة مثل باتلر الأسترالى رئيس فرق التفتيش على الأسلحة العراقية. إنه شخصية جرى اختيارها بعناية. إنه شديد الوقاحة، بادى الصلف، كاره لكل ما هو عربى، ولولا اعتبارات عديدة لأعرب عن سعادته بإبادة الشعب العراقى.

أتابع أخباره بدقة، وتصريحاته، والخطوات التى تتم بإشراف وتدبير الولايات المتحدة الأمريكية، وليس الأمم المتحدة. إنما العلم الأزرق مجرد غطاء شرعى للعنصرية الجديدة، المعادية للعرب والمسلمين.

من حق العراق أن يوقف التعاون مع اللجنة، ذلك أن أعمال هذه اللجان لن تنتهى أبدًا. ستظل هناك أسلحة مخفاة، الكبير منها رأيناه يدمر علنًا، صواريخ بعيدة المدى، ودانات مدافع تملأ مساحات هائلة من الصحراء، مخزون إستراتيجى، يجب ألا ننسى أنه كان يومًا احتياطيًا للأمة العربية وعنصراً من عناصر قوة العرب فى مواجهة إسرائيل، شعرت بالحسرات وكأن هذه الأسلحة وتلك الذخائر تخصنى شخصيًا.

لن تنتهى تداعيات هذه المصيبة التى جرت بغزو العراق للكويت عام تسعين، وأخطرها الآن فى تقديرى أن الشعب العراقى الذى تتم إبادته تدريجيًا دخل دائرة النسيان عند العرب أنفسهم، وعند المسلمين، والمسيحيين، وسائر من ينتمى إلى دائرة البشر.

أصبح أمراً عاديّا تلك اللقطات التى تبث من العراق عن أطفال أدركهم الهزال وسوء التغذية. إنهم قرناء لأطفال إفريقيا الذين تبث محطات التليفزيون الغربية صورهم بين الحين والآخر، حتى أصبح الأمر عاديّا، يراه البعض فى أماكن قصية ويهز رأسه أسفًا، ثم يمضى كل شىء عاديّا. ومن المؤسف أن المشكلات التى يثيرها باتلر الأسترالى هذا هى التى تدفع بالأزمة إلى واجهة الأحداث.

منذ شهور ثارت أزمة عندما أصرّ باتلر على تفتيش القصور الرئاسية، وتحركت البوارج، وحاملات الطائرات الأمريكية وتمركزت القوات الأمريكية فى الدول المجاورة، وصال باتلر وجال، وأصبح وجهه القاسى، الذى يطفح بكراهية العرب مقرراً علينا، بل وأعدت عنه أفلام تسجيلية. صنع منه الإعلام الأمريكى شخصية لها انتشار وذيوع، والهدف من وراء ذلك إظهار الرجل الأبيض، الأسترالى، الذى يذل العرب عامة بعنجهيته، وجهله بتاريخهم، وتعاليه العنصرى، ويسهم فى تقديم الحجة تلو الحجة، كانت الأزمة التى دفعت بالأمور صوب حافة الحرب الإصرار على تفتيش القصور الرئاسية، بكل ما يمثله ذلك من إذلال. وقيل إن قصوراً شاسعة تم تشييدها خلال السنوات الأخيرة قصداً لإخفاء الأسلحة، وقبل العراق التفتيش، وتوقفت محركات الطائرات الأمريكية والقلاع الطائرة بسبب هبة الرأى العام العربى والإسلامى، ولم تجد الفرق شيئًا فى القصور.

عاد باتلر الأسترالى ليعلن أن الفرق اكتشفت لحسات من مواد كيمياوية على رءوس صواريخ مدمرة. وبدأت أزمة أخرى. وأخيراً تنشب أزمة جديدة، ويعلن باتلر أنه لا يستطيع إعلان العراق خاليًا من أسلحة الدمار الشامل، والحقيقة أنه صادق فى ذلك تمامًا، فهو مجرد موظف صغير فى الأجهزة التابعة للولايات المتحدة، ترس فى آلة، وربما ذهب وجاء غيره، فسوف تستمر عمليات التفتيش إلى ما لا نهاية، حتى يتم إنهاء وجود

الشعب العراقى تمامًا، أحد أعرق الشعوب التى علمت الإنسانية الحضارة. هكذا تتم محاصرة العراق وإفناؤه تدريجيًا، ويواكب ذلك صمت وحالة من فقدان الذاكرة الجماعية.

وما يحدث للعراق اليوم، يحدث وإن بدرجة أقل لليبيا والسودان، وربما يحدث غدًا لهذا الوطن أو ذاك فى عالمنا العربى، بل إن البوادر لتشير وتؤكد، وسوف يكون لكل بلد عربى باتلره الذى يتردد عليه ويسعى إلى الإذلال والإخضاع.

هل نحلم بيوم تتحد فيه كلمة العرب ويعلنون تحدى قرارات المقاطعة كما فعل بعض رؤساء إفريقيا مع ليبيا؟

هل نأمل فى مبادرة تنقذ الجميع قبل الهلاك المدبر، المبيت، المخطط له جيدًا فى البنتاجون، ودوائر المخابرات والخارجية وسائر ما يشكل هذه الدولة الظالمة، العتية، العنصرية، المعادية تمامًا للعرب، والتى تسعى إلى إبادتهم؟ لن يتوقف ذلك إلا بفعل داخلى قوى نابع من العرب أنفسهم، وإلا سنجد ـ كما أشرت ـ لكل قطر، ولكل مدينة، ولكل نجع عربى باتلره!

بيـــع المنصب

كلما اشتد النفار مع الواقع أحتمى بالتاريخ. إذا عشت حقبة متدهورة أعود إلـى أخرى أشد تدهـوراً لأعـرف كيـف تـم التجاوز مع الزمن.

هذا ما حمانى نفسيًا فى أعقاب هزيمة يونيو، عندما عدت إلى هزيمة أشد وأنكى، عندما اجتاح العثمانيون الجيش المملوكى المصرى فى ساحة مرج دابق، شمالى حلب. صاحبت المؤرخ المصرى الشيخ محمد أحمد بن إياس الحنفى المصرى، وكدت أحفظ عن ظهر قلب موسوعته «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» التى أعدت اكتشافها بعد هزيمة يونيو، وهالنى حجم ما عرفه وطنى تحت سنابك وقسوة الأتراك، ثم تجاوز هذا كله. وخلال العام الأخير أمر بحالة مماثلة، أعود إلى التاريخ، ذلك أن حالاً من الاختناق يمسك بزمام أنفاسنا، وهناك ركود ثقيل، وأحوال فاسدة، وشرر ينبئ بنيران كامنة فى الأفق الذى يبدو هادئًا، راكدًا، ونحاول بأقلامنا التنبيه، ونرفع أصواتنا بالنذير، لكن ما من مستمع، وما من مجيب، ولسان الحال يقول: دعهم ينبحون والقافلة تسير.

هكذا تبدو القافلة التى تمضى بمفاسد شتى، يراها الجميع ويشيرون إلى المواضع، بل.. إلى أشخاص بعينهم. ومع ذلك فمعظمهم متمكن، لا تلوح أى بارقة أمل فى تغييرهم، تغييرهم فقط، وليس محاسبتهم على ما اقترفوا، أو ارتكبوا.

هل ننكفئ وننكف؟

هل نترك الإحساس بعبثية الكتابة يتسرب إلينا؟

هذا يعنى الموات الحقيقى. وأن تنطفئ الأصوات التى ترتفع محذرة، منبهة، فهذا يعنى فقدان الوطن للبصيرة، وللروح، وهذا ما يأباه أى كاتب شريف، ذى ضمير، حتى لو وهن الجسد منه، وخبت عوامل القوة. هكذا، فى محاولة لحماية الذات عدت مرة أخرى إلى ابن إياس، ولكن لأقرأ مشاهداته الشخصية التى بدأ تدوينها قبل الغزو العثمانى بحوالى ثلاثين عامًا، وبالتحديد زمن الأشرف قايتباى.

توقفت عند بعض الحوادث التى يرويها عن دفع مال كبير مقابل تولى منصب معين، وتذكرت دراسة قرأتها منذ عدة سنوات لباحث نابه اسمه د. أحمد عبد الرازق أحمد.

الدراسة عنوانها طريف «البذل والبرطلة، زمن سلاطين المماليك»، وهى دراسة عن الرشوة. وكلمة برطيل أو برطلة ما تزال مستخدمة فى الريف المصرى. ولفظ البذل يعنى العطاء والكرم، لكن عندما يستخدمه ابن اياس أو أى مصدر من مصادر العصر المملوكى فمعنى ذلك الرشوة. أما (البرطلة) فتعنى الرشوة مباشرة، وجمعها براطيل، ويقال تبرطل أى ارتشى، ولكننى لم أقف على معنى اللفظ بدقة، وهو لفظ غريب.

ويبدو أن الظاهرة قديمة جدًا فى المجتمع المصرى، بل إن بعض الإشارات ترد فى العصر الفرعونى إلى البرطلة، إذ عثر على لوحة حجرية فى معبد الكرنك عام ١٨٨٢، تضمنت بعض القوانين التى أصدرها الملك حور محب (١٣٣٤ ـ ١٣٠٤ ق. م) ومنها عقوبة الإعدام للموظف أو الكاهن الذى يقبل الرشوة فى أثناء تأديته لمهام وظيفته، وكذا للجنود الذين عمدوا إلى استغلال وظائفهم دون حق للإثراء على حساب الآخرين.

وثمة مرسوم آخر أصدره ستى الأول (١٣٠٣ ـ ١٢٩٠ ق.م) جاء فيه بقطع أنف وأذنى الموظف الذى يخل بواجبات وظيفته من أجل مصالحه الشخصية. كان ذلك فى ذروة قوة الدولة المصرية القديمة، ومع بدء دبيب الوهن وتفكك الأوصال استشرى الفساد الذى أدى فى النهاية إلى اندثار الحضارة المصرية القديمة وتمكن الغرباء من مصر!

الحق أن ثمة موسوعتين بدونهما لا يمكن معرفة عوامل القوة والضعف فى الدولة المصرية، الأولى موسوعة (مصر القديمة) لسليم حسن، والثانية (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) لابن اياس، ومع وجود مؤرخين كبار مثل المقريزى وابن تغرى بردى وابن واصل والعمرى وغيرهم، إلا أن الحاسة النقدية الفريدة عند ابن اياس جعلتنا نكتشف أمورا عديدة ومفاسد جمة، لبعضها استمرارية حتى الآن. ومما عرفناه خلال السنوات الأخيرة ظاهرة (بيع المنصب) أو الإثراء من ورائه، ولهذا تفصيل.

إرهاب الدولة أخطر!

لنرجئ الحديث هذا الأسبوع عن ظاهرة «بيع المنصب» إزاء هذه المصيبة التى أقدم عليها الرئيس الأمريكى، رئيس أقوى دولة فى العالم، إن لم يكن يَعُدّ نفسه رئيس الكون. فلكى يصرف الأنظار عن سرواله المبتل بفضائح النساء كان لا بد من تحويل الأنظار، وصرف الرأى العام إلى وجهة أخرى. وليس أرخص من دماء المسلمين أينما كانوا، هكذا راح عشرات من الأبرياء فى السودان البائس، وكذلك الأمر فى أفغانستان. غارات غشيمة، تقدم عليها القوة العظمى الوحيدة فى العالم. هكذا تتصرف الولايات المتحدة تمامًا كتلك العصابات الإرهابية التى فجرت سفارتيها فى نيروبى ودار السلام. المنطق واحد. هناك إرهاب - يعلم الله وحده من يخطط له ومن يقف خلفه - أدى إلى مقتل مئات الأفارقة البسطاء وموظفين أمريكان لا يقفون فى ساحات القتال. كان مشهد دمار السفارتين مُروعًا، وبسرعة تم القبض على شخص اسمه محمد، وبسرعة اعترف، وبسرعة التصقت التهمة بالمسلمين، وبدأت حملات الكراهية ضدهم، وبدت صورة إسرائيل ناصعة إنسانية بدءا من البشر إلى الكلاب. ظهرت الرسائل المبثوثة من تل أبيب فى نفس اليوم تسجل بالصوت والصورة هروع فرق الإنقاذ العسكرية، تتقدمها كلاب لا توجد إلا فى إسرائيل، مدربة - كما قيل - على اكتشاف الضحايا تحت الأنقاض.

كانت فضائح السيد الرئيس فى قمتها، من باولا إلى السيدة لونسكى، وكان الرئيس المبتل يحاول أن يلفت الأنظار عن فضائحه. جاء حادث انفجار السفارتين مناسبًا، وتلا ذلك اعترافه، ثم أقدم على ضرب السودان وأفغانستان.

أصابت الصواريخ أهدافها بدقة. وقف «كوهين» وزير الدفاع الأمريكى يتحدث عن الهدف الخطير فى السودان الذى تم تدميره، مصنع الأسلحة الكيمياوية. وهو بالفعل مصنع للأسلحة الكيمياوية، ولكنها أسلحة موجهة ضد الجراثيم والميكروبات. لم يكن إلا مصنعا للأدوية، وهو استثمار خاص، ولا بد أنه معروف جيدًا للسفارات الغربية والعربية فى السودان، لكن القضية ليست غشاوة أو غباء أصاب الولايات المتحدة كما يتبادر إلى الذهن لأول مرة، المقصود هو المصنع فى حد ذاته، إقامة مصنع للدواء فى دولة عربية أمر غير مسموح به الآن. الدواء يجب أن يستورد من الغرب، الأقطار العربية يجب ألا تعرف مصانع الأدوية، أو أى مصانع على الإطلاق، يجب أن تظل مجرد سوق.

إننى ضد النظام السودانى الحاكم الآن فى الخرطوم، وأرى فيه نظامًا ديماجوجيًا يخالف طبيعة الشعب السودانى العظيم، السمح. وهو نظام يؤجج الفتنة بين أبناء الشعب السودانى الواحد، بين شماله وجنوبه، وأكاد ألمح فيه عنصرية بغيضة، ولكن عندما تستهدف صواريخ توماهوك أو الطيران الأمريكى مصنعا سودانيا للأدوية، فهذا أمر مختلف تمامًا. ومغزى ضرب المصنع أراه واضحًا: غير مسموح ـ من وجهة نظر القوة العظمى الكونية التى تعمل الآن لحساب إسرائيل بوضوح ـ إنشاء مصنع للأدوية.

ما جرى للمصنع السودانى سيتكرر فى كل بلد عربى، وما أسهل عَدّ أى مصنع للأدوية، أو المطاط، أو المياه الغازية، مصنعًا للأسلحة الكيمياوية.

ثم تنزلق القوة الكونية إلى مستوى عصابات الإرهاب عندما تطارد فردًا، شخصًا واحدًا اسمه أسامة بن لادن. لم ينتظر الرئيس الأمريكى نتائج التحقيقات التى تجرى الآن، ولم يلجأ عبر الطرق القانونية إلى الأمم المتحدة، ولم يسلك عشرات الطرق المشروعة للمطالبة بتقديم أسامة بن لادن إلى القضاء لمحاكمته إن ثبت ارتكابه لجرم ما، ولكنه أمر «كوهين» وزير دفاعه بتوجيه صواريخ أمريكية إلى أفغانستان سقط الأبرياء ضحايا لها. فأسامة بن لادن وجماعته يقيمون فى كهوف يصعب إدراكه فيها، ولو نزل جنود البحرية (المارينز) إلى جبال أفغانستان فلن يعود منهم أحد. ويجب ألا يغيب عنا أن هذه الجماعات شديدة التطرف والتى تعيش فى أفغانستان حربًا وتمزيقًا وتدميرًا ليست إلا من صنع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية!

هل هو غباء أمريكى، أم أنها حلقة فى الحرب التى باتت معلنة ضد الإسلام فى حد ذاته؟ ولنتأمل ملامح وجه (كوهين) فى أثناء حديثه فى البنتاجون. إنه حديث يقطر عنصرية وبغضاء. إنه إرهابى جديد، كذلك رئيسه مبتل السراويل. إنه إرهاب دولة عظمى تعصف بالقانون وكل الأعراف. إنه أخطر أنواع الارهاب، ومواجهته على كل المستويات أمر ضرورى، واجب، قبل أن يعم ويدرك الجميع.

حماقات متبادلة

بداية أعُدّ النظام السودانى القائم حاليًا فى الخرطوم استثناء فى مسار الشعب السودانى. إنه نظام عسكرى، متعصب فى بلد تعيش فيه أعراق مختلفة، واتجاهات متعددة، مترامى الأطراف، يتميز أهله بالسماحة، والأصالة والنُبل. وبرغم موقفى هذا من النظام، فإننى لم أفهم موقف بعض أطراف المعارضة السودانية للنظام فى الأسبوع الأخير بعد الضربة الأمريكية التى استهدفت مصنع الأدوية.

هناك معارضة مهمة تعيش فى الخارج، خارج السودان، وبعضها يرفع السلاح ضد النظام حاليًا، وعندما شنت الولايات المتحدة غاراتها الحمقاء ضد مصنع الأدوية، ضد هذا البلد وشعبه النبيل، ضد الإسلام والمسلمين، رحت أتابع بعض ردود الفعل. والحق أن الفضائيات العربية وفرت قدراً هائلا من المعلومات لا يمكن لنا أن نجده الآن فى التليفزيون المصرى الذى أصبح بقنواته جميعها (عدا الثانية والثامنة) متخلفًا، خفيفًا خاصة فى قناته الفضائية، ولهذا حديث يطول أمره. عبر الفضائييات العربية توالت الحماقات.

بالطبع أولها ما صدر عن الفريق عمر البشير، عندما قال فى محطة الجزيرة، إن الطائرات الأمريكية جاءت من الشمال، وكان يقصد بالطبع مصر. ولا أدرى كيف يسمح الرجل الذى يرفع راية الإسلام لنفسه

بالكذب على المسلمين وعامة الناس . إن مصر لا يمكن على الإطلاق أن تسمح بهذا الخطإ القاتل فى علاقتها بالسودان ، هذا من ثوابت السياسة المصرية ، وفى ذروة أزمة حلايب التى افتعلها الفريق البشير ونظامه العنصرى البغيض ، زرت حلايب ورأيت هناك تعايش الضباط والجنود المصريين والسودانيين . رأيت فى تعبيرات وجهه الكذب ، ويعكس ذلك رغبة فى ضرب العلاقات التاريخية ، المصيرية بين أبناء الشعب المصرى السودانى الواحد . وعندما سأله المذيع الذى يجرى الحوار بأدب عما إذا كان للسودان إمكانيات فنية تجعله قادراً على رصد نوعية الطائرات الأمريكية ، واتجاهاتها ، أجاب البشير إجابات مضحكة ، مثل قوله : إن ضباط القوات الجوية شاهدوا الطائرات وحددوا اتجاهاتها ، وإنها اخترقت حاجز الصوت فوق مدينة بربر فى الشمال .

رئيس الأركان السودانى نفى ما قاله البشير فيما بعد . ومن الثابت أن المصنع لم يقصف بالطائرات ، إنما بصواريخ توماهوك وكروز .

كذب الفريق البشر حماقة كبرى فيه سوء قصد وإساءة إلى الشعب المصرى وقيادته . ولكن موقف بعض أطراف المعارضة السودانية لا يقل حماقة . سمعت أحدهم فى الإذاعة البريطانية ، يؤكد أن المصنع كان ينتج غاز الأعصاب ، بل يتجاوز ذلك ويذكر اسم مصنع آخر لم يضرب بعد . وحاوره المذيع مبديا الدهشة مما يقوله ، فالمخابرات المركزية لم تعلن مثل ذلك ، وتقارير الولايات المتحدة حتى الآن مضطربة ، وهناك من هم فى موقع المسئولية فى مراكز اتخاذ القرار أكدوا أن اليقين ليس تامّا بالنسبة لمصنع إنتاج الأعصاب القاتلة ، وشهد خبراء أجانب بأن المصنع للأدوية .

الثابت الآن أن المصنع للأدوية بالفعل ، والأمر كما ذكرت فى الأسبوع الماضى يتعلق بسياسة أبعد مدى ، ممنوع بناء المصانع المنتجة للأدوية ، لأى

شيء. مسموح فقط ببناء المصانع التى تعيد تعبئة المنتج الأمريكى، أو الأوروبى، مسموح بوجود وكلاء الشركات الكبرى لتسويق منتجاتها، وليس لإنتاج سلع تحل موضع السلع الأمريكية. وهذا ما يقوم به معظم رجال المال الجدد فى مصر الذين يتحكمون الآن فى المقادير والمصائر. السودان الفقير، المنهك غير مسموح له ببناء مصنع دواء، وبعض فصائل المعارضة الغبية تؤيد ضرب وطنها.

هذه معارضة محكوم عليها مسبقًا، وفى الغالب سقط من يمثلها فى قبضة المخابرات الأمريكية أو الموساد. لقد سمعت أحدهم يحض الولايات المتحدة على ضرب مصانع أخرى. كان يتحدث من أسمره، من أرتيريا.

بالطبع لم يكن هذا موقفًا عامًا للمعارضة السودانية، بل يمكن القول إن رموزها التاريخية أدانت العدوان. إن أى معارضة تؤيد ضرب الوطن الذى تنتمى إليه لا يحق لها أن تمثله أو تتحدث باسم أبنائه، خاصة إذا كان المعتدى الآن الولايات المتحدة التى تشن حربًا ضد الإسلام عامة والعرب خاصة، ولهذا حديث يطول.

فى السياسة المصرية

فى الإدارة المصرية الآن مناطق ضوء ونصاعة تثير الأمل. هناك وزراء شرفاء لم يستخدموا مناصبهم للإثراء، ولم يتربحوا. ويكفى أن نتطلع معجبين، داعين إلى اتخاذهم قدوة. وأضرب مثلاً بالدكتور أحمد الجويلى، والدكتور ممدوح البلتاجى، والمهندس ماهر أباظة وزير الكهرباء، والدكتور حسين كامل بهاء الدين، وغيرهم ممن لا يخفى على الشعب ملامحهم ونزاهتهم. وفى مقدمة هؤلاء رئيس الوزراء نفسه الدكتور كمال الجنزورى.

وهنا أشير إلى حساسية الشعب المصرى العالية تجاه من يتولون المناصب العامة، وكذلك تجاه الأداء والسياسات التى تتصل بشئونه وأحواله. إننى أتطلع متحسراً بقدر إعجابى، وحزينًا بقدر راحتى إلى الأداء الوطنى الرائع لمؤسسة وزارة الخارجية. أقول لنفسى، لماذا لا يكون الأداء فى مختلف القطاعات مثل هذه المؤسسة العريقة، الوطنية، ذات التقاليد الرصينة؟ ومع مطلع كل شمس تأتينا الأخبار بالجديد الذى يزيدنا ثقة فى الخارجية ورجالها، وعلى رأسهم وزيرها عمرو موسى. وبالطبع فإن الوزارة بأجهزتها تضع وتقترح وتنفذ السياسة المصرية التى يرسم لها الرئيس مبارك المبادئ، وهذه سياسة فى مجملها تتمتع بقدر نادر من الحكمة والفهم الدقيق للدور المصرى وإمكاناته فى مرحلة شديدة الحساسية، حيث يوجد

على حدودنا الشرقية التعصب الصهيونى الرافض للسلام والمهدد له. وفى الجنوب تعصب من نوع آخر. أينما ولينا الوجه سنجد اضطرابا ورياحًا عاتية تهب على الوطن. وإذا كانت الغيرة تأخذنا فتدفعنا إلى انتقاد مظاهر الفساد والتقصير فى الداخل، خاصة فى المؤسسات التى يمس نشاطها الروح، فإن الواجب يقتضى منا أن نشير بإعجاب إلى أداء تلك المؤسسات الراسخة التى ترسم وتنفذ السياسة المصرية.

وخلال الأيام الماضية حملت إلينا الأنباء تفاصيل ذلك الحلف الجديد فى المنطقة بين تركيا وإسرائل والأردن. فى الأسبوع الماضى قام رئيس الوزراء التركى بزيارة إلى إسرائيل، هاجم خلالها سوريا، مرددًا التهمة السخيفة، رعاية سوريا للإرهاب، وأعلن عن مناورات إسرائيلية، تركية مشتركة. وبعد أيام أعلن أن الأردن انضم إلى هذه المناورات.

مناورات إسرائيلية، تركية، أردنية مشتركة. هل كان أحد منا يتصور حلول مثل هذا اليوم؟ لم يعد لمثل هذا التساؤل من قيمة الآن، فقد جرى خلال السنوات الماضية ما يذهل الألباب ويصرف العقول عن نفسها.

بلغت الوقاحة ذروتها عندما وجهت الدعوة إلى مصر للمشاركة فى هذه التدريبات، وجاء الرد المصرى حاسمًا، قاطعًا فى نفس اليوم: الرفض طبعًا.

أى مناورات عسكرية لها هدف، والهدف فى حالة هذه التدريبات واضح طبعًا، إنه سوريا، وإذا كان مفهومًا أن تشترك تركيا وإسرائيل فى مناورات ضد سوريا، وهذه ليست المرة الأولى فقد جرت مناورات عسكرية بحرية فى مواجهة اللاذقية العام ا لماضى، إذا كان مفهومًا مشاركة هاتين الدولتين فى تلك المناورات، فلماذا تشارك المملكة الأردنية بجيشها فى مناورات، المستهدف فيها أساسًا دولة عربية؟

هذه المشاركة فيها إخلال بأبسط المبادئ التى تحكم العلاقات العربية ـ العربية ، وتدفع بها إلى مرحلة مغايرة تمامًا ، وذات نوعية مختلفة . لا أعرف معنويات الجندى أو الضابط الأردنى الذى سيقف فى هذه المناورات ، كتفه إلى كتف الجندى الإسرائيلى والضابط التركى ، والسلاح مصوب تجاه سوريا شمالاً وإلى مصر جنوبًا أيضًا .

الموقف المصرى الواعى ، المتسق مع مبادئ العروبة ، والوطنية والقومة والعقل رفض هذه المناورات . مرة أخرى أشعر بالتقدير وأزهو بأداء وزارة خارجيتنا العريقة ، وإن كان هذا لا يمنع زفرة أسى . فلماذا لا يكون مثل هذا الأداء متوافرًا فى وزارات أخرى ، ومؤسسات أخرى يتصل نشاطها بحياتنا اليومية ونشاطنا الروحى . على أى حال إن مثل هذا الأداء الذى يثير إعجاب القوم فى الوطن العربى كله وليس فى مصر فقط ، من أقوى عناصر الأمل التى نتمسك بها ونتطلع إليها .

المعاملة بالمثل

تأثرت لهذا الإعلان الذى نشر فى الصفحة الأولى من الصحف الصباحية الأسبوع الماضى، من مصدرى القمصان المصرية إلى الولايات المتحدة، يناشد رئيس الوزراء الدكتور كمال الجنزورى التدخل لإنقاذ المصانع المصرية المتخصصة فى إنتاج القمصان، لأنها على وشك التوقف وتشريد العاملين فيها بسبب سياسة الولايات المتحدة فى تحجيم الصادرات المصرية إلى أسواقها متعللة بعلل فنية وأسباب تفصيلية، مؤداها أن مصر تقوم بغمر أسواق الولايات المتحدة بالقمصان الجيدة الصنع، رخيصة السعر.

ماذا يمكن للدكتور كمال الجنزورى أن يفعل؟ لا أدرى، وأرجو أن يوفقه الله إلى ما فيه خدمة هؤلاء المنتجين الشرفاء والذين يجب أن نقف بأقلامنا إلى جوار أمثالهم من الذين أقاموا صناعات حقيقية على أرض مصر، تقدم إنتاجًا حقيقيًا، وتوجد فرص عمل.

ثمة مشكلة أخرى مع الاتحاد الأوربى، تتعلق بالمنتجات الزراعية المصرية المصدرة إلى الأسواق الأوربية. ويبدو أن جهود الدكتور الجويلى وزير التموين ستسفر عن نتائج إيجابية، إذ قرأت صباح الجمعة الماضى أن تسعة دول أوروبية صوتت إلى جانب مصر، وهذا تقدم محمود فى المفاوضات التى تجرى الآن. ولكن يخيل إلىّ أن الأمر بالنسبة للولايات

المتحدة فيه بعد آخر، ليس اقتصاديًا وليس فنيًا لكنه يتعلق بسياسة الولايات المتحدة نفسها تجاه مصر وهى امتداد للسياسة الاستعمارية القديمة التى كانت تحرص على ألا تبلغ مصر درجة من القوة تمكنها من الاعتماد على ذاتها من ناحية، وألا تصل إلى درجة من القوة بحيث تبث تأثيرها، وإشعاعها القديم المؤثر فى المنطقة سواء كان ذلك العالم العربى، أو البحر المتوسط، أو القارة الإفريقية.

هل هذا كله يتعلق بالقمصان؟

أقول نعم.. وإلا، هل سمعنا بمثل هذا الموقف مع الصين التى تغرق أسواق الولايات المتحدة بالمنتجات رخيصة السعر، وكذلك اليابان؟

إذن.. لماذا تقف الولايات المتحدة لتقيم حائلا بين القمصان المصرية والسوق الأمريكية؟

لأن القمصان المصرية نتاج نوع من النشاط لا تريد الولايات المتحدة تشجيعه أو تقويته.

فى مصر الآن نوعان من رأس المال، الأول امتداد طبيعى للرأسمالية المصرية المنتجة، رأسمالية تنتج أشياء محسوسة، مواد غذائية فى علب، أو قمصانا أو نسيجا، أو أحذية، أى منتجا تم تصنيعه على أرض مصر وبمكونات مصرية. والملاحظ أن صناعة الملابس الجاهزة تقدمت جدًا خلال السنوات الأخيرة فى مصر. ولقد أصبح من الهدايا النفيسة التى أصحبها معى عند سفرى إلى الخارج، الملابس المصرية الجاهزة، فإذا أضفنا إلى ذلك جودة القطن المصرى وشهرته التاريخية، فسنجد أن هذه الملابس أصبحت منافسًا قويًا فى السوق العالمى.

الولايات المتحدة لا تريد لهذه الصناعة المصرية أن تنمو وأن تتطور.

لذلك تريد تحجيم الصادرات منها لخنقها ومنع قيام صناعة مصرية تعتمد على مكونات مصرية .

على أرض مصر الآن رأسمال آخر تدعمه الولايات المتحدة ، إنه رأس المال الذى يحول السوق المصرية إلى تابع للسوق الأمريكى تحديدا : توكيلات للمنتجات الأمريكية ، بدءاً من الطعام وحتى السيارات والآلات . هذا ما تريده الولايات المتحدة ، الوكيل المعتمد ، التابع لها . ولهذا دفعت بقوة لأولئك القادمين من المجهول ، لا تاريخ لهم ، ولا دور إنتاجيا سابقا لهم ، وبعضهم يسعى إلى السيطرة على الوسائل التى تكون الروح المصرية مثل السينما ، والمناطق القديمة بآثارها وطمس مكوناتها .

هذا هو رأس المال منقطع الجذور فى التربة المصرية ، والذى تسعى الولايات المتحدة إلى دعمه وتخريب مصر من خلاله اقتصاديّا وروحيّا . أما رأس المال المنتج فغير مرغوب فيه ، حتى لو كان قمصانًا فقط .

إن المطلوب هنا ، الآن ، معاملة بالمثل . إذا كانت الولايات المتحدة تفرض الحصار على المنتجات المصرية ، فلماذا لا نفرض الحصار على المنتجات الأمريكية بنفس النسبة ونفس الأسلوب . المعاملة بالمثل .

ألا يمكننا ذلك؟

لعل وعسى !

من أين لك هذا.. والفولكلور القديم

نستأنف الحديث عن «بيع المنصب» فى مصر وجذوره التاريخية، إنها من أخطر ظواهر الفساد، وكثيراً ما تكون واضحة للمجتمع كله، يرى الجميع ـ بما فيهم أجهزة الرقابة المتخصصة التى يصبح وجودها وهميًا فى ظل استشراء الفساد وقوى النفوذ ـ يرى الجمع شخصًا ما، كان قبل سنوات لا يرتدى إلا الجينز، تفوح رائحته إذا تحدثت إليه، يتردد على الصحف متسولاً نشر خبر عن نفسه أو عن بعض أعماله المجهولة ـ هذا ما عاينته بنفسى ـ وتدفع الظروف بهذا الشخص إلى منصب ما، ثم شيئًا فشيئًا يبدأ التحول، ويتبدل الجينز إلى الحرير الطبيعى، ويظهر الأصبع مثقلاً بخاتم الماس، ويمتلك الشقق الفاخرة، وتصبح هذه الشقق موضوعًا للصحف ولكاميرات التليفزيون.

وشيئًا فشيئًا تظهر ملامح الثروة، من فنادق ثابتة إلى أخرى عائمة، والكل يتساءل من أين؟ وتقارير الأجهزة تعرف، ولكن لا قيمة لهذا كله. لماذا؟ لأن ثمة قانونا معطلا بالفعل، قانونا أصبح جزءًا من الفلولكور المصرى، اسمه «من أين لك هذا؟»، ربما يبدو مضحكًا ذكره الآن، ربما يبدو طرحه من باب العته والمخاطرة، لكننا ـ كما أذكر دائمًا ـ فى السنوات الأخيرة، قد وصلنا إلى مرحلة متقدمة من العمر، ولم يعد فى المتبقى زمن

طويل. أما وقد دنا الرحيل، فليس لنا إلا أن نبرئ الذمة، أن نسجل شهادة على واقع وطنى سنصبح بعضًا من ذراته يومًا، ويعز علينا أن يجرى فيه ما يجرى ونحن صامتون، وأن يتحكم فى مقدراته بعض الذين جاءوا من المجهول، ويعرف الناس عنهم ما يعرفون وهم فى غيهم يعمهون، ويطلون علينا من شاشات التليفزيون ويتباهون بالسلطة والنفوذ ويلوحون ويهددون، وقد كانوا منذ سنوات لا قيمة تُذكر لهم.

ثمة قانون آخر يمنع أصحاب المناصب من التجارة فى أثناء توليهم المناصب، بل إن الدستور نفسه يمنع ذلك، ولكن أى قانون وأى دستور فاعل فى ظل ممارسة الخطإ الذى يراه الجميع ويسكتون عنه؟!

لو أن كل شخص يتولى موقعًا قياديًا، وبخاصة الوزراء، ألزم بالإعلان عن مفردات ثروته ومصادر دخله قبل توليه المنصب، عند تسلمه المنصب أمام مجلس الشعب، أو مجلس الشورى، وأن تعلن إقرارات الذمة المالية بانتظام، لسادت الثقة المجتمع، ولتوطدت الأركان، وقويت الأسباب. ولكن الحديث أيضا عن (إقرارات الذمة المالية) أمر يبدو من الفولكلور أيضا، مثير للسخرية بقدر ما هو مثير للشجن. ثمة استمارة تملأ كل عدة سنوات، وثمة (جهاز اسمه جهاز الكسب غير المشروع) لا أدرى هل ما زال موجودًا، أم بطلت اختصاصاته، أو أنه يُظهر أنه يمارس اختصاصاته.

بل إن جهاز الرقابة الإدارية نفسه، والذى تولاه لسنوات واحد من الشرفاء هو أحمد عبد الرحمن، ويتولاه الآن رجل نزيه خدم فى صفوف القوات المسلحة، هذا الجهاز الضخم يشبه المرصد الذى تقتصر مهمته على الرؤية والرصد، وحفظ ما يرى، فلا المعلومات يصبح لها قيمة، ولا الرصد يعلم تفاصيله أحد. لا يبدو دوره إلا إذا تعلق الأمر بموظف صغير،

أو شخص أريد تنحيته، وهذا نادر، بينما أولئك الذين تضخمت ثرواتهم من مناصبهم يطلون علينا من التليفزيون ومن منصات الاحتفالات، ويعرف الجميع، وتعرف الأجهزة المختصة، ولكن ما قيمة المعرفة إذا كانت القوانين معطلة، وأولها هذا القانون الأثرى «من أين لك هذا؟».

هنا يبدو أحد أهم عناصر العصر المملوكى مستمراً، كيف؟.. للحديث بقية.

هكذا تكلم.. سعد الله

عدت إلى بيتى قرب منتصف الليل. أدرت مفتاح التليفزيون لأرى ما تبثه محطة ART 6 الفرنسية ـ الألمانية. إنها محطة ثقافية، تعد مثالاً بحق للقناة الثقافية، أحرص على متابعتها رغم معرفتى المحدودة باللغة الفرنسية، وفى معظم الأحيان تشرح لى زوجتى ما أرى وما أسمع، وهى تتقن اللغة.

فى هذه الليلة طالعنى وجه عربى، يتحدث العربية.

الوجه منتفخ بعض الشىء يرتدى صاحبه «بيجامة» مخططة. كانت اللقطة مقربة، وعندما ابتعدت، رأيت المتحدث فى غرفة مستشفى نظيفة، سرير مفرد يتمدد فوقه، أنبوب السيروم متصل به. لقطة أخرى تركز على خروج نقطة الجلوكوز من الأنبوب. خروج بطىء متمهل، لكن روعة الإخراج والتصوير فى ظهور صور من تداعيات الحديث داخل النقطة ذاتها.

الحديث باللغة العربية، والترجمة الفرنسية مكتوبة على الشرط، كان نطق المتحدث واضحًا، عميقًا، يتحدث وكأنه خارج الزمن والحدود المتعارف عليها. لغته مركزة، رؤيته واضحة. عندما فتحت التليفزيون كان يتحدث عن الجريمة التى ارتكبها الغرب، بزرعه الدولة الصهيونية فى خاصرة الوطن العربى، دولة قائمة على مبادئ مناهضة للإنسانية

والقوانين الوضعية، والفكر الإنسانى، وضد مبادئ الغرب نفسه، أساسها العنصرية.

ولكن الغرب كان يريد التخلص من مشكلة صنعها بنفسه، عندما انتهت الحرب العالمية الثانية، بكل ما حوته من فظائع بشرية، وإبادة جماعية راح ضحيتها اليهود والغجر وأجناس أخرى فى معسكرات النازى. هكذا شجع الغرب على إقامة هذه الدولة التى راحت تشرد شعبًا لا ذنب له، وتشن الحروب الانتقامية ضد العرب الذين لم يمارسوا أى اضطهاد عنصرى ضد اليهود عبر تاريخهم، بل احتضنوهم واهتموا بهم. راحت الدولة العنصرية الجديدة تشيع الكراهية فى المنظمة، والدمار، والحروب.

كان المتحدث رغم صعوبة الكلمات والألم الواضح على الملامح ينطق بالشهادة الحية، التى بدأت أشعر أنها تعبر عنى، عن رؤية جيلنا كله.

آه.. إنه سعد الله ونوس.

قرأت عن هذا الفيلم الذى أعده مخرجان من ألمع السينمائيين العرب، وأكثرهم موهبة، عمر أميرالاى، ومحمد ملص.

إنها المرحلة الأخيرة من حياة الكاتب السورى الموهوب. لكم بدا قويًا، راسخًا، شاهدًا أمينًا على ما يقرب من نصف قرن عاشه وعشناه بوعى كامل. لكم بدا نطقه كالحكمة. إن الاقتراب من الموت يزيد الإنسان وضوحًا، ونصاعة الأشياء تصبح أقوى. أما الحقائق فتبدو واضحة جلية. كان سعد الله يرى ما جرى وما هو آت بوضوح، وهكذا تكلم فى الفيلم الذى لم تذعه أى محطة عربية، إنما أذيع فى هذه القناة الممتازة، وكانت الليلة كلها مخصصة للصراع الإسرائيلى ـ السورى. قال سعد الله إن هزيمة يونيو جاءت صاعقة، صارمة، نهاية مرحلة كاملة، وبداية أخرى ما تزال مستمرة.

قال إنه عندما تأكدت الهزيمة، اتضح أن إسرائيل ليست مزعومة كما كانت تردد الأنظمة العربية كلها التى اعتبرت وجودها نوعًا من المبرر لترسيخ القمع الداخلى.

ظهر جمال عبد الناصر فى الفيلم وهو يقرأ خطاب التنحى الشهير، وفى نهايته تتراجع صورته لتتوارى داخل نقطة الدواء التى كانت تفصل بين أجزاء الفيلم.

قال سعد الله إن الهزيمة كانت مروعة، ولكن نشأت صحوة ومقاومة استمرت حتى حرب أكتوبر. وقال إنه يرى أن المخططين لهذه الحرب كان فى تقديرهم إجهاض هذه الفورة الشعبية، وتلك المقاومة التى اشتعلت فى الجماهير العربية، والتى بلغت ذروتها فى معارك الاستنزاف. وبدا أن الأوضاع العربية تنتقل من سيئ إلى أسوأ بعد حرب أكتوبر، حتى يصل سعد الله إلى حرب الخليج الأولى، ويقدر أن بداية ظهور الأورام فى جسده كان فى تلك الأيام التى راحت فيها الطائرات الأمريكية تشن حرب إبادة ضد العراق. لم تكن القضية إخراج الجيش العراقى من الكويت، وإنما كانت الهجمات تستهدف الإبادة الكاملة للشعب، للثقافة، للوجود.

وتستمر القطرات وإن كانت أبطأ.

يقول سعد الله، إن إسرائيل حقيقة موجودة أمامنا، وعلينا أن نتعامل مع هذا الوجود، فإما أن تقبل إسرائيل العيش فى سلام وبالتالى تندمج فى المنطقة كجزء منها، وإما أن تستمر عزلتها عما حولها كجيتو ضخم، وفى هذه الحالة ستتنقل المنطقة من حرب إلى حرب، ومن خراب إلى خراب.

قال إن الجيل الذى ينتمى إليه قد أوشك على الرحيل، وإن هذا مؤكد

بالنسبة له، وإنه ضد تسويق التفاؤل الكاذب، وللأسف سوف يرحل جيله، وإسرائيل موجودة، قائمة، وآفاق الصراع ممتدة، غامضة.

خفت صوت سعد الله، وركزت آلات التصوير على النقطة التى تخرج من الأنبوب إلى الوريد. وشيئًا فشيئًا تباطأت حركتها، توقفت تمامًا.. توقف الزمن، وانهمر دمعى، على سعد الله، على جيلى كله وعلى نفسى!

ثلاثة وجوه

كثير من الوجوه تطل عليّ، تطالعنى بعد ربع قرن، فى الواقع أو فى الذاكرة. وجوه تنتمى إلى تلك المرحلة الصعبة التى عاشها وطنى وأمتى منذ يونيو عام سبعة وستين وتسعمائة وألف إلى أكتوبر، عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف.

وفى هذا العام تفيض الاحتفالات بالدلالات العميقة، فثمة جهد حقيقى لدعم الذاكرة الوطنية والقومية، فلم تقتصر المسألة على المفهوم الإعلامى السريع، إنما تقيم القوات المسلحة ندوة كبرى افتتحها الرئيس مبارك أول أمس، وتقيم أيضًا مسابقة كبرى تتيح المشاركة لقطاعات عديدة من الشعب. والأهم ذلك الشعور القوى الخفى، فثمة رغبة للتأمل عند من قدر لهم معايشة الحدث مثلى، وثمة رغبة للمعرفة والإحاطة عند من جاء إلى العالم بعد أكتوبر عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف، أو كان طفلا صغيرًا فى تلك الأيام.

أود أن أتوقف قليلا لتحية ثلاثة رجال، لا تحتفى بهم وسائل الإعلام الرسمية كثيرًا، بل إنه من النادر ظهور أحدهم على شاشة التليفزيون. لكن سواء ظهر الفريق أول محمد فوزى أو لم يظهر، فلن ينسى التاريخ أنه كان قائدًا عامًا للقوات المسلحة منذ الحادى عشر من يونيو، عام سبعة وستين وتسعمائة وألف، وأنه بدأ مسيرة طويلة، شاقة، قاد خلالها عملية إعادة

بناء القوات المسلحة المصرية، بانضباط رفيع، وعلم وافر، إلى أن جرت أحداث مايو عام واحد وسبعين وتسعمائة وألف وزج به فى السجن. وأذكر أننى بكيت حزنًا وتأثرًا عندما رأيت صورته فى زنزانة المحاكمة الشهيرة التى بدت كمسرحية هزلية. وكان أستاذ قانون متطلع إلى السلطة يترافع مطالبًا برأس القائد العسكرى الصلب، الملتزم، الذى قاد عملية البناء العسكرى للقوات المسلحة.

الفريق أول محمد فوزى يقترب الآن من الثمانين. هذا الرجل العظيم، النزيه، الذى يعيش من راتبه التقاعدى، والذى يعانى المرض الآن ـ شفاه الله ـ لماذا لا يكرم بشكل ما. وما أكثر الذى كُرِّموا؟

وإذا طال التجاهل أيضًا الفريق سعد الشاذلى، فلن يستطيع أحد أن يمحو من التاريخ أنه كان رئيسًا لأركان حرب القوات المصرية فى أثناء الإعداد للقتال، وخلال العبور. وخلال عملى كمراسل حربى لجريدة الأخبار، شاهدت عن قرب عملية إعداد القوات للحرب التى قادها الفريق سعد الشاذلى. ويذكر كل من كان فى القوات المسلحة تلك الكتيبات الصغيرة التى وزعت على الضباط والجنود والتى أعدها، لتكون أدلة للمقاتلين، كيف يتصرف فى حالة الحصار، فى حالة الغارات الجوية، فى حالة فقدان الاتصال. كان الفريق سعد الشاذلى يفيض بالحيوية، وظل يقفز بالمظلة إلى ما بعد سن الخمسين. وكانت له شعبية خاصة ربما تكون إحدى الأسباب الخفية التى أدت بالسادات إلى إقصائه.

وأذكر أن هذه الشعبية تعود إلى فترة خدمته فى الكونغو تحت علم الأمم المتحدة، ثم خلال انطلاق إشاعة مدبرة عقب هزيمة يونيو يقول مضمونها إن ثمة لواء مشاة محاصرا فى سيناء ويبدى مقاومة شرسة ولم يستسلم، يقوده ضابط اسمه الشاذلى. لا أدرى حتى الآن إذا كانت هذه الإشاعة نتاج مخيلة الشعب المصرى عندما يلجأ إلى تراثه الطويل فى مواجهة المحن، أو أنها من

تدبير إحدى الجهات الرسمية لرفع معنويات الناس. لقد كانت هذه الإشاعة مقدمة لشعبية الشاذلى. وعقب حرب أكتوبر زرت سوريا ولبنان، وكانت صوره تباع كنجم ساطع للعسكرية العربية، وكان القوم يقبلون على شرائها.

لقد تعرض الفريق سعد الشاذلى لضغط عصبى شديد من الرئيس أنور السادات، خاصة عندما أعلن أنه انهار عقب الثغرة، وتبدو المرارة الشديدة فى تصريحات الفريق الشاذلى، لكن التزاما بالموضوعية يجب ألا يغيب عنا أن الذى أصدر قرار تعيينه رئيسًا لأركان الجيش هو الرئيس السادات نفسه.

إن دور الرجل كرئيس أركان أدار الحرب بكفاءة معروف محفوظ. لقد كان فى مقدمة الخطوط الأمامية شرقى القناة يوم السابع من أكتوبر، وكان مصدرًا لإعجاب المقاتلين والمدنيين. بعد ربع قرن، والرجل يخطو الآن فى العقد الثامن - أطال الله عمره - ألا يستحق تكريمًا خاصًا لدوره فى إعداد القوات وإدارة الحرب؟

أما الوجه الثالث الذى يطل علىّ، فللشيخ حافظ سلامة الذى لم يرد ذكره إلا فى جريدة الشعب. ولكن الشيخ حافظا كان أبًا روحيًا للسويس، طوال حرب الاستنزاف، وخلال الحصار الصعب، وكان مرجعية صلبة لكل المواطنين والذين حوصروا فى المدينة. لا أعرف الأسباب التى تدعو إلى التعتيم على الرجل، لكن تجربته فى السويس يجب أن تسجل، وخاصة دوره فى الحصار.

لقد قامت صحف المعارضة بإجراء أحاديث مع الفريق سعد الشاذلى، خصوصا الوفد، ونشرت الأخبار صورته مع التفاصيل التى أوردها المراسل الحربى المخضرم صلاح قبضايا عنه. لكن هذا لا يكفى. إن ربع قرن كفيل بإزالة أى حساسيات، وعلينا تكريم أولئك الذين أخلصوا للوطن مهما كان الخلاف بعضهم مع بعض من هذا الجانب أو ذاك. إنه تاريخ. وإنها ذاكرة وطنية تتسع للجميع.

الفورمالين

كانت نقابة الصحفيين ـ وأرجو أن تظل ـ قلعة حصينة للديمقراطية، وللدفاع عن أجمل ما فى هذا الوطن، تراثه، ثقافته، حرية الرأى للجميع. ولعل الذاكرة تضىء بهذا الاجتماع الحاشد، الذى يذكرنا بلحظات اندلاع الروح المقدسة لمصر، والذى عقد يوم سبت لمقاومة القانون ٩٣. كان ذلك فى بداية الحملة التى قادها الأستاذ إبراهيم نافع بحكمة واتزان ومقدرة رائعة على الحوار والمناورة. كان إبراهيم نافع بحق واحدا من أعظم الذين تولوا هذا المنصب الجليل، وكانت الظروف وعرة صعبة، وأمكن بالحركة الذكية إسقاط القانون الذى كان يستهدف تكميم الصحفيين.

ولكن.. كما يقول ابن إياس فى تاريخه «ليت لودام ذلك».

نعم.. ليت لو دام ذلك. نفس هذه النقابة التى أسقطت القانون ٩٣ بتلاحم أعضائها ومجلس نقابتها تغرق الآن فى مشكلات غريبة، ونسمع عن تفاصيل لا تبعث إلا الحزن عن تدهور أحوالها. ولعل المبنى الشائه الذى تستقر فيه الآن بالإيجار خير شاهد على أحوالها، بينما تبدو قطعة الأرض التى كان يقوم فوقها المبنى القديم الذى اعتدناه وألفناه أشبه بالخرابة، وغابت الأصوات والمعلومات كافة عن مشروعات بنائه.

ماذا جرى إذن للنقابة؟

لماذا أصبح حضورها باهتًا، لا ترتبط أخبارها إلا بصراعات داخلية بين أعضاء مجلسها؟ أين التلاحم الذى كان؟ وأين المواقف المبدئية الثابتة؟ وأين صوت النقابة فى القضايا الوطنية الكبرى؟ تمر أحداث جليلة فلا نسمع صوتًا منها، ولا نقرأ بيانًا عنها. أين موقفها من الوحدة الوطنية، والهجمات التى يتعرض لها الوطن الآن؟ أين موقفها من أوضاع الصحافة الجديدة، والصحف الفضائحية، وبعض محاولات التسلل الإسرائيلية عن طريق الصحف الصغيرة، المتوارية حتى الآن عن الأعين؟

لقد منحت صوتى خلال الانتخابات الأخيرة لزميل كبير، ماضيه عريق فى المواقف الوطنية والقومية والمهنية، ومنحت صوتى لزملاء أفاضل، منهم مناضلون كبار من أجل الحرية والديمقراطية. ولكن يبدو أن الحالة العامة التى تغرق فيها مؤسسات أخرى قد أصابت نقابتنا العتيدة، أعنى حالة التحلل الروحى تلك التى تسرى فى أماكن عديدة، مزيج من اليأس، وفقدان الأمل فى أى تغيير ممكن إلى الأفضل.

فى المناخ الذى يلف الجميع بغلالة رقيقة من هواء ثقيل، بطىء، يكتم الأنفاس على مهل، تغرق الأرواح فيما يشبه هذا السائل البنى الفاتح الذى كنا نراه فى المدارس، اسمه الفورمالين، كان سائلاً يحفظ الجثث من التحلل، يوحى منظر الفراشة أنها حية، وتبدو الكائنات مفتوحة الأعين، لكنها غارقة تمامًا فى الفورمالين. هذا الفورمالين يزحف علينا شيئًا فشيئًا، وللأسف طال نقابتنا.

الخلاص السريع من هذا المبنى الكئيب المؤجر خطوة سريعة يجب أن تتم. لقد أفقدها هذا المبنى شخصية قوية، محددة، كانت فى المبنى القديم. لقد قيل إنه ضاق، وأنه أصبح آيلاً للسقوط مع أنه مشيد فى الزمن الذى لم يعرف الغش فى الحجر أو الخشب، وكان فيما يبدو متينًا، مهيبا

كل شبر فيه له تاريخ . هل كان هدمه جزءاً من خطة إغراق النقابة فى الفورمالين؟

ربما . . إن فى الصدر أحزانا كثيرة ، وأوضاع نقابتنا لا تسر . إنها قلعة من القلاع التى كانت تصون الروح وتساند الجماعة . والأمل فى شباب الصحفيين ، أن ينقذوا النقابة العريقة من الغرق تمامًا فى الفورمالين .

النقابة المفقودة

كانت نقابتنا طوال تاريخها ملاذاً آمنًا للحرية، للوطنية، لكل القيم الجميلة. وإذ أكتب هذه السطور تتعاقب على ذهنى صور شتى لنضال الصحفيين من أجل الحرية ومساندتهم الحركة الوطنية، كلها مرتبطة بالمكان، بالمبنى الذى أزيل، ولم تتخذ خطوة جدية حتى الآن لإعادة بنائه فى نفس الموضع، الموضع الذاكرة.

صالة النقابة الرئيسية، اجتماع حاشد فى بداية السبعينيات لمساندة الحركة الطلابية، سعد زغلول فؤاد يقف فوق السور خطيبًا فى حشود طلابية متظاهرة كانت تتجه إلى نقابة المحامين.

حديقة النقابة تموج بالحركة فى السادس من أكتوبر، كنا مفصولين فى عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف فى قائمة فبراير الشهيرة، التى ضمت مائة وأربعة من الصحفيين (بينهم النقيب الحالى). كانت القائمة تضم الأدباء والكتاب المعبرين عن ضمير مصر، بدءًا من توفيق الحكيم، ونجيب محفوظ، وحتى صحفيين كانوا فى بداية عملهم المهنى. قبل السادس من أكتوبر أصدر الرئيس السادات قرارًا بعودة الكتاب والصحفيين، وخلال تلك الأزمة مرت النقابة بأزمة سوف تعقبها أزمات أشد، لكنها خرجت منها قوية، صلبة. كل أزمة كانت أشبه بالنيران التى لا تزيد المعدن الثمين إلا قيمة وصلابة.

صالة النقابة وحديقتها فى انتخابات عام ثمانين وتسعمائة وألف العنيفة، والتى سبقها تهديدات من أعلى مستوى بتحويل النقابة إلى ناد، وقف الصحفيون صفّا واحداً، ولم تتحول النقابة إلى ناد، خرجت من الأزمة أقوى.

آخر جذوة رائعة، معركة التصدى للقانون ثلاثة وتسعين. لن أمل الإشارة إلى يوم السبت الرائع، الذى توافدت فيه حشود الصحفيين من الأجيال كافة، لن أنسى أبداً شجاعة الزملاء، خصوصا الشباب، الأجيال الجديدة التى نتشكك فيها عند تقدمنا فى العمر، وإذا مجموعهم تفاجئنا بما يتجاوز توقعاتنا. لن أنسى نقيب الصحفيين وقتئذ الأستاذ إبراهيم نافع، وهو يقود الهتاف الصميمى لحرية الصحافة، ثم يتقدم جموع الصحفيين ليقود المعركة بحنكة وشجاعة ومهارة، أدت فى النهاية إلى تراجع الحكومة عن القانون السيئ.

المشاهد عديدة، والصور بليغة، كنت أستعيدها بحسرة فى المبنى القبيح، الذى تستقر فيه نقابتنا الآن بالإيجار، ما أشد الفارق بين الاجتماعات التى رحت أستعيد ذكراها، وتلك الليلة السوداء التى شهدتها منذ أسبوعين فى النقابة، عندما نظمت اللجنة الثقافية ندوة لمناقشة حريق المسافرخانة. وتوافد على نقابتنا مجموعات من موظفى وزارة الثقافة وهيئة الآثار، يتقدمهم الدكتور جاب الله، أمين المجلس الأعلى للآثار.

جاء الأمين، العالم، الأستاذ الجامعى على رأس الموظفين التابعين له، ليحتلوا النقابة، لا ليناقشوا علماء الآثار الذين تحركوا بوازع من ضميرهم الوطنى، فضلا عن المهتمين والمثقفين ممن كانوا قلة للأسف ـ إنما ليرهبوا الآخرين الذين يسعون إلى مناقشة أسباب الحريق. وفى قلب نقابة الصحفيين جرى الصياح من الموظفين. وبعد أن تم إرهاب المتحدثين من

العلماء وانتهى الأمر بواحد من أفضلهم وأنقاهم ضميراً ـ الدكتور محمد الكحلاوى ـ إلى مستشفى قصر العينى، وقف الموظفون يتبادلون التهانى مع الأمين!

لقد وصفت ما جرى فى يوميات الأخبار يوم الثلاثاء الماضى. وفى تلك الليلة الكئيبة، كان هناك زملاء أفاضل منهم الأستاذ رجائى الميرغنى، المسئول عن النشاط الثقافى، ومحمود زينهم عضو مجلس الشعب الذى جلست إلى جواره محتميا به، أحتمى به فى مقر نقابتنا العتيدة، وأعجب من تطورات الوقت. فى الماضى كنا نخشى الرجال التابعين للداخلية وأجهزة الأمن، والآن أصبحنا نخشى العاملين فى وزارة الثقافة والهيئات التابعة لها، وهم يتصدون فى شكل منظم للمتحدثين فى ندوة عامة، كان الهدف منها رثاء المسافرخانة وليس إدانة أحد، وعندما وصفت ما جرى فى يوميات الأخبار مخففًا، اتصل بى الأستاذ الدكتور جاب الله فى اليوم التالى ليبث فى نفسى الخوف والخشية، هكذا يظن، ولهذا حديث آخر!

إننى أستعيد ذكرى تلك الليلة وما جرى فيها من استباحة للنقابة وحرمها، وأستعيد اللحظات الثمينة فى تاريخ نقابتنا، فأجد الفارق بالغ الدلالة، بين ما كان يشهده المبنى القديم، وما يشهده المبنى الجديد. وللمبنى ذاته وقفة أطول فى الأسبوع القادم، لكننى الآن أطرح سؤالاً على شيوخ المهنة وأركانها:

كيف يمكن إنقاذ النقابة من ذلك الحال الذى يشبه سائل الفورمالين الذى أشرت إليه الأسبوع الماضى؟

نقابة الصحفيين قلعة من قلاع الحرية، ليس فى مصر، ولكن فى العالم العربى، وقد ظلت طوال تاريخها بمراحله المختلفة مهيبة، منيعة، قلعة

للدفاع عن الديمقراطية، فكيف ننقذها من الفورمالين القاتل الذى يشملها الآن؟ كيف تستعيد حيويتها ودورها؟ كيف نحفظها من التحلل قبل أن تتحلل المهنة ذاتها؟

أسئلة أطرحها على أساتذتنا وزملائنا الأفاضل وكل حريص على حرية الوطن، وحقوق الإنسان، والبوح.. مجرد البوح؟! كيف نسترد نقابتنا المفقودة؟

هيبة المبنى

خلال المؤتمرات والاجتماعات التى شهدها مبنى نقابة الصحفيين المندثر، كانت قوات الأمن العلنية والسرية تحيط بالمبنى، ولم يحدث قط أن اجتاز أحدهم عتبة باب النقابة. كنت أراهم على الرصيف الآخر، أو على مقربة من الباب الرئيسى، وكان الضباط الكبار من مباحث أمن الدولة (حتى رتبة لواء) يقفون فوق الرصيف حتى نهاية المؤتمر أو الاجتماع العام، ولم يحدث قط أن دخل أحدهم من الباب إلى حديقة النقابة التى تحولت إلى خرابة الآن. وفى كثير من الجمعيات العمومية كانت مجموعات من الصحفيين تقف عند الباب لترديد الهتافات والشعارات التى كان بعضها شديد الجرأة.

حدث هذا فى كل العهود، لم يحدث تجاوز واحد من الشرطة، كانت تتواجد لتؤمن ولتحمى، ويمارس الصحفيون حريتهم بشجاعة وبسالة فى الحديقة، فى صالة الاجتماعات، فى قاعة محمود عزمى، فوق السطح. على امتداد سنوات وحقب لم يحدث امتهان للنقابة أو استباحة لها كما جرى فى تلك الليلة، عندما جاء موظفو وزارة الثقافة والمجلس الأعلى للآثار، عندما جاءوا إلى الندوة التى نظمتها اللجنة النقابية، واحتلوا صفوف المقاعد، ثم ارتفعت أصواتهم بالصخب والمقاطعة للأساتذة الأفاضل الذين جاءوا آمنين إلى حرم النقابة التى طالما دافعت عن حرية الرأى، ونوقش فى فضاءاتها كل قضايا الوطن.

جاء موظفو الوزارة والمجلس ليتصرفوا بمنطق العصابات وجماعات القمع، ضد من تسول لهم أنفسهم رفع الصوت بالدفاع عن آثار مصر، أو مجرد بحث الأسباب التى أدت إلى احتراق أثر نفيس لن تعوضه أموال الدنيا كلها، أعنى المسافرخانة.

فى بداية الندوة، وقبل أن ينطق أى إنسان بكلمة، صاح موظف عريض الأكتاف، مفتول العضلات، صاح متهكمًا.

«معارضة وحكومة»

عندئذ علق العالم الأثرى الجليل الدكتور على رضوان، قال: إن هذه الجملة أثارت الحزن فى نفسه، لأن الموضوع لا يتعلق بمعارضة تواجه حكومة، أو حكومة فى مواجهة معارضة، إنما نحن كلنا فى قارب واحد، وما جئنا إلى هنا إلا لكى نبحث فى الأسباب التى أدت إلى حريق المسافرخانة حتى نتفاداها.

كان تعليقًا صادقًا، نابعًا من القلب ومن الضمير. وفى المواجهة كان الصياح وكانت الشوشرة، وكان عدم احترام النقابة الداعية، من جانب الموظفين المدفوعين، المأمورين بالتصدى لكل من يحاول الحديث عن المسافرخانة، حتى يمر دخان الحريق، وينسى الناس الموضوع. لقد نكأت هذه الليلة جراحًا كثيرة، أهمها ما يتعلق بنقابتنا ذاتها، تلك النقابة التى بدأ إغراقها فى سائل الفورمالين البنى، البارد كالموت، وشيئًا فشيئًا راحت تتوارى.

سمعنا عن خلافات بين الأعضاء، وعن انتهاك لحرم النقابة، وعن صحفيين لم يصلوا إلى حلول فى أزمات تعرضوا لها مع مؤسساتهم. وبين الحين والحين تطالعنا لوحات الإعلانات فى مداخل المؤسسات الصحفية بإعلانات عن رحلة إلى بورسعيد، أو أجهزة بالتقسيط، أو ملابس بالاستمارة. وهذا كله جيد، فالخدمات للأعضاء مطلوبة، ولكن هذه

ليست نقابتنا التى عرفناها، والتى كانت آخر معركة كبرى خاضتها، معركة القانون ثلاثة وتسعين سيئ السمعة.

لقد بدأ إخفاء النقابة وإضعافها منذ إزالة هذا المبنى التاريخى الذى شهد نضالات الصحفيين وأيامهم المجيدة، سواء بالنسبة لقضاياهم المهنية أو لقضايا الوطن.

أزيل المبنى الذاكرة، وانتظرنا الشروع فى البناء الجديد. قيل إنه سيكون عمارة مرتفعة، شاهقة، تؤجر بعض أدوارها، وتستقر النقابة فى طابق أو طابقين، وهذا فى رأيى لا يليق بنقابة الصحفيين، أن يتحول مكانها الذاكرة إلى مكاتب استثمارية، إضافة إلى أن منطقة وسط البلد بدأت تفقد أهميتها ولم تعد مركزاً للمكاتب الاستثمارية.

إن استعادة المبنى قضية حيوية، أساسية، ترتبط بهوية النقابة وتاريخها ودورها الـمُراد إغراقه فى الفورمالين. لا بد أن يكون المبنى مهيبًا، معبراً عن النقابة العريقة. هذا المبنى يجب أن يكون المهمة الأولى للنقيب القادم، والمجلس الذى سيعاد انتخاب أعضائه فى مارس القادم. إن استعادته وظهوره مرة أخرى فى تلك الخرابة الخالية الآن سيكون جزءاً من استعادة حضور النقابة المهيب. عندئذ لن يفكر أحد فى استباحة النقابة، وتعود منبرًا قويّا للديمقراطية، وضميراً للوطن.

الخاص والعام..

أنتمى إلى جيل يُعرف بجيل الستينيات، أصغره تجاوز الخمسين الآن، ومعظم من ينتمون إليه تجاوزوا الستين، الحديث عن هذا الجيل يطول، خاصة إذا تناول الأمر الأدب والسياسة والفن، ورموزه فى هذا المجالات. غير أننى أشير إلى خاصية أساسية فى أبنائه، وهى معايشة الحدث العام باعتباره حدثًا شخصيًا. ربما يرجع ذلك إلى ظروف نشأتنا، والمناخ العام. من كان مثلى، متجاوزًا الخمسين الآن بعامين، قد فتح عينيه على ثورة يوليو، أقدم صورة أتذكرها فى حياتى ترتبط بحرب فلسطين، كنا نسكن فى الطابق الأخير من بناية تقع فى حارة من حوارى القاهرة العتيقة، على مقربة من *الضريح القاهرى* لمولانا وسيدنا الإمام الحسين. كنا فى الطابق *الخامس، وصاح مراقب الغارات الجوية* يطلب من سكان الطوابق العليا النزول إلى الأدوار السفلى. كانت القاهرة كلها مظلمة، والسماء مليئة بنجوم شديدة اللمعان، وأعمدة هائلة من الضوء تمسح القاهرة، أذرع طويلة من الشعاع تتنقل عبر السماء من شرق إلى غرب ومن غرب إلى شرق. كان للقوات المكلفة بالدفاع الجوى كشافات ضخمة تصوبها باتجاه السماء المظلمة وتحركها بحثًا عن الطائرات المغيرة لتطلق عليها المدفعية المضادة النيران. بالطبع كانت الطائرات صغيرة، تشبه أقفاص الدجاج، بطيئة السرعة، ولكل داء دواء، فمع تطور الطائرة، تطورت أيضًا الأسلحة المضادة لها.

تحتفظ ذاكرتى بشدة ظلمة الليلة، وأحاسيس الخوف التى جعلت الجيران يتحدثون عن الحرب، وعن الشباب الذين ذهبوا إلى هناك، ويحاربون الصهاينة فوق أرض فلسطين، وعن الأسلحة المستخدمة، وعن إذاعة لندن التى اعتادت بث الدسائس، ومع ذلك كان الجميع يصغون إلى النشرة عبر المذياع. وأذكر أن الوالد ـ رحمه الله ـ كان يصف المذيع بأنه أخنف. مرت الأيام وقامت ثورة يوليو، كان باستطاعتى أن أقرأ الصحف، إذ مضى علىّ عام فى المدرسة الابتدائية، وسرعان ما رددنا أناشيدها. وأحببنا قادتها، وأصغينا إلى شعارات الاتحاد والنظام والعمل، نقشناها على صفحات قلوبنا. وعندما سمعت عن تعرض جمال عبد الناصر لمحاولة الاغتيال عام أربعة وخمسين وتسعمائة وألف بكيت من الحزن، وفرحت لنجاته. وعندما وقع العدوان الثلاثى الشهير كنت فى الحادية عشرة من عمرى، وكنت أشتعل رغبة فى المشاركة، وخطبت فى المدرسة، ولكن هذا لم يكفنى فادعيت أن أحد أقاربى يحارب الآن فى سيناء، وكل يوم كنت أقابل صحبى بحكايات عنه وعن آخرين يمتون إلينا بصلة.

ما زلت أذكر يوم الجمعة عندما أدينا الصلاة فى الجامع الأزهر، واعتلى جمال عبد الناصر المنبر، كان فى مواجهتنا تماما، ولم يكن يفصلنا عنه إلا أمتار معدودات، ولم تكن هناك حراسة مكثفة كتلك التى بدأ ظهورها بعد عام ستة وستين، تلك يده تلوح فى الفراغ، فى فراغ ذاكرتى، وصوته المتهدج بالانفعال.

«سنقاتل، سنقاتل، سنقاتل».

بمجرد أن أستعيد مشاعرى فى تلك اللحظات تأخذنى الآن رجفة، لم تبلَ مع مرور الأوقات والزمن. بل إننى أذكر رائحة الأبسطة العتيقة التى كانت جبهاتنا تلامسها عند الركوع.

كان العمر ما زال بعد فى المقتبل، وكانت الغضاضة متكتملة، والأيام تشتعل بالشعارات والأناشيد، كانت اهتمامات الإنسان وهمومه تتجاوز سمك جلده إلى ما يحيطه، إلى وطنه، إلى أمته، إلى الإنسانية كلها.

* * *

كاتنجـــا

فى بداية الستينيات نشبت أزمة فى الكونغو بعد الاستقلال، وكانت مصر تناصر لومومبا، أصبح بطلا شعبيًا، وكنت أرى صورته معلقة فى المتاجر الصغيرة، والحوارى فى القاهرة القديمة. وقتل لومومبا، وانتابتنا مشاعر حزن هائلة. كان وجهه الإفريقى يفيض رقة وعذوبة. وبعد فترة من استشهاده تدخلت بلجيكا عسكريًا، وأرسلت قوة تقدر بكتيبة، تدخلت فى إقليم كاتنجا الغنى بالثروات الطبييعية، وأذكر أننى عندما قرأت خبر الهجوم البلجيكى فى الصباح مشيت أغلى فى الشوارع، أنفث غيظًا. كنت أتألم لضرب هانوى، وكنت أحفظ القرى والمدن فى فيتنام الشمالية والجنوبية.

وفى عام أربعة وستين وتسعمائة وألف كتبت قصة قصيرة عن جندى أمريكى اسمه (كلارك) تاه فى أحراش فيتنام، ويحاصر بالموت فى بلاد لا يعرف أهلها، وليس له أى علاقة بها. وبالطبع لم أكن زرت فيتنام، ولم أكن عايشت الحرب الفيتنامية، لكننى من خلال المتابعة كنت أعرف جيدًا أشجار البامبو، وأسماء الأنهار والمواقع، وأنواع الأسلحة المحلية التى اخترعتها قوات الفيت كونج. كان لحضور فيتنام وحربها بعد أسطورى فى حياتنا.

وكان هوشى منه زعيما له شعبيته فى مصر أيضًا، تماما مثل جيفارا الذى زار مصر، ورأيته فى التليفزيون بجوار عبد الناصر فى مدينة شبين الكوم.

لا أذكر المناسبة، لكنها ربما كانت احتفالية بعيد العمال. بدا جيفارا هادئا، وألقى خطابا قال فيه إن عبد الناصر لو رشح نفسه فى كوبا لحصل على أصوات الشعب الكوبى. كان العداء للاستعمار فى أوجه، سواء كان استعماراً قديمًا متمثلا فى إنجلترا أو فرنسا، أو حديثًا متمثلا فى إسرائيل أو الولايات المتحدة الأمريكية. وكانت الأخيرة بالذات محوراً لتلك الكراهية التى اشتعلت مناصرة للشعوب، والإنسانية. ورغم كل المتغيرات التى وقعت بالعالم، فإن الأسس التى نمت داخلى واستقرت تجاه سياسة هذه الدولة وجدت ما يؤكدها ويزيدها رسوخًا، خاصة فيما يتعلق بالموقف من القضايا العربية، يمكننى أن أمضى بلا توقف فى استدعاء تلك الأيام البعيدة وما حفلت به من أحداث، ولكن يمكن القول إن يونيو عام ١٩٦٧، كان العلامة الفاصلة، الحاسمة.

* * *

المفصل الرئيسى

الآن ونحن نقترب من بداية يونيو عام ١٩٩٦، يمكننى أن أتذكر أحداث الأيام الستة، ليس يوما بيوم، ولكن لحظة بلحظة، منذ البيان الأول الذى أذيع صباح الاثنين فى التاسعة تقريبًا، وكان يعلن عن هجوم شامل شنته قوات العدو على امتداد الجبهة المصرية. ويذكر كل من عايش تلك الأيام النبرة الحماسية للمذيعين، والبيانات المتوالية عن إسقاط أعداد كبيرة من الطائرات المعادية، وإن استلفت نظرى عدم وجود أى ذكر لتقدم قواتنا. حوالى الواحدة ظهراً دوت طلقات مدفعية مضادة، وكنت عائداً فى طريقى إلى البيت بحارة درب الطبلاوى المتفرعة من شارع قصر الشوق، رفعت رأسى، وفوق، فى نقطة تتعامد على مئذنة مسجد سيدى

مرزوق، لمحت طائرة ميراج تطير على ارتفاع منخفض. إنها المرة الأولى التى أرى فيها نجمة داوود على شىء يمت بصلة لإسرائيل. كان ظهور الطائرة هكذا دانية فوق البيوت مثيراً وغريبًا ومحيراً، أذكر أن أكبر علامة استفهام داخلى كانت تتعلق بكيفية وصول هذه الطائرة إلى سماء القاهرة. كيف نفذت عبر الدفاعات المصرية كلها لتحوم على هذا الارتفاع المنخفض؟ فى نفس اليوم رأيت طائرة معادية أخرى وأنا أعبر شارع الأزهر، لكنها فى هذه المرة كانت تطير على ارتفاع شاهق، كانت مجرد نقطة بيضاء فى سماء يونيو الحارة، وكانت القذائف المضادة تنفجر على ارتفاع أقل.

فى المساء كانت الدلائل تشير إلى كارثة ما، ولكننى لم أصدق، وحتى الخميس، مساء، قبل ظهور جمال عبد الناصر فى التليفزيون، كنت موقنًا أنه يخفى مفاجأة ما، وأن عبد الناصر عندما يظهر فى التليفزيون فلا بد أن الأمر يتعلق بتطور عسكرى لم تتضمنه البيانات المتوالية. كان الشحن المعنوى الهائل قبل الخامس من يونيو يجعل احتمال الكارثة أمراً مستحيلا، وكانت الأفئدة ملتهبة، وإن لاح الشؤم عندى مع ملاحظة الأغانى التى بدأت تذيعها الإذاعة المصرية، أغان فيها انكسار، مغايرة لتلك الأغانى التى سمعناها قبل الاثنين، كانت أغنية أم كلثوم الجميلة، الرقيقة:

مصر التى فى خاطرى وفى دمى

تثير عندى شجنًا غامضًا، وحزنًا، وتمس وتراً غامضًا فى نفسى ينذر بالكارثة. ويعود حبى لهذه الأغنية إلى صباى، عندما كنت تلميذاً فى المدرسة الابتدائية. كان مدرس اللغة العربية اسمه الأستاذ رضوان، كان أصلع، ممتلئًا، تجاوز الخمسين. وكانت له هيبة، كان متيمًا، عاشقًا لأم كلثوم، وكثيراً ما أغلق باب الفصل، وبدأ ينشدنا هذه الأغنية الوطنية فى صوت عذب، رائع، وكانت عيناه تدمعان. وبقدر ما كان صوته يثير

إعجابى وبهجتى بقدر ما أثار شجنى. لم أنسه قط حتى الآن، وقد استوحيت شخصيته فى العمل الوحيد الذى كتبته للتليفزيون خصيصا، وكان قصة وسيناريو بعنوان «عم حمزة»، كتبتها خصيصا ليقوم بها ممثل كوميدى أحببته جدا وهو المرحوم عبد المنعم إبراهيم، وأخرجها صديقى الفنان يحيى العلمى، الذى أخرج لى قصة قصيرة عام تسعة وستين وتسعمائة وألف عنوانها (أيام الرعب). وشاء القدر أن نرتبط بصلة وثيقة حتى أخرج مسلسل (الزينى بركات) المأخوذ عن روايتى المعروفة.

كانت الأغنية حزينة تعنى أن ثمة رثاء لشىء هائل، شىء لا يمكن تحديده، ويمكن أيضا، شىء يمت إلينا، ونمت إليه، وكان كل منا يحاول أن يقصى عن نفسه وذهنه الخواطر السود، ولكن عندما ظهر جمال عبد الناصر على شاشة التليفزيون، وقبل أن ينطق أى كلمة فى بيانه الموجه إلى الأمة، أدركت حلول الكارثة العظمى. بدا ذلك من ملامحه المجهدة، وانحناءة كتفيه، والسواد المحيط بعينيه.

عبد الناصر منكسر.

لم نعتد أن نراه هكذا، ولذلك لم يكن انكساره البادى محدودًا بإطار وقته، إنما كان يعلن عن انكسار أمة وهزيمة حقبة.

لا أعرف لحظة فى حياتى امتزج فيها الخاص بالعام كتلك اللحظة. والآن بعد تسعة وعشرين عامًا أتطلع إلى ملامحى فى المرآة، فأرى اكتمال مشيب شعرى، مشيب مبكر. وأثق أن الشعيرات الأولى طق فيها البياض أثناء تطلعى إلى الشاشة - أبيض وأسود - لحظة أن رأيت البطل مهزومًا، كسيرًا، يعلن الهزيمة وتحمله مسئولية كل ما جرى. إنها اللحظة الفاصلة فى جيلى، وما زلنا نعيشها حتى الآن.

اللحظات الفارقة

تلك لحظة حاسمة.

ليس فقط فى حياتى، على المستوى الفردى، إنما على مستوى وطن وأمة وتاريخ، حتى التمهيد لإعلان البيان الذى سيلقيه جمال عبد الناصر ليلة الخميس الثامن من يونية، حتى اللحيظات التى سبقت ظهوره كان لدىّ أمل قوى أنه سيعلن مفاجأة، أن أخبار التحول العسكرى الإيجابى فى صالحنا سينهيه هو إلينا بنفسه. وهل كان ظهوره علنًا مرتبطًا من قبل إلا بالانتصارات، بالقوة، بالأمل فى الغد؟!

لم يكن لدينا جهاز تليفزيون فى ذلك الوقت، لذلك انتقلت مع جيران آخرين إلى شقة جارنا (أبو وفاء) الذى كان يمتلك جهازًا صغيراً، وكان الإرسال بالأبيض والأسود. كنا نسمع عن احتمال تلوين الإرسال فى المستقبل، ويبدو هذا كأمر أسطورى. وفى السبعينيات عندما بدأ الإرسال الملون، كان من يحوز جهازًا يستدل به على ثرائه، الآن أصبح منتشراً فى مستويات المجتمع كافة بلا استثناء.

وقفنا فى الصالة الضيقة نرقب ظهور الزعيم، فى داخل كل منا هذا الأمل الغامض أن معجزة ما ستقع بعد أن بدأت بوادر الهزيمة تلوح، ليس فى لهجة البيانات العسكرية فقط، إنما فى الأخبار التى كنا نصغى إليها عبر راديو لندن، وصوت أمريكا المنحاز إلى إسرائيل، والأخطر.. ظهور بعض

الجنود الشاردين فى المدينة، يرتدون ملابس القتال، ويتحدثون عن أهوال وقعت فى سيناء، لا أذكر المذيع الذى قدم الزعيم. تتمركز الذاكرة حوله هو وتلغى ما عداه، ربما كان «جلال معوض»، ولكن «جلال» كان مرتبطا باللحظات الحماسية، بالانتصارات. على أى حال لا أذكر تمامًا، لكن ما أعيه جيداً أن بصرى عندما وقع على ملامح عبد الناصر أيقنت عندئذ بالكارثة الشاملة التى نعيش آثارها بعيدة المدى حتى الآن. .

* * *

الرفــض

لم تكن ملامحه كما عرفناها، كان حزينا، مثقلا، متهدل الكتفين، منكسر الصوت والنظرات، كان جريحًا. ولأن الشىء لا يكتمل إلا بنقيضه، فقد استدعى كل منا البطل كما عرفناه، كما عهدناه، وكانت المقارنة قاسية، صعبة. أفظع اللحظات وأشدها عدما يعلن رب العائلة عن عجزه، عن انكساره، عندما يقر بهزيمته.

ماذا يبقى إذن؟

أشد اللحظات وعورة تلك التى يعلن فيها ربان السفينة ظهور العطب. فى قصص السندباد البحرى يكون إعلان القبطان عن الكارثة أشد رعبًا من وقوعها، عندما يصرخ، ويخلع جبته، وينتف لحيته أو يشدها، ويسقط فى قاع المركب، ماذا يفعل القوم عندما يسقط حادى القافلة؟

إنه انفراط العقد، وبدء الزلزلة.

كان وجه عبد الناصر معبراً عن ضراوة المأساة، وما جرى منذ صباح الاثنين. بدأ يتحدث بنبرة خافتة، حزينة، لم نعهدها من قبل، وبدأ قلبى يخفق بسرعة، ورغبة فى البكاء تلوح من بعيد. كنت أعى أننى أمر بلحظة

فارقة، لحظة لها موقع خاص فى مسار الزمن والتاريخ. لقد أصبح تعبير (لحظة تاريخية) مبتذلا فى اللغة العربية للإفراط فى استخدامه، فكل اللحظات، وكل الخطابات توصف بالتاريخية، وهى ليست كذلك. غير أن هذه اللحظات فى تلك الليلة كانت تاريخية بحق، لحظات تشبه وصول الأخبار إلى القاهرة منذ خمسة قرون، عام اثنين وعشرين وتسعمائة الهجرى، السابع عشر بعد الخمسمائة والألف الميلادى، لتعلن هزيمة الجيش المصرى المملوكى فى ساحة مرج دابق أمام السلطان سليم خان العثمانى، واستشهاد السلطان أبى النصر الأشرف قنصوه الغورى. يصف المؤرخ المصرى المعاصر للحدث محمد أحمد بن إياس الحنفى المصرى ما جرى بالتفصيل ويقول: إن القاهرة رجت رجّا، ارتجت المدينة.

لقد استدعيت إلى ذاكرتى تلك اللحظة النائية والتى وصفها شيخى وصاحبى ومعلمى ابن إياس والذى بدأت أعيد اكتشافه من جديد بعد هذه اللحظات. وأجتهد لتقديمه، فلم يكن لجوئى إلى لحظة انتصار ماضية، إنما إلى لحظة هزيمة مشابهة، ليس لتأمل العبر، إنما لفحص الحال، والتأكيد على إمكانية تجاوز اللحظة المريرة التى نمر بها مادام الأجداد عبروا لحظات مماثلة وتجاوزوها فيما بعد.

هكذا بدأ استنفار حواسى وقواى وعبد الناصر لم ينته بعد من إلقاء خطابه، حتى وصل إلى إعلانه تحمل المسئولية كاملة، وتنحيه عن الحكم، أو بمعنى أدق، تنحيه عن موقعه، فلم يكن جمال حاكمًا، بل كان زعيمًا، وثمة فارق كبير بين الاثنين، ولم يكن زعيمًا عاديًا، بل كان ثمة ما يوحد بينه وبين كل فرد منا، كل ما عشناه معه مر أمامى وأمام الآخرين.

إلى أين؟

إلى أين تذهب؟

إلى من تتركنا؟

كيف تفارقنا ونبقى بدونك؟

معان متشابهة، عديدة، جالت بذهن كل منا فى بر مصر، بل وفى العالم العربى.. هكذا انطلقت الصرخة بالرفض:

لا.

وتدفقنا إلى الطريق، من الحارة إلى شارع قصر الشوق، إلى شارع الجمالية. كان الجميع فى الطرقات يصرخون، أو يتطلعون فى هلع، رجال، أطفال، نساء.. لماذا تعلق بذاكرتى صورة هذه السيدة التى كانت فى منتصف العمر، كانت ترتدى ملابس بنت البلد كانت حافية بلا حذاء، وكانت وحيدة.. كنت أجرى مع الجموع، نخرج من بيوتنا، من طرقاتنا، من لحظتنا الخطيرة لنواجه التاريخ والزمن..

* * *

المكان والزمان

لم نكن ندرى إلى أين؟

من الحوارى إلى الشوارع، من الشوارع إلى الميادين الصغيرة، إلى الشوارع الرئيسية إلى الميدان الرئيسى للمدينة وهو ميدان التحرير.. أطفال، نساء، رجال، شيوخ، خرجوا إلى الليل والخطر يواجهون المجهول. كانت الهتافات تلقائية.. قيل فيما بعد إن الاتحاد الاشتراكى ـ التنظيم السياسى الحاكم ـ دبر هذه المظاهرات التى كانت تطالب عبد الناصر

بالبقاء والاستمرار، وترفض الهزيمة أيضًا. ومن واقع ما عاينته أقول إنه ما من تنظيم مهما بلغت قوته يمكنه تحريك هذه الجموع.

فى شارع المشهد الحسينى التقيت بصديقى يوسف القعيد الذى كان يقضى مدة خدمته فى مستشفى غمرة العسكرى، كان مجندًا فى القوات المسلحة، اندفعنا معًا إلى شارع الأزهر. فجأة بدأت غارة جوية، أظلمت الطرقات، وتوالت الانفجارات فى السماء، حتى الآن ما تزال هذه الانفجارات تمثل لغزًا غامضًا لم يكشف عنه أحد، كانت انفجارات المدفعية فى سماء القاهرة عنيفة جدًا، وبرغم الخطر المحوم لم ينسحب الناس من الشارع، كانوا يتحركون كتلة واحدة، واتجه جزء كبير منها إلى ميدان التحرير الذى امتلأ تماما بالخلق، وجزء أكبر اتجه إلى مصر الجديدة حيث مقر إقامة الرئيس جمال عبد الناصر. الطريف أن وزير الإعلام محمد فائق كان يستقل سيارته متجها إلى منزل الرئيس، ورآه البعض فظنوا أنه زكريا محيى الدين الذى أسند إليه الرئيس عبد الناصر السلطة خلال إعلانه التنحى، هاجمه البعض وكادوا يعتدون عليه بالضرب.

من ليلة الخميس، إلى صباح السبت غصت الشوارع بالجماهير. إن كلمة الجماهير تبدو مجردة عندما نقرؤها، ولكن عندما نواجه بالناس ونسعى بينهم، نشعر بهذا النبض الجماعى الذى يوحد الجميع، وقد عشت هذه اللحظات الجماعية مرات عديدة، خلال العدوان الثلاثى عام ستة وخمسين وتسعمائة وألف، وخلال الاحتفال بإعلان الوحدة بين مصر وسوريا عام ثمانية وخمسين وتسعمائة وألف، وفيما بعد، فى العاشر من مارس سنة تسعة وستين وتسعمائة وألف عندما خرج الشعب المصرى يودع الشهيد الفريق عبد المنعم رياض، رئيس أركان حرب الجيش المصرى، الذى استشهد فى حرب الاستنزاف على حافة قناة السويس، وكان

استشهـاده نقطـة تحول فى المواجهة بين إسرائيل والقوات المسلحة المصرية ، اللحظة الرهيبة الأخرى عند رحيل عبـد الناصـر ، عندمـا خرجت الأمـة العربية تودع البطل فى مشهد أسطورى بدأ من ضفاف النيل .

تلك اللحظات لا تنسى ، إنهـا اللحظات الفـارقـة فى تـاريخ الشـعـوب والأمم . . إنهـا اللحظات العـلامـات ، وقـد كـان من حظنا أننا عـشناها وشاهدناها ، وشاركنا فيهـا ، وكان أعظم ما جرى فى تلك الليلة هو رفض الشعب المصرى ، الرفض التلقائى ، الصارم ، للهزيمة ، وهذا ما حدد مسار الصراع فيما تلا ذلك .

عبد الناصر.. وذلك الحنين

الثامن والعشرون من سبتمبر.

إنه يوم الفقد الأعظم، يوم الرحيل الأبدى والولادة من جديد أيضًا، إذ غاب جمال عبد الناصر بالجسد عن عالمنا، وبقى بالمعنى والرمز، ولهذا لم تهدأ الدنيا حوله حتى الآن. فالموتى حقًا لا يثيرون جدلاً، ولا يبعثون خوفًا. منذ أسبوعين فقط مضت الذكرى الخامسة والعشرون، ربع قرن. حقًا.. ما أسرع مرور الزمن، ما أسرع مرور الأيام وانقضاءها. ربع قرن يوازى لحظة فى عمر شعب يقاس بآلاف السنين، ولكنه بالنسبة لنا، على المستوى الفردى يوازى عمرًا ومدى. وعندما يمضى ربع القرن المقبل، وتُحيا ذكراه الخمسون، من الأرجح أن معظم أبناء جيلى لن يكونوا ساعين فى هذا العالم، لذلك استغرقتنى الذكرى هذا العام، وكان سعيى لزيارته ـ أنا الذى لم أقترب منه حيًا ـ له معان أخرى كثيرة.

طوال السنوات الماضية لم أنقطع عن زيارة مثواه الأخير، خاصة فى ذكراه. أمضى بمفردى أو بصحبة بعض الأصدقاء، لا نمثل إلا أنفسنا، تماما كما كنا نقف فى مواكبه، ننتظر هلته وطلته علينا، مجرد أفراد فى جمع كبير يمثل الشعب المصرى.

أقف على ضريحه، أقرأ الفاتحة، ينتابنى ذلك الفيض الذى يغمرنى عندما أقف على ضريح أبى، يقوم من جانبى إليه حوار ومناجاة، لعلها

تبلغه بشكل ما . وإذ أفرغ أتأمل أولئك البسطاء القادمين من حوارى القاهرة، والقرى المصرية النائية، رجال يرتدون الجلابيب والملابس البسيطة، منهم شباب جاء إلى الدنيا بعد رحيله، يقفون فى رهبة وحنين إلى الرمز، إلى المعنى . وفى السنوات الأخيرة ظهرت علامة جديدة، تلك الرسائل التى يشيعها بعض المواطنين إلى عبد الناصر فى ضريحه، يرسلونها من أماكنهم النائية، يشكون ويبثون، وهذه ظاهرة لم أعرف مثيلا لها، إلا تلك الرسائل التى يبعث بها المواطنون إلى ضريح الإمام الشافعى والتى تناولها بالبحث والتحليل الدكتور سيد عويس عالم الاجتماع العظيم .

فى هذه السنة، رحت أستعيد لحظات كثيرة، تشكل أثمن ما فى عمرى، محورها عبد الناصر .

* * *

الثـــورة

فى الثالث والعشرين من يوليو، سنة ألف وتسعمائة واثنتين وخمسين كان عمرى سبع سنوات وبضعة شهور، كان قد مضى على دخولى مدرسة عبد الرحمن كتخدا الابتدائية بحارة قصر الشوق حوالى عام، كنت أقرأ الصحف، فقد تعلمت القراءة قبل دخولى المدرسة، إذ كان والدى ـ رحمه الله ـ يقرأ بصعوبة، وكان حريصا على شراء الصحف، خصوصا يوم الجمعة، عندما يمر عم محمد فى حارتنا مناديًا على الأهرام وأخبار اليوم والمصرى، فيشترى الأهرام، ويبدأ القراءة ببطء مشيراً بأصبعه إلى الكلمات . هكذا حفظت شكل الحروف قبل دخولى المدرسة . كنت تواقًا، متطلعًا إلى العلم، وكان الوالد حريصا على توفير الفرصة التى لم تتح له

هو لظروف وعرة فصلت معظمها فى «كتاب التجليات»، وكان يمر بلحظات مرح . . فيقرأ أخباراً متوهمة مثل :

«قدم أحمد الغيطانى مساء أمس استقالته إلى وزير الزراعة . . . » .

كان الوالد ـ رحمه الله ـ عاملاً بسيطًا فى وزارة الزراعة ، وكان ذا قدرة هائلة على الحكى ، ولو أتيحت له فرصة دخول الأزهر كما سعى أول حياته فلربما أصبح روائيا كبيرا ، كان يسيطر على سامعيه بحكاياته وأمثلته ومعانيه المستخلصة .

فى عصر ذلك اليوم ، عاد والدى ليقول إن الثورة قامت فى البلد ، وإن الجيش استولى على الحكم ، والأسعار سوف ترخص . . والفقير سينصف . . كنا نسكن الطابق الأخير من بيت قديم فى حارة درب الطبلاوى ، وكان السطح أمامنا ممتدّا ، فسيحًا ، وعندما هدرت الطائرات الحربية فى السماء على ارتفاع منخفض ، خرجت لأرقب أسرابها ، كل منها يتكون من ثلاث طائرات ، كنت دائم التطلع إلى السماء ، إلى الأفق . كان الأفق القاهرى فسيحًا ، منطلقا ، مزروعًا بالمآذن العتيقة ، وإلى الغرب ، هناك عند الأفق تقوم الأهرام .

صباح اليوم التالى للثورة ـ أربعاء ـ مضيت مبكراً إلى عم محمد بائع الصحف ، لم أنتظر مروره ، كانت عطلة صيفية ، اشتريت الأهرام ، الصفحة الأولى كانت مزدحمة بصور القادة ، قادة الثورة الجدد ، صورة كبيرة للواء محمد نجيب ، صورة أقل حجمًا للبكباشى جمال عبد الناصر ، ثم تتوزع صور القادة الآخرين . رحت أتطلع إليهم أثناء عودتى إلى البيت ، وكان من عوامل زهوى فى أثناء تطلعى مع شقيقى إسماعيل الذى يصغرنى بثلاثة أعوام ، أنه يوجد اثنان من قادة الثورة ، كل منهما اسمه جمال . . . جمال عبد الناصر . جمال سالم .

ولأسباب لا يمكنني تفسيرها، تعلقت بجمال عبد الناصر، ملامحه قوية تنفذ إلى الوجدان مباشرة، وكانت نظرته الجانبية تشيع الألفة والأحاسيس الغامضة.

فيما بعد أخبرني أبي، أنه أطلق اسم «جمال» عليّ لأنه كان محبّا لجمال الدين الأفغاني الذي سمع عن سيرته الكثير.

كان الوالد ـ رحمه الله ـ يردد دائمًا أن الثورة سوف تنصف الفقير، وتؤمنه على حياته، ولكنه كان يبدي بعض الأسى على أفراد ينتمون إلى عائلات كبرى طالهم قانون الإصلاح الزراعي، وفقدوا ألقابهم، وهذا تعبير عن موقف يتردد في المواويل والأمثلة الشعبية المصرية، ترثي أبناء العز الذين مال الزمن بهم، أو لحقتهم متغيرات أودت بهم إلى حضيض لم يألفوه. بعد عامين من الثورة قُدر لي أن أحضر حفلاً رأسه عبد الناصر.

* * *

صوته

كان الوقت عصراً، عندما مضينا بصحبة أبي ـ رحمه الله ـ إلى الدراسة. كنا نسكن في الجمالية، وكانت الدراسة نائية بالنسبة لسكان الجمالية وقتئذ، كانت بيوتها تطل على الخلاء، حيث منطقة قايتباي التي تضم مقابر السلاطين المماليك، وقبور العظماء، وكانت آثار سور القاهرة القديم تشير إلى حدود المدينة العتيقة.

في الدراسة تم تشييد نادي الجمالية الرياضي والذي يضم ملاعب، ومكتبة، وجاء عبد الناصر ليلقي خطابا في أثناء الافتتاح. . كانت أزمة مارس مشتعلة، هذا ما أدركته فيما بعد، لم أكن بحكم وعيي في تلك السن المبكرة مدركًا للصراعات التي تجري، لم أكن طرفًا فيها، ولم يكن الوالد منضمّا لأي حزب بحيث تنتقل مشاعره إليّ.

كان الملعب الرئيسى فسيحًا، أمر به اليوم فأجده ضيقًا إذا قورن بتلك المساحة المستقرة فى ذاكرتى. ربما كان ذلك متعلقًا بحجم الإنسان ونموه، فما كان يبدو كبيرًا فى الطفولة، يبدو صغيرًا فى زمن الفتوة، وما كان يبدو فسيحًا فى الصبا، يبدو محدودًا زمن الكهولة.

جرى عرض عسكرى، وتسابق فرسان يتخطون حواجز نصبت فى عرض الملعب، وبالونات منفوخة شدت إلى أرضية الملعب. وفى النهاية خطب جمال عبد الناصر، وكان صوته جميلا، يشد الآذان، ولكن لم تعلق بذاكرتى أى عبارة من هذا الخطاب، لكن قُدر لى أن أصغى إلى صوته فى مناسبة أخرى لم أحضرها، جرى ذلك فى نفس العام، وكان اليوم هو السادس والعشرين من يوليو، كان يخطب فى الإسكندرية، وكنت أسمعه من خلال مذياع الجيران فى القاهرة.

وكانت لحظات شديدة الإثارة.

* * *

محاولـــة

لم يكن فى المنزل المكون من أربعة طوابق إلا مذياع واحد تمتلكه جارة تقطن تحتنا، وكان الهوائى الخاص به عبارة عن خشبتين نحيلتين مرتفعتين، يصلهما سلك يتدلى إلى الشقة، وكانت جارتنا إذا تشاجرت مع إحدى جاراتها تغلق المذياع أو تخفض من صوته، فقد كان الجيران يصغون من خلاله إلى حفلات أم كلثوم الشهرية وإلى أغانى الظهيرة لمحمد عبد الوهاب وليلى مراد.

فى تلك الليلة، وقفت مصغيا بجوار سور السطح، لم يكن مذياع جارتنا فقط، إنما كان هناك أكثر من مذياع يتردد من خلالها صوت عبد

الناصر. كان يخطب فى ذكرى الثورة، بميدان المنشية، ولم أكن رأيت الإسكندرية حتى ذلك الوقت، إنما وقعت عيناى على زرقة البحر ولا نهائيته بعد ست سنوات، عام ستين وتسعمائة وألف، عندما مضيت إلى معسكر أبى قير لتلقى التدريبات العسكرية فى الإجازة الصيفية.

كنت مستنداً إلى السور أصغى..

فجأة.. طلقات رصاص..

وينفعل صوت جمال عبدا لناصر.

فليبق كل منكم فى مكانه.

كلكم جمال عبد الناصر.

كلكم جمال عبد الناصر.

أحياناً أسمع هذا الجزء من الخطاب الذى تلا الطلقات الطائشة، فأستعيد طفولتى كلها، خاصة تلك اللحظات فوق السطح. فيما بعد رأيت صور محمود عبد اللطيف عضو جماعة الأخوان الذى حاول اغتيال الزعيم، ما زلت أذكر دقات قلبى واضطرابى، هكذا يندمج الخاص بالعام، فالذكريات التى تتعلق بالذات الخاصة جداً يبدو جمال عبد الناصر محوراً رئيسيّاً فيها حتى وإن لم ألتق به، وإن باعدت بينى وبينه الفوارق السياسية والاجتماعية والأمنية. إن العلاقة بين المواطن فى بلادى وبين الزعيم فريدة، قد تكون حبّاً، وقد تكون كراهية، وفى كلا الحالتين تتخذ بعداً شخصيّاً يمت إلى أعمق أعماق الذات.

ما زلت أذكر تلك اللحظات الصعبة، وعبد الناصر فى ردائه العسكرى، وصوره، غير أنه لم يمض أكثر من عامين إلا وكنت أجلس على مقربة منه، لا يفصلنى عنه إلا مسافة قصيرة تعد بخطوات قليلة جدّاً.

رسائل المنكسرة قلوبهم إلى عبد الناصر

بالنسبة لى يبدو عام ستة وخمسين وتسعمائة وألف بعيداً جدّاً الآن.

يرتبط عندى بالشتاء، بالبرد، بتأجج المشاعر الوطنية البكْر. كنا نقطن دربًا عريقًا من دروب القاهرة القديمة، الدرب الأصفر الواصل بين شارع الجمالية وشارع المعز لدين الله، شارع الجمالية حيث يقوم فى مواجهة الدرب بناء رائع يضم خانقاه بيبرس الجاشنكير التى شيدت فى العصر المملوكى، وينتهى الدرب من الجهة الأخرى إلى مدخل حارة بيرجوان التى كان يقيم بها المؤرخ الكبير تقى الدين المقريزى. وما تزال الحارة تحتفظ بالبوابة القديمة، أما الدرب الأصفر نفسه فيوجد به ثلاثة بيوت من العصر المملوكى، بيتان لشهبندر التجار مصطفى جعفر، أما الأشهر والأقدم فبيت السحيمى الشهير.

ما بين الدرب الأصفر وجامع الأزهر، مروراً بميدان الحسين عشت أحداث العدوان الثلاثى على مصر، وتأججت مشاعرى بالوطنية، وكان محورها الزعيم جمال عبد الناصر الذى تحول إلى رمز، إلى زعيم ليس لمصر فقط، إنما للعالم العربى، ولجميع حركات التحرر الوطنى فى العالم.

* * *

الغارات الليلية

ما أكثر اللحظات التى طواها الفناء. قليلة تلك المشاهد التى احتفظت بها الذاكرة، رغم ثراء الأيام، تلك الليالى الطويلة التى كانت تتضام خلالها الأسرة بأكملها فى صالة الشقة الصغيرة التى تقع بالطابق الأول، وبالتالى لم تكن هناك حاجة إلى اللجوء إلى الطابق الأسفل. كانت الغارات الجوية عنيفة، وأزيز الطائرات يمزق صمت الليل، وكانت الانفجارات المتوالية تُسمع من ناحية العباسية حيث معسكرات القوات المسلحة، كان المذياع يبث البيانات العسكرية، والأغانى الوطنية، أجمل ما عرفته مصر من أناشيد فى تاريخها الحديث،

نشيد الله أكبر (إنشاد المجموعة).

نشيد والله زمان يا سلاحى (أم كلثوم).

ونشيد دع سمائى (فايدة كامل).

والعديد من الأناشيد الأخرى التى صاغت وجداننا، والتى انبثقت من المشاعر العميقة للفنانين والأدباء معبرة عن الوجدان الوطنى للناس. والغريب أن حربا وطنية كبرى جرت بعد ذلك وعشت أحداثها ـ أعنى حرب أكتوبر ـ إلا أنها لم تسفر عن أغنية وطنية واحدة تهز المشاعر مثل تلك الأغانى الرائعة لعام ستة وخمسين.

عناوين الصحف منقوشة بحدة فى ذاكرتى، معارك سيناء، بورسعيد دفعت ضريبة الدم، سنقاتل. . سنقاتل. . بدءا من التاسع والعشرين من أكتوبر بدأت تتردد أسماء مواقع على أراضى سيناء، الكونتيلا، أبو عجيلة، القسيمة، بير تماده، نخل. لقد جرت معارك عنيفة ضد القوات الإسرائيلية، ولكن معارك الجيش المصرى ذابت فى إطار قرار الانسحاب،

الذى تكرر مرة أخرى بعد أحد عشر عاما، ولكن مع اختلاف المناخ. فقد جرى فى عام ستة وخمسين وتسعمائة وألف قتال، وانتفض الشعب كله متأهبا لمعركة كبرى، ولم تسر روح الهزيمة، كما يحاول بعض المؤرخين الرسميين أن يصوروا الأمر فى كتابات ظهرت أخيرا فى مصر بعد عرض فيلم «ناصر ٥٦». مؤرخون دأبوا على تشويه الزمن الناصرى وجميع ما يمت إليه لحساب قوى معينة فى الغرب، ولحساب إسرائيل بالطبع، ورغم كل ما كتبوه فإنهم لم يصلوا إلى مس صورة عبد الناصر فى قلوب الشعب المصرى الذى انحاز إلى جمال عبد الناصر، لسبب بسيط: أن عبد الناصر كان معبرا عنهم:

وللشعب فى مصر درجة رفيعة من الإدراك والوعى. بعد هزيمة الثورة العرابية، ونفى أحمد عرابى باشا ورفاقه إلى جزيرة سيلان شُنت ضده حملة على المستويات كافة، طالت مناهج التعليم. حُجب اسم عرابى، واتهم بالدروشة والجهل، وهاجمه المؤرخون المناوئون مثل عبد الرحمن الرافعى، ولم ينصفه أحد لأكثر من نصف قرن، إلى أن ظهر عام سبعة وأربعين وتسعمائة وألف كتاب للمؤرخ محمود الخفيف بعنوان «عرابى الزعيم المفترى عليه»، وسرعان ما صودر. طوال هذه السنوات وحتى إنصاف عرابى بعد ثورة يوليو كان موقعه فى الضمير الوطنى موقع البطل، وكانت منزلته منزلة الزعيم. أما وقفته فى ميدان عابدين فكانت تُروى كإحدى لحظات الملاحم، ومن العبارات التى ما تزال تتردد فى الريف المصرى حتى الآن:

هوجة عرابى (هوجة بمعنى ثورة).

الولس هزم عرابى (الولس أى الخيانة).

هذا الدرس بالغ الدلالة لم يستوعبه أولئك الكتبة حتى الآن، ما زالت منزلـة عبد الناصر باقية، سليمة، بل إنها تتعمق وتتوطد.

* * *

فى الأزهـر

كنت فى الحادية عشرة، وكنت تواقا إلى المشاركة فى المعركة، أقطع المسافة من الدرب الأصفر إلى مدرسة الحسين الإعدادية وداخلى يغلى، وأفكارى تتسارع ومشاعرى ملتهبة، كيف السبيل إلى المشاركة؟

كنت أرسم الجنود مرتدين الخوذ كما أراهم فى الصحف، وكنت أرسم خريطة سيناء، وخريطة قناة السويس، والعلم المصرى. غير أن هذا لم يهدئنى، فزعمت لصحبى فى المدرسة أن أحد أقاربنا يحارب الآن فى قناة السويس، وأنه يمت بصلة أبناء العمومة إلى أبى. بالطبع كان لنا أقارب كثيرون فى القوات المسلحة، فكل من ينتمى إلى جهينة أعده من أقاربى، هكذا منطق العلاقات فى القبائل العربية الكبرى التى نزلت صعيد مصر ومنها جهينة التى أنتمى إليها. كانت كذبتى البيضاء هذه تجعلنى أوهم نفسى بالمشاركة من خلال هذا القريب المتخيل. كانت أياما رائعة بحق، وخلالها تعلمت أن هم الوطن العام أرفع مرتبة عندى من الهم الخاص.

من اللحظات المؤثرة التى أحتفظ بها، لحظة تلت صلاة الجمعة فى مسجد الإمام الحسين، عند خروجى بصحبة أبى. كان هناك المئات يصطفون فى الميدان يمسكون البنادق من طراز (لى أنفيلد)، أفراد المقاومة الشعبية التى تشكلت بعد بدء العدوان، ما زلت أذكر رجلاً فى سن الشباب يرتدى جلبابا وسترة جلدية، كان يلتفت ناحيتنا ويسند يده إلى البندقية المرتكزة إلى الأرض.

من هو؟ وأين هو الآن؟ لماذا علق بذهنى وجهه، ملامحه هو بالذات؟ كم من الملامح تعلق بالذاكرة خلال رحلة الحياة، ثم تنطوى معظمها مع المراحل، ويبقى بعضها؛ ما القانون المنظم لذلك؟ لا أدرى. . ولكننى لا أستعيد تلك الأيام إلا وأتذكر هذا الوجه، أدق قسماته وكأنى أراه أمامى.

اللحظة الثانية هى مجمل لحظات، يوم جمعة أيضا، أظنه الجمعة اللاحق، كان ذلك فى مسجد الأزهر، وكان ما بينى وما بين جمال عبد الناصر لا يزيد على خمسة أو ستة أمتار. كنت بصحبة الوالد وشقيقى إسماعيل فى مقدمة الصفوف الأمامية، اعتلى عبد الناصر المنبر، وكان يرتدى حلة رمادية غامقة، كان مهيبًا، نفاذ الحضور، ولعينيه لمعة، وللملامحه القدرة على إقناع كل من يتطلع إليه أنه ينظر إليه هو، أنه يخصه هو بالذات.

اختار جمال منبر الأزهر التاريخى، العريق، ليعلن من فوقه الجهاد، ما زلت أذكر هدير صوته:

سنقاتل. . سنقاتل. . سنقاتل

كررها ثلاث مرات، وأعلن أن أسرته فى القاهرة، لم ترحل إلى أى مكان، وأنه باق، وأنه سيقاتل وسيدفع العدوان. سرت كلماته إلى الأفئدة، إلى القلوب، إلى جوهر التاريخ. يرتبط منبر الأزهر بالجهاد، بأفئدة القوم، وما هذه الهمهمة وتلك الهتافات التى سرت بين الناس إلا تعبير قادم من عصور شتى.

لحظة ثمينة من عمرى، أحتفظ بها، وأستدعيها فى أوقات الشدة، والوحشة، إنها المرة الوحيدة التى رأيته من خلال هذا القُرب، من خلال تلك المسافة، لم أره بعد ذلك إلا من موقع الجماهير الواقفة فى المواكب، أو من خلال قاعات المؤتمرات، وعلى مسافة أكبر عند زيارته الأخيرة لجبهة القتال سنة سبعين وتسعمائة وألف، وكنت فى ذلك الوقت مراسلاً حربيّا

لجريدة الأخبار، أمكث فى الجبهة الأيام الطوال، وتصادف وجودى فى قطاع الجيش الثانى بالإسماعيلية عند زيارة عبد الناصر المفاجئة، وكنت الصحفى الوحيد الذى كتب عن هذا اللقاء الفريد. أستعيد لحظة وقوفه فوق منبر الأزهر وأذكر بدهشة قرب الناس منه وإحاطتهم به عند خروجه، وقلة رجال الحرس، بل إننى لا أذكر وجه أحدهم، كان الناس يحيطونه، وبعضهم يصافحه، وكانت مصر تتألق فى لحظة فريدة من تاريخها.

* * *

رسائل إليه

لحظات شتى أستعيدها عند المضى إلى ضريحه لزيارته. فى هذا العام حرصت على المضى مبكراً، بعد أن قرأت الفاتحة تحدثت إلى أصدقاء من القائمين على شئون الضريح. أخبرونى عن ظاهرة جديدة بدأت فى السنوات الأخيرة، ظاهرة الرسائل التى يشيعها بعض أبناء الشعب المصرى إلى جمال عبد الناصر (هكذا بلا ألقاب أحيانًا أو مسبوقة بلقب سيدى فى خطابات أخرى). رحت أفكر.. من يبادر إلى إرسال هذه الخطابات؟

هل هم بعض من عاشوا زمنه مثلى؟

هل هم بعض من يحنون إلى صوته: إلى حضوره، إلى تأثيره، إلى ما يرمز إليه من المعانى؟

هل هم بعض المظلومين المنكسرة قلوبهم؟

وجدت نفسى أجيب..

إنهم هؤلاء جميعًا.. إنه حنين الأمة إلى قائدها الراحل.

الجـــزار..

شكرًا للرئيس الأمريكى، سيد العالم، القوى، المتمكن، القاصف عن بعد، القاتل بتمكن.. شكرًا لأنه لم يذبحنا فى رمضان، وقدم الموعد ثلاثة أيام أو أربعة، فعجل بذلك حلول المرحلة الجديدة من إبادة أولئك البشر الذين ننتمى إليهم فى هذه المنطقة من الكوكب، نحن الناطقين باللسان العربى، ودينا الإسلام.

ألا يستحق الرئيس الأمريكى الشكر إذن لأنه عجل بالذبح بدلا من تأجيله وإكراما للأمة بدلا من تنفيذ الذبح الجماعى والإبادة التى لم يعرف التاريخ لها مثيلا، مراعاة لمشاعر مليار مسلم فى العالم؟! فمن الأفضل ألا يذبحوا فى رمضان، بل أن يبدأ الذبح قبل حلول الشهر الكريم، كما أشار عليه بعض مستشاريه، مع أن نائبه آل جور صرح فى اليوم التالى أن شهر رمضان لن يكون عائقًا أمام العمليات الواسعة التى يجرى تنفيذها ضد شعب أعزل، مجرد تمامًا من السلاح الذى يمكنه من الدفاع عن نفسه.

الشكر واجب إذن للرئيس الأمريكى الذى عجل بذبح كل هؤلاء البشر المنتسبين إلينا، والذين ننتسب إليهم. فالطوابير التى تمضى إلى ساحات الإبادة عديدة وطويلة، وتستلزم وقتًا طويلاً بالنسبة للبعض، وقصيراً بالنسبة للبعض. وإذا كان الذبح مصير الكل فالإسراع به فيه نوع من الرحمة. لقد دارت عجلة أكبر عملية إبادة بشرية فى تاريخ الإنسانية،

والحق أنها تتم بأدوات متقدمة جداً. نحن نعرف الآن أدوات ذبحنا الآتى: الصـواريخ توم كـروز، وتومـاهوك وقنابل الغـاز، وقنابل نووية تكتيكيـة. وربما كان ذبحنا يتم لأن بعض هذه الأسلحة قارب عمرها الإفتراضى على الانتهـاء، هكذا يصبح توجيهـهـا إلى أطفـال المسلمين ونسائهم وبيـوتهم الآمنة أوفر وأكثر اقتصاداً من تدميرها أو الخلاص منها.

تومـا هوك وكـروز وطائرات الشبح وطائرات الـ «ب ٥٢» وحـامـلات الطائرات، بالأمس القريب توجهت إلى الخرطوم لتدمر مصنعًـا لصناعة الدواء، ومن قبل تساقطت قذائفها فوق ليبيا، وهاهى ذى تتساقط كـالمطر النارى فـوق شعب العراق العـريق، صـاحب واحدة من أقـدم حضـارات التاريخ. ومع اكتمـال تدمير العـراق وذبحه سـوف تتجه الصـواريخ إلى سوريا وإلى مصـر وإلى السعـودية وإلى اليـمن وإلى كل مكان يعيش فـيه المسلمون. أليس هذا تطبيقا لنظرية صراع الحضارات؟!

لم يبخل علينا الرئيس كلينتون سيـد العـالم وجزاره بأحـدث الوسائل وأسرعها وأشدها فتكًا. شعب بأكمله مكشوف تمامًا، حيوات لا حصـر لهـا، بشـر لهم أمس وربما يكون لهم غـد، لكنهم على شـاشـات حـاملة الطائرات إنتـربرايز، وعلى لوحـات طائرات الـ «ب ٥٢» التى تقلع من المحيط الهندى، مجرد أرقام وعلامات على شاشات مضيئة. فقط ضغطة زر ويتم إفناء أعـداد كـبيـرة منا، نـحن البـشـر الذين يذبحـون، أو أولئك المسلمـين الآخـرين الذين ينتظرون الآن دورهـم فى الذبح. بل إن بعض قادتهم يقدمون العون لسيد العالم وجزاره:

ألا تنطلق الطائرات الفتـاكـة من أراض عـربية إلى أراض عـربيـة؟! من يدفع تكاليف هـذه الحـملة الشـرسـة وهى باهظة، الصـاروخ الواحـد ثمنه مليون إلا ربعًا، إن السيد الجديد للعالم سخى فى قصفه لنا، ولكنه يتقاضى

ثمنًا لكل أداة يذبحنا بهـا . من يدفع؟ ومن ينفق؟ ألا يتم النزح من خزائن بعض العرب المسلمين؟ ألا يستحق السيد كلينتون الشكر لأنه كشف مقدار خنوعنا وضعفنا وقلة حيلتنا، وانتظار دورنا فى الذبح بصبر جميل؟

إنه التاريخ يعيد نفسه: السيد الأبيض الذى يشن حرب إبادة لتخلو له القارة. ولكن الهنود الحمر كانوا أفضل حظًا لأن المواجهة أتيحت لهم، ولكننا نعمى عن وسائل المواجهة المتاحة، وأيسرها. مقاطعة كل ما نجده من المنتج الأمريكى، حتى هذا لا نقدر عليه. التاريخ يعيد نفسه، تماما كما جرى فى الأندلس عندما استعان العرب المسلمون بالأجنبى بعضهم على بعض، فكانت النتيجة خروجهم من ديار الأندلس وضياعها إلى الأبد.

كان يمكن أن نمضى من عتمة إلى عتمة، ومن خزى إلى خزى، ومن خنوع إلى خنوع، لولا هذا البصيص من الضوء الذى تمثل فى خروج أبنائنا الطلبة ليلاً بمجرد سماعهم بدء المذبحة، ونزولهم من المدينة الجامعية، وكذلك خروج الطلبة المصريين الذين يدرسون فى الجامعة الأمريكية.

هذان المشهدان هما الباعثان الوحيدان على الأمل فى هذه الأمة التى بدأ جزار العالم ذبحها بضراوة، فهل نستمد من وقفة أبنائنا الشجاعة؟

فى مواجهة الإبادة

إنه نفس الرجل الأبيض الذى اجتاح القارة الأمريكية منذ خمسمائة عام، وبدأ أكبر عملية إبادة فى التاريخ. فلم تكن أمريكا خالية عدما وصلها المهاجرون الأوربيون الأوائل، بل كانت موطنا لحضارات قديمة، المايا، والأزتيك، وسرعان ما بدأ الأوربيون الذين كانوا خليطًا من المغامرين والباحثين عن الثروة والمجرمين الهاربين أوسع مذبحة فى التاريخ لإفناء السكان الأصليين للقارة والذين عُرفوا باسم الهنود الحمر.

ومنذ سنوات حضرت مؤتمراً فى مدينة ستراسبورج الفرنسية شارك فيه مثقفون من الهنود الحمر المحاصرين الآن - كما يراد لنا نحن العرب - فى مناطق محددة بالولايات المتحدة وكندا. لقد تم استخدام الوسائل البشعة كافة فى تدمير وذبح أصحاب الأرض الحقيقيين، ومن هنا أصبحت فكرة الإبادة الشاملة كامنة فى أعماق التكوين النفسى لأولئك الأوربيين الذين استوطنوا هذه الأرض بالقوة. فى ستراسبورج كان المثقفون من أبناء الشعب الهندى الأحمر يقولون إنهم هناك، ما زال لهم حضور، فقط ليهتم العالم بهم. لقد أتمت هوليود بعد اختراع السينما مهمة الرجل الأبيض القاتل، فحولته إلى بطل، وقدمت سكان البلاد الأصليين على أنهم همج، بدائيون، قتلة، لا لغة لهم إلا الصراخ عند الهجوم والرمى بالسهام.

كان اختراع الوسائل الحديثة للاتصال، والفنون، خصوصا السينما ومن بعدها التليفزيون من أهم وسائل تزييف التاريخ وتكريس أفكار

معينة. ولنلاحظ بدقة الآن أن السينما الأمريكية تستهدف العرب وتستبدلهم بالهنود الحمر. إنها تكرس صورة العربى، المسلم، الإرهابى، الذى يمثل خطراً على الإنسانية، ولذلك يتقدم الرجل الأبيض المتحضر لقصفه عن بعد، ولذبح أطفاله ومحاصرته، تماما كم حدث مع الهنود الحمر.

إن إسرائيل رأس حربة هذا التوجه، برغم أن اليهود كانوا تاريخيّا ضحية الفكر الغربى القائم على الإبادة أيضا، لكن ما نواجهه فى المنطقة نتاج فكر صهيونى بدأ أساسا فى الغرب، وتحكمه فكرة الإبادة.

لم يعد الأمر فى حاجة إلى إمعان فكر أو بحث للتدليل على فكر الإبادة الذى يحكم توجه الغرب العنصرى الآن بقيادة الولايات المتحدة الحالية. إنه الفكر السائد، المتحكم، المنفذ، ولا قيمة حتى الآن لبعض الاتجاهات ذات الرؤية الإنسانية، وإن كان رصدها أو التعامل معها يجب ألا يتم التهوين من شأنه.

حتى الآن لم تتجه صواريخ كروز إلا صوب بلدان إسلامية ـ عربية. فإذا تذكرنا ما فعله الصرب بمسلمى البلقان تحت غطاء أوروبى ـ أمريكى، لأمكننا استنتاج المصير المظلم الذى ينتظرنا. وتبدو سياسات الأنظمة العربية فى معظمها معاونة على تنفيذ ما يريده الرجل الأبيض الجديد، لنتمعن فى وجه وزير الدفاع الأمريكى كوهين، أنه وجه قاتل محترف، شديد الهدوء، شديد السُّمك، يذكرنى بانبساط وفلطحة تلك الأحذية المتينة التى لا تحتاج إلى رباط والتى نسميها (بانْص) ولا أدرى أصل الكلمة.

هذا السيد كوهين، يدلى ببيانات القتل الجماعى للعراقيين بهدوء شديد وبنغمة صوت لا تتغير، ليس العرب بالنسبة له أو المسلمون إلا أرقاما ضوئية على شاشات الرادار أو الرصد فى غرف البنتاجون المغلقة أو كبائن

الطائرات الضخمة من طراز ب ٥٢ والتى تطير خارج حدود العراق، أو السودان، أو ليبيا، وتطلق صواريخها العادية أو النووية، فى اتجاه تم تحديده، بالبيت والمقر، لا فرق بين مصنع وبيت ومبنى إدارى لمستشفى أو جامعة، لا فرق بين شيخ أو طفل أو امرأة، إنها الإبادة بعينها.

ونحن فى وضع لا نحسد عليه. إننا فى وضع يشبه تمامًا ما كان عليه الهنود الحمر. هم السادة البيض الجدد، بكل ما حملوه من وحشية، واستبعادنا من الجنس البشرى فى حساباتهم ووجهات نظرهم، ونحن بعجزنا وقلة حيلتنا وانعدام سلاحنا الذى يمكن أن يردع سلاحهم، وخنوع مشايخ قبائلنا لهم، لكل هذه الأسباب تمضى مخططات الإبادة واضحة، جلية. الجديد هذه المرة، البعد العنصرى، سواء من الناحية العرقية، أو الدينية، إن الرؤية الحقيقية لمن يسددون صواريخهم إلينا، تجسدت فى تلك العبارة التى كتبها جندى أمريكى بتلقائية على قنبلة زنة ألفى رطل فوق حاملة طائرات ترابط فى الخليج الذى ما زلنا نصر على تسميته بالعربى:

«هدية شهر رمضان إلى المسلمين فى بغداد من....»

حتى لو اعتذر البنتاجون، فليس ذلك إلا موقفا تكتيكيا. إن الروح المعنوية التى تؤجج القتال عند الجنود الأمريكيين والبريطانيين هى التى يكتبها جنودهم بتلقائية على قاذفاتهم.

«الإبادة» فكرة أساسية تحكم توجه السياسة الأمريكية للعرب ولنا نحن المسلمين. يجب أن نعى ذلك تمامًا، وألا نخفيها لأى دعاوى أخرى، حتى بحجة موقف البعض ضد بعض التيارات التى تعمل تحت شعارات إسلامية. إن الخطر يستهدفنا جميعا، وتنفيذه يتم بوتيرة متصاعدة، وسريعة، فماذا يمكننا أن نفعل؟

ماذا يمكننا أن نفعل فى مواجهة القوة العاتية، وفكر الإبادة الذى يستهدفنا؟ سؤال يجب على كل إنسان جاء إلى هذا العالم عربيا، مسلمًا أن يبذل الجهد كله للإجابة عنه. وسنحاول.

الأمل فى الغد

لا والله، لم يخب ظنى قط .

طوال الأيام الماضية يفد علىّ أو يتصل بى شباب الصحفيين، ولا حديث إلا عن أوضاع النقابة وما آلت إليه، وكيفية إنقاذها من حال الموات الذى وصلت إليه بعد أن توارت فى هذا المبنى القبيح الشائه خلف موقف ميكروباس وسيارات أجرة القللى .

لحسن الحظ لم يتبق إلا حوالى ثلاثة شهور، ويتم انتخاب نقيب جديد ومجلس منتخب يضم اثنى عشر عضواً، وذلك طبقًا للتعديلات القانونية الأخيرة. ما نرجوه ـ وليس لنا إلا الرجاء ـ أن يضع النقيب الجديد، والمجلس الذى سيتم انتخابه أولوية مطلقة لعودة النقابة إلى مقرها القديم .

يجب أن تعود الحياة إلى موقع النقابة الأصلى، والذى تحول الآن إلى ما يشبه الخرابة. نتمنى أن يوضع تصميم يستوحى تاريخ النقابة وجهاد أعضائها الطويل من أجل الحرية، وألا يستخدم أى جزء منه للاستثمار أو يتم تأجيره لمكاتب الاستيراد والتصدير. مع الزمن ستقل قيمة أى مال يأتى من الإيجارات، ولكن الأهم أن يبقى مبنى النقابة خالصًا لها، ومقراً لأعضائها، نتمنى أن يعود إلى موضعه ملاذًا آمنا للحرية، ولكل ما يعنى الوطن من قضايا .

لقد تم إغراق النقابة شيئًا فشيئًا بسائل الفورمالين البنى، البارد برودة الموت، حتى غاب صوتها المؤثر، الفاعل، وذلك بعد الوقفة الصلبة ضد القانون ٩٣ والذى أعتقد أن النقابة ما زالت تسدد الثمن مقابل وقفة أعضائها الرائعة التى تعد من اللحظات المجيدة فى هذا القرن الذى يولى الآن ويوشك على انقضاء.

إننى لن أمل الإشارة إلى وقفة يوم السبت الذى عقدت فيه الجمعية العمومية، وكان موقف شباب الصحفيين مفاجئًا لى بحق. إن السنوات تمضى علينا ويطول الصمت، ويستشرى الفساد، وتطل شخصيات شائهة من هذا الموقع أو ذاك، ويظن المرء أن أبواب الأمل قد أوصدت، ولكن خاصية مصر الخالدة، تتفجر فجأة، فتندلع المشاعر والطاقات الكامنة فيتجدد الأمل. كان يوم انعقاد الجمعية العمومية الذى أعنيه، والذى تتعاقب على ذهنى مشاهده، بدءا من احتشاد أبناء المهنة فى جمع ليس له مثيل، إلى الشعارات التى ترددت، والكلمات التى ألقيت، حتى خروج النقيب الحكيم، النزيه، إبراهيم نافع، حاملاً جاكتته فوق كتفه، ملوحًا بيده، مرددًا الهتاف: «تعيش حرية الصحافة».

إن المكان الذى شهد هذا اليوم المهيب يجب أن تعود إليه الحياة، أن تنتهى تلك الحالة الخربة.

إن المكان ذاكرة وزمان، ومبنى النقابة فى موقعها كان خزانة أيامها وشاهد أيامها وجهاد أبنائها، لذلك يجب أن يلتزم النقيب الجديد والمجلس الجديد بمدة زمنية محددة تعود فيها الحياة إلى خرابة شارع عبد الخالق ثروت الآن، والتى قام فوقها لزمن طويل مبنى نقابتنا التى تم إقصاؤها بهدوء، وإغراقها فى مشكلات غريبة، والوصول بها إلى حالة من العجز.

هكذا غاب صوت نقابة الصحفيين القوى، اختنق فى موقف سيارات أجرة الوجه البحرى فى القللى، وعجزت الجمعية العمومية عن الاكتمال من أجل الصحفيين السجناء. إن ما لمسته من اهتمام شباب الصحفيين يثير الأمل، ولكننى أتمنى أيضًا أن يتحرك شيوخ المهنة وأركانها لتدارس الأحوال، والنظر فيما ينبغى أن يكون، أتمنى - وما أكثر الأمنيات - أن ترفع الحكومة والحزب الوطنى أيديهما عن النقابة، وألا يتم التقدم بنقيب مرشح منهما وننتظر الخمسين جنيها أو الثلاثين التى تصرف مرة كبدل مراجع، أو بدل كمبيوتر، أو بدل لأى بدل. فليتركونا نختار نقيبًا ومجلسًا لنقابة الصحفيين، يعالج أمورها، ويعيد المبنى إلى مكانه، ويدخل بالمهنة التى تواجه أخطاراً وتحديات جمة إلى قرن جديد. إننا لم نفقد بعد الأمل فى الغد بفضل هؤلاء الشباب، فهل يتركون لهم الفرصة؟

تحديـات عاتيـة

بدأ الاستعداد لمؤتمر الصحفيين العام، قرأنا عن لجان تم تشكيلها من زملاء أفاضل، والأمل بذلك يصبح كبيراً فى مناقشة ما يتصل بالمهنة التى تتحشرج أوضاعها منذ فترة ليست بالقصيرة. أما أوضاعها فصارت مقلقة، وتناول الأمر أساتذة أجلاء ممن يتمتعون بالمصداقية والاستقلال فى الرأى، أذكر منهم سلامة أحمد سلامة، وسعيد سنبل.

على امتداد أسابيع كتبت عن وضع النقابة، منذ تلك الليلة السوداء التى قاد فيها الدكتور جاب الله بعض موظفى وزارة الثقافة لإفساد الندوة العلمية التى نظمتها اللجنة الثقافية بعد حريق المسافرخانة، وهذه ظاهرة تصاحب أى ندوة تناقش ما له علاقة بأمور الآثار خاصة، أو أوضاع تتصل بسياسة وزير الثقافة عامة، وهذا ما لم نسمع عنه حتى فى أشد الأنظمة السياسية المعادية للثقافة والفكر.

منذ تلك الليلة أمعنت التفكير فى أوضاع النقابة التى صارت مستباحة. وكانت أولى ملاحظاتى انتقال المقر، واختفاء المبنى القديم، وحلولنا ضيوفًا لقاء إيجار مدفوع على مبنى شائه، فى موقع لا يليق بالنقابة. وكما أشرت أكاد أوقن أن تدمير المقر القديم تدبير لإفقاد النقابة ذاكرتها، ولذلك فإن إعادة المبنى إلى ما كان عليه يجب أن تلقى اهتماما من النقيب الجديد

الذى سيتم انتخابه فى مارس القادم، كذلك المجلس الجديد، وأيضا من المؤتمر العام.

إذا فرغنا من موضوع المبنى ننتقل إلى التحديات التى تواجه المهنة، وهى كثيرة، منها ما هو قادم من خارجها، ومنها ما ينبع من داخلها. إن الصحافة مهنة حساسة جدّا وثيقة الاتصال بمجمل أوضاع المجتمع السياسية والاقتصادية، والاجتماعية.

ما التحديات التى تواجه الصحافة الآن؟

فى تقديرى أنها تنحصر فى نقاط محددة، منها ما يُجمل الوضع ويتلخص فى كلمة واحدة: «المصداقية». ينسحب هذا على الصحف جميعها حزبية وقومية، وضعف «المصداقية» نتيجة لعوامل عديدة، منها الموروث مثلا عبر الخمسين سنة الأخيرة من علاقة السلطة بالصحافة، خصوصا هذه الملكية غير المقنعة لمجلس الشورى للصحافة. لماذا يكون مجلس الشورى هو المالك للصحف والمؤسسات القومية؟ لماذا لا يكون مجلس الشعب مثلاً؟ أو مؤسسة أخرى هذه أو تلك؟

يتعلق الأمر بجهة ما يكون لها هيمنة غير مباشرة، هذا حقيقى فمجلس الشورى لا يتدخل فى تحديد سياسات الصحف، ولا يصدر توجيهات، ربما تقوم وزارة الإعلام بأمور ما تقارب ذلك أحيانا، وهذا معمول به فى أشد الدول ليبرالية. ويخطئ من يظن أن الحبل متروك لآخر مدى فى الصحافة الغربية، بل إن الأوضاع محكومة بمصالح وإستراتيجيات محددة، خاصة إذا تعلق الأمر بالعلاقات الخارجية، ولكن فيما يتعلق بهذه التوجهات يتم توظيف أقصى قدر من المعلومات للقارئ، وحرية تدفق المعلومات من حقوق الإنسان الآن، لكن النظرة ما تزال قاصرة حتى الآن.

ملكية الصحف التابعة لمجلس الشورى تؤدى إلى تعيين رؤساء التحرير، ورؤساء مجالس الإدارات، وهذا وضع غريب فى مجتمع يتجه الآن إلى الخصخصة ويعود فيه رأس المال إلى ممارسة دور قوى فى صياغة علاقاته.

تعيين رؤساء التحرير بقرارات علوية من خارج الصحافة ذاتها يضعف مصداقيتها. صحيح أن رؤساء التحرير لا يفدون من خارج المؤسسات الصحفية القائمة، بل من العاملين فيها، فقد ولى ذلك الزمن الذى كان ممكنًا أن تسند فيه إدارة مؤسسة صحفية إلى شخص من خارج المهنة ذاتها. لكن.. أليس من الأفضل أن يكون اختيار رئيس التحرير بالانتخاب من الصحفيين أنفسهم، بحيث يتم إدارة شئون الصحفيين بأنفسهم.

ويمكن أن يتم تحويل المؤسسات إلى ملكية تعاونية، بحيث تباع على شكل أسهم، وتحدد حصة أقصى لتملكها وأن يقتصر ذلك على العاملين بالفعل فى تلك المؤسسات.. رؤساء تحرير منتخبون من الصحفيين. مؤسسات يمتلكها من يعمل فيها، صحفيون وعمال.

أليس هذا الوضع أفضل؟ ألا يتسق مع التوجهات العامة الآن فى الاقتصاد والمجتمع؟

لكن.. هل أوضاع الصحافة الحالية يمكن أن تؤدى إلى ذلك أو تساعد على تحقيق نتائج إيجابية؟ إذا ما حدث أن فوجئنا صباح الغد، بأننا مطالبون بانتخاب رؤساء تحرير منا، ورؤساء مجالس إدارة للمؤسسات التى نعمل فيها. هل بإمكاننا ذلك؟ للحديث بقية.

فــى المعــرض

غدًا يبدأ معرض ا لكتاب، الحدث الثقافى المهم الذى ننتظره من عام إلى عام، وأصبح برنامج الندوات واللقاءات معروفًا تقريبًا. وبرغم الانتقادات التى توجه كل عام، خاصة بعد انتهاء المعرض، فإنه يظل أهم حدث ثقافى، خصوصا أن فرصة الاطلاع على الإصدارات الجديدة فى العالم العربى غير متاحة بسبب القيود التى تعوق حرية تنقل الكتاب من بلد إلى بلد.

يظل معرض القاهرة الدولى الأضخم من حيث العرض، وأكثر العروض تسامحًا مع الكتب، فيما يتعلق بالعناوين المعروضة، ونأمل ألا نسمع عن دوريات الهجوم التى تقوم بها المباحث العامة، ورجال مجمع البحوث الإسلامية، هذه الدوريات التى تشوه الحدث فى مجمله.

يظل معرض القاهرة رمزًا لموقف المثقفين المصريين من قضية التطبيع مع إسرائيل بخلوه من جناح لإسرائيل. ونحمد الله أن القرن ينتهى ويقام فيه آخر المعارض بدونها، وهذا مما يحسب للقائمين على المعرض.

لكن من ناحية أخرى استوقفنى فى برنامج الندوات اشتراك رجال الأعمال فى الندوات واللقاءات الفكرية. توقفت أمام اسمين تحديدًا، لم يُعرف عن كل منهما علاقة بالثقافة أو الكتاب. فى تقديرى أن علاقة أى رجل أعمال بالثقافة، لا تقاس بحجم ما يملك أو بقوة نفوذه، أو ضراوة حضوره فى المجتمع والإعلام المقروء والمسموع، إنما تقاس بحجم ما قدمه

أو يقدمه للثقافة، ويظل نموذج طلعت حرب هو المثل الأعلى والقدوة. كان طلعت حرب وطنيا مصريا، حقيقيا، معروف الأصول والفروع، لم يظهر فجأة من المجهول بمليارات أو ملايين مجهولة المصدر، إنما كان مشروعه واضحًا جليًا. وكان إنشاء بنك مصر جزءا من حركة وطنية، وبالتالى كانت مشروعاته الثقافية نابعة ومعبرة عن هذه الحركة. وعندما وقعت الأزمة العالمية سنة ١٩٢٩. عرضوا على طلعت حرب قائمة بالشركات الخاسرة، وكان من بينها شركة ستوديو مصر للسينما، وقبل تصفية الشركات الأخرى عدا شركة ستوديو مصر، قرر أن يتحمل البنك دعمها حتى تجاوز الأزمة.

أى بعد نظر؟! أى وعى بقيمة الثقافة على المدى البعيد؟! ومن يرد أن يتأمل، فلينظر إلى الدور الذى لعبته السينما المصرية فى تعميق الدور المصرى سياسيا واقتصاديا واجتماعيا حتى الآن، بل. . ولغويًا. لقد أصبحت اللهجة العامية القاهرية كأنها لغة قريش بالنسبة للعرب من المحيط إلى الخليج بفضل السينما المصرية، وظلت كذلك طوال هذا القرن، وإن كان استمرارها مشكوكا فيه بعد انتشارالفضائيات العربية، وظهور لهجات أخرى مدعومة بالحسان الفاتنات، وما يقمن ببثه من إغراءات يشارك فيها الجسد والملمح، فهل فكر أحد ممن بيدهم المال أو مقاليد الأمور فى كيفية مواجهة التحديات الجديدة؟

ما نراه من خلال المتابعة لا يشير إلى أى جهد إيجابى، بل على العكس، فما نراه الآن، هو محاولة تطويع الثقافة المصرية لمفاهيم السوق والعولمة، وسحق الموقف المتميز للمثقفين المصريين على امتداد التاريخ، وتدجينهم، وتطويعهم ليكونوا مجرد حلية فى السوق. وبمقاييس السوق التى لن ترحم أحدا، فإن أهم ما يشغل بعض رجال الأعمال الآن، النجوم الجدد، خصوصا أولئك القادمين من المجهول، هو تحسين صورتهم الإعلامية، وهذا يمكن أن يأتى عن طريق طبيعة أعمالهم ذاتها، وهذا

متحقق بالفعل وموجود بالنسبة لكثيرين ممن يعون البعد الاجتماعى لنشاط رجال الأعمال، وإن كنا بشكل عام لم نقرأ ولم نسمع عن مشروع ثقافى واحد جاء بمبادرة من أحد مشاهير رجال الأعمال الجدد. المشروعات الثقافية الخاصة التى نحن بحاجة إليها تجىء الآن من أفراد هم ليسوا رجال أعمال فى الأساس، وعلى أكتاف بعض المثقفين الذين يبيعون أثاث بيوتهم ويقترضون ليؤسسوا دارًا للنشر، أو ليطبعوا مجلة.

إننا فى أشد الحاجة إلى الجهد الخاص فى مجال الثقافة، خاصة مع توحش المؤسسة الثقافية الرسمية ومحاولة تدجينها المثقفين، ومطاردة المعارضين لسياستها منهم. ولنا فيما حدث بنقابة الصحفيين فى أثناء ندوة مناقشة حريق المسافرخانة مثل. إن نشاط بعض رجال الأعمال، خاصة من رموز المرحلة، يتجه بالتحالف مع المؤسسة الثقافية الرسمية إلى تفريغ الحياة الثقافية من مضمونها الحقيقى، وسحق أى موقف للمثقفين، وإضعاف صوتهم، وتحويل الثقافة إلى أضواء زاهية، ومهرجانات. وهذا هو العمل الدءوب المستمر منذ عدة سنوات تطبيقًا للعولمة الجديدة.

إن ظهور رجال الأعمال فى المعرض يمكن أن يكون إيجابيًا لو أنهم دعموا الثقافة كما فعل طلعت حرب. أقول هذا وأنا أعى تماما الفرق بين أول القرن ونهايته، بين الرأسمالية المصرية الوطنية وبين الرأسمالية الجديدة المرتبطة بالرأسمالية العالمية، خصوصا الأمريكية، بين رأسمالية كانت تكرس الوطنية، وأخرى نشهدها الآن توثق الرباط مع الاحتكارات العالمية، والشركات متعددة الجنسيات. والحديث فى هذا يطول.

إن ظهور رجال الأعمال الجدد فى معرض الكتاب أقل ما يمكن أن يوصف به أنه غير باعث على الراحة، خاصة فى غيبة مثقفين كبار، فى مقدمتهم محمد حسنين هيكل الذى مازال مستبعدًا من المعرض الدولى للكتاب، فهل يستقيم ذلك؟

فى استعادة الأصول

«فلان يعرف الأصول».

كثيراً ما أستعيد هذه الجملة التى لم تكن فى البداية تعنى عندى معنى محدداً، مثل الكثير من العبارات التى كنا نصغى إليها ولا ندرك أبعادها، مثل الكثير من الأمور والتصرفات التى كانت تبدو عادية، ومع تقدمنا فى العمر، واستعادتنا ما كان، وتقليبه ذات اليمين وذات اليسار، وإمعان خبرتنا المكتسبة فيه نكتشف المعانى الكامنة.

لكم تهزنى هذه الكلمة وتؤثر فى الآن: «الأصول». إننى أستعد السلوك المتحضر، الراقى، الجميل، لأقاربى فى جهينة، وجيرانى القدامى فى الجمالية، وأولئك الذين عرفتهم من السويس إلى الواحات، وأتوقف عند دماثتهم، ولباقتهم، وأرى ترجمة عملية، مادية، لمضمون تلك الكلمة: «الأصول».

إنها العادات المتوارثة، والحكمة المتنقلة من جيل إلى جيل، ومن دهر إلى دهر، ثقافة بالمعنى العميق، الدفين، نتلقاها من خلال حكايات الأمهات وأغانيهن وشدوهن لأطفالهن الرضع، وتجاربهن المباشرة مع الحياة، الخبرة التى تكاد ترى ما بين الظل والأصل، ما بين الصوت والصدى.

فى يوم العيد أسترجع الماضى، عندما كانت البهجة حقيقية، عندما كنت أفرح لقدوم العيد، بقدر حزنى على فراق رمضان. كنا كأسرة ذات

أصول صعيدية موزعين ما بين القاهرة وجهينة، وكان عالمى أيضًا ما بينهما. كانت الأيام الأخيرة من رمضان باعثة على الشجن، والأسى الشفيف. كنت أتخيل كل شهر على هيئة بشر، وكان حظ رمضان فى مخيلتى الشيبة والتقدم فى العمر، ربما بتأثير حكايات الوالد.

الشيخ رمضان يفد علينا بالبهجة، والموعد اليومى المنتظم عند الأذان الذى يجمع العائلة حول طعام متميز إلى حد ما. لم يكن هناك تليفزيون، وكانت مصادر البهجة تتمثل فى السهر، والقدرة على اللعب فى الحارة بدون خوف من العفاريت التى كانت مرتبطة بالزوايا المظلمة والبيوت المهجورة (كان من بينها المسافرخانة الغامضة). كانت الحارة آمنة ليلاً، والسهر مسموحا به. وكان مرور عم حسن المسحراتى باعثًا على البهجة، وكنت أغالب النوم حتى أصغى إلى مروره، ودقات عصاه على الأبواب، وأصغى حتى يصيح بصوته ناطقًا اسم أبى.

بعد تناول السحور، يتأهب الوالد لصلاة الفجر فى مسجد مولانا وسيدنا الحسين، كان أهالى الدرب يتجمعون ليذهبوا جماعة، ولكم أثارتنى وما تزال تثيرنى هذه الرحلة الجماعية عندما بدأت أشارك فيها. يرتبط عندى فراغ المسجد الحسينى الجميل بالنور والعطر.

النور المنبثق من النور، نور الفراغ، نور المشكاوات، نور المقام الذى ما زلت أراه أخضر اللون، رائعًا، يضىء القلب. ومن أبى انتقل حب الحسين إلىّ، إنه المركز والمحور والمنبثق الجميل.

كان لصلاة العيد خصوصية. كنا نصلى فى الأزهر، ونصطف بين الجموع بعد انتهاء الصلاة فى انتظار هلة عبد الناصر، ولم يكن العيد بالنسبة لى يكتمل إلا بطلته، وظهوره على الناس. لم أعرف إنسانا ذا قوة

حضـور مثل عبـد الناصر، لم يكن هناك حـرس مكثف. كـان الحـرس الجمهورى الذى يتقدمه حتى منتصف الستينيات مكونا من عربتى جيب وثلاث دراجات بخارية فقط، وكان القوم يعرفون اسم الصول الذى يركب إحداها «عم على». كـان ظهور عبـد الناصـر ذروة البـهجـة والإثارة فى صباى، وكان حضوره يصل إلى كل منا، وكأنه صافح الواقفين فردًا فردًا.

بمروره يختلط الجمع. نرتـد من شـارع الأزهـر، وبعـد وصـولنا إلى البيت، بعد تناولنا الكعك والشاى باللبن، يتأهـب الوالـد لزيارة الراحلين من أشـقـائـى ومن أحـبـائه. دار الزمن دورته وصـرت أسـعى إليـه وإلى والدتى، لا يكتمل العيـد إلا بتلك الزيارة، إنها أصل من أصول المصريين المستمرة من أقـدم حـقب التـاريخ. وكثيرًا مـا كـان الوالد يوصينى بأداء واجب العـزاء قـبل التـهنئـة بالفـرح، العـزاء أهم، لتـخـفـيف الألم، وللمشـاركة، وقد أنفق عـمره كلـه فـى أداء الواجبـات، تجاه الأحياء، وتجاه الراحلين. وكـانـت زيارة صحبـه، الأهل والأصدقـاء منهـم ـ أول الواجبات فى أيام العيد.

هـذا أصـل من الأصـول، الأصـول العـمـيـقة التى حـافـظ عليـهـا المصـريون ومـارسـوا من خـلالـها فـهـمـهـم الكونـى للصلة بيـن الحـيـاة والمـوت، بيــن الشـاهــد والغـائـب، بين دفــن البـذرة ونمـو الزرعـة وتفتـحـها. إلـى هنـا ترجـع الأصول، وتشـمـل الأصول جميع نواحى الحياة وتفاصيلها. إنها باختصـار الحضـارة فى أرقى تجلياتها، ولكـم نحـن بحاجـة إلـى استعادة الأصول وتأكيـد ما نعيه منها.

حرمة الأسير

للأسير حرمة، هذا ما تعرفه تقاليدنا العربية الأصيلة منذ الجاهلية، حتى اليوم. مواجهة المحارب بالسلاح مشروعة طالما عنده القدرة على المنازلة، لكن بمجرد إلحاق الهزيمة به، وفقده سلاحه، وتقييده، يُصبح له حقوق. من أراد مراجعة حقوق ا لأسرى فى تراثنا العربى والإسلامى، فسيجد مادة خصبة فى المراجع القديمة كافة. للأسف، هذا ما لم نجده فى تعامل تركيا مع عبد الله أوجلان.

تابعت عبر الفضائيات وتابع معى الملايين فى العالم، ذلك التشفى التركى فى الأسير أوجلان، والذى بلغ ذروته بعصب عينيه، وإهانته، وتصويره أمام العلم التركى. أى شطارة؟ أى بطولة فى هذا؟!

يا للعار..

هذا التنكيل بإنسان أعزل فيه إدانة لمن يقوم به، ومن ساعد على الإيقاع بهذا الأسير، بدءا من الولايات المتحدة إلى إسرائيل مروراً باليونان، وكينيا وأوغندا، وإيطاليا.

إذا اختلف إنسان مع النظام العالمى الجديد، فأين يجد المأوى الآمن له؟ لا أعرف عبد الله أوجلان. لا أعرف إلا اسمه، لا أعرف تفاصيل حياته، لكننى أعرف أن أربعين مليون كردى يَعُدّونه رمزًا لهم، ألا يوضع هذا فى الحسبان؟ لكن برغم تعدد جوانب القضية فإن ما يعنيني البعد الإنسانى:

إنسان مطارد من نظام عسكرى، غشيم، عنصرى، متحالف مع الولايات المتحدة وإسرائيل يريد إلغاء هوية شعب بأكمله، إلغاء اللغة، والدين، والعادات، وكل ما يمت إلى الهوية تطبيقا للسياسة الكمالية القائمة على تتريك كل ما هو غير تركى. فجأة يصبح هذا الإنسان مطارداً، وترفض كل دول الغرب منحه حق اللجوء إرضاءً للحليف التركى.

أين إذن الحديث عن حقوق الإنسان؟!

أين صوت المنظمات النشطة هنا وهناك إزاء ما يجرى لإنسان أصبحت مشكلته العثور على مأوى وعلاج؟!

ماذا يفعل الإنسان إذا وجد نفسه مطارداً من الجميع، يُدفع به دفعًا إلى خصمه الذى سيحكم عليه بالموت؟

لا أعرف الظروف التي دفعت بأوجلان إلى سفير اليونان فى كينيا. من الواضح أنه غرر به، وتجرى المؤامرة بين الخصمين، اللدودين، اليونان وتركيا، وتتولى الموساد التنفيذ، ويقع أوجلان أسيراً فى قبضة النظام التركى. وما بثه التليفزيون التركى بشع ومهين للإنسانية، فيلم تم التقاطه داخل الطائرة.

أوجلان معصوب العينين برباط سميك، يغطيه لاصق أبيض غليظ - يا للفظاعة - ويبدو آثار مخدر قوى حُقن بـه. ثمة من يسأل، وأوجلان يجيب، حركاته تفيض بالمعاناة.

الكاميرا تركز على يديه، حولهما القيد الحديدى، الرجل لا حول له ولا قوة، حركة الكاميرا فيها تشف، استعراض بطيء للقيد، صورة مقربة جدا لوجهه حيث الرباط اللاصق.

ثلاثة من خاطفيه، يرتدون قمصانا مخططة، ربما كانوا من المخابرات الإسرائيلية أو التركية، ارتدى كل منهم قلنسوة سوداء تخفى ملامح وجهه

تمامًا (يا للشجاعة!)، يلعبون الورق، ويتصافحون ابتهاجا، بينما أوجلان معصوب العينين، مطرق إلى الأرض.

لقطات أخرى لأوجلان ممددًا على ظهره فوق أريكة مستطيلة، معصوب العينين، مقيد اليدين، مربوط بأحزمة عريضة، هل يخشونه وهو مقيد؟! أى حذر فى هذا؟! أى رجولة فى هذا الفعل القبيح؟! كان من الواضح أنه من المطلوب استعراض التشفى من إنسان أعزل، لا حول له ولا قوة.

ها هو ذا ينقل عبر سفينة حربية، مدمرة، محاطًا بحراس أتراك يدفعونه بخشونة، معصوب العينين أيضًا. مرة أخرى لا يؤلمنى مثل منظر أسير بلا حول ولا قوة يُهان.

ثم.. أخيراً، الصورة الفجة، الفضيحة التى نشرت فى صدر الصحف العالمية صباح الجمعة، وظل التليفزيون التركي يذيعها باستمرار.

أوجلان يقف مقيد اليدين، يقف وخلفه علمان لتركيا، بلونهما الأحمر، وهلالهما الأبيض، والنجمة. لهذا الفعل اسم واحد وصفة فى لغتنا المصرية الدارجة، صغرنة.

أذكر أثناء حرب أكتوبر أن سقط العقيد عساف ياجورى أسيرًا فى قطاع الفرقة الثانية، وعندما مثل أمام العميد أركان حرب حسن أبو سعدة، أدى التحية العسكرية، فبادله القائد المصرى التحية، وعلق على ذلك قائلاً لى:

«لقد انتهى بالنسبة لى كمحارب بمجرد سقوطه كأسير، ولا أقبل كقائد أن أهين إنسانًا سقط أسيرًا، تلك تقاليدنا، وعقيدتنا».

كان ذلك عام ثلاثة وسبعين. وفى الشهور الأخيرة من القرن العشرين يتفرج العالم على هذا التشفى التركى المقيت من إنسان لم يعد له حول ولا قوة، ولا نسمع كلمة احتجاج واحدة، أو بيانا يستنكر. حقًا، إنه عالم قاس، وأنا كإنسان مع أوجلان الإنسان!

تأملات قاهرية

يبث التليفزيون المصرى إعلانًا عن إحدى المدن الجديدة التى ينتهى اسمها بـ «لاند»، مستوطنات الأثرياء الجدد. يبدأ الإعلان من شارع قاهرى السمت، مزدحم طبعًا، الناس فيه عابسة، والزبون المستهدف يمشى مكتئبًا وسط هؤلاء القوم المتزاحمين، المتكدسين (الشعب يعنى!). ويعود الزبون إلى بيته ويبدو واضحًا أنه لا يقدر على التفاهم حتى مع امرأته الجميلة.

وهنا نصغى إلى صوت المذيع الذى يشبه الهدير أو النذير. وتنتقل الكاميرا لتستعرض المدينة الجديدة حيث البيوت الأنيقة، محاطة بالحدائق الوارفة، والهواء غير الملوث، وحمامات السباحة زرقاء المياه، والشوارع خالية، والحياة تسر الناظرين. ينتهى الإعلان بالزوجين السعيدين وهما يقفان أمام طفلهما الذى تمكنا من إنجابه بعيدا عن التلوث، والزحام، وأصحاب الملامح المجهدة، العابسة، الذين نراهم محشورين فى وسائل المواصلات، وفى المناطق العشوائية، والمدن المتهالكة هكذا..

إن هذه المدن التى تتدفق الإعلانات عنها، ليست نماذج فقط، لكنها واقع حقيقى مرتبط بتطور المجتمع، وحركة الثراء والفقر فيه. ودائمًا كانت هناك حركة فى المدينة لسكنى أثريائها. فى البداية كانت الحارة القاهرية ذات خصوصية فريدة، تضم القصر والبيت الثرى والربع الفقير الذى

يسكنه الناس، والتكية التى يعيش فيها الدراويش، والمسجد أو الكنيسة. وما تزال القاهرة القديمة تحتفظ بدرر فريدة من العمارة الإسلامية نرجو من الله أن تنجو سليمة من فترتنا هذه التى لم تعرف آثارنا إهداراً أو هواناً أو إهمالا كما يحدث لها الآن.

كان كبار الأمراء المماليك يقيمون قصورهم فى الجمالية، ثم بدأ التغير مع نشأة منطقة الأزبكية، التى كانت من أروع مناطق العالم. وفى القرن التاسع عشر، بدأت عملية التحديث، والتي رافقها للأسف دمار القاهرة القديمة خطوة، خطوة، خاصة مع شق الشوارع الطولية التى تقتدى بالبوليفار الأوربى مثل شارع محمد على، وشارع الأزهر.

كانت منطقة الأزبكية مهجورة، حتى عصر الناصر محمد بن قلاوون، عندما بدأ الأمير أزبك تعميرها، وأصبحت بجمالها وبحيراتها مركزاً لسكنى الأثرياء. وعدما جاء نابليون بونابرت إلى مصر، اتخذ من قصر الألفى بك مقرّا لقيادته، وقد أصبح هذا القصر فيما بعد فندقًا، عُرف باسم شبرد، احترق ما تبقى منه عام ١٩٥٢ فى حريق القاهرة الشهير، وكانت محطة سكة الحديد تقع شمال غرب بركة الأزبكية.

كان النيل يخترق القاهرة بعيدا عن المناطق السكنية بها، وقد عرفت شواطئه بعض نماذج لعمارات الرفاهية زمن السلطنة المملوكية، خاصة فى زمن الناصر محمد بن قلاوون، لكن العمارة تدهورت مع المصاعب الاقتصادية التى واجهت العصر المملوكى ثم انهيار السلطنة أمام العثمانيين فى مرج دابق عام ١٥١٧. ولم يتبق من مواقع الرفاهية على النيل إلا موقع قديم، هو قصر العينى، والسبب وجوده قرب فم الخليج، الموقع الإستراتيجى المهم زمن فيضان النيل، واستخدمه محمد على باشا قصراً للضيافة، ثم أصبح مستشفى شهيرا، ثم هدم المبنى القديم منذ سنوات وأقيم مكانه المبنى الحديث المعروف الآن بالمستشفى الفرنسى.

كانت الأراضى زراعية ممتدة فى المنطقة التى تقوم فوقها الآن منطقة جاردن سيتى، بدأ التعمير بها عندما بنى محمد على باشا قصراً لابنته زينب، هدمه فما بعد الخديو سعيد وبنى مكانه ثكنات للجيش المصرى، ثم أصبحت معسكرات للجيش الإنجليزى. وبدأ أفراد الأسرة العلوية فى تعمير منطقة جاردن سيتى. بنى إبراهيم باشا القصر العالى فى جنوب المنطقة، وعُرف فيما بعد بقصر الوالدة (والدة الخديو إسماعيل)، وشيد أحمد باشا شقَيق الخديو إسماعيل قصراً فيما بين النيل وشارع قصر العينى. ويقول الدكتور فتحى محمد مصيلحى فى كتابه القيم (تطور العاصمة المصرية): إن الخديو إسماعيل بنى سراى الإسماعيلية الكبرى، فوق الأرض الواقعة شمال جاردن سيتى، وتوقف عن إتمامها لضخامة ما أنفق عليها (ربع مليون جنيه!)، وموقعها الآن مجمع التحرير.

لقد ظلت منطقة جاردن سيتى منطقة شبه مغلقة على الأثرياء الباشوات فى النصف الأول من القرن الحالى، ولكن معالمها بدأت تتغير فى العشرين سنة الأخيرة بعد ظهور الأبراج التى تقام على مواقع القصور القديمة التى تهدم بطرق تحايل عديدة. ولم تقدم طبقة الانفتاحيين الجدد على السكنى فى جاردن سيتي خلال السبعينيات وحتى الآن، ربما لضيق المنطقة، وإصرار بعض الملاك القدامى على الاحتفاظ بقصورهم.

أما منطقة شبرا فكانت من مناطق سكنى الأثرياء أيضًا، وما يزال قصر محمد على باشا قائمًا. وقامت قصور أخرى لأحمد بدران باشا وزينب هانم. وكانت شبرا تعد من متنزهات القوم فى ا لقرن التاسع عشر، ولكن تبدل الحال فى القرن العشرين، وراحت الظروف تتغير تدريجيّا، إلى أن أصبحت من أكثر مناطق القاهرة ازدحامًا، وهذا ما صارت إليه المناطق التى لجأ إليها الأثرياء الذين كانوا يبتعدون دائمًا عن المدينة التى لم تكن بعد قد أصبحت مزدحمة، تعوق الإنجاب كما يصور إعلان التليفزيون، ولهذا تفصيل يرتبط بتاريخ مدينتنا وبالأحوال التى لا تستمر على حال.

تغريب القاهرة

تشهد القاهرة الآن تحولات مهمة فى نموها كمدينة، ستكون لها آثار بعيدة المدى خلال القرن القادم. وأهم ما يجرى الآن هو إعادة صياغة المدينة لمصلحة عدد محدود من الأثرياء، وإنشاء ما يمكن تسميته بمستوطنات الرفاهية، سواء على ضفتى النيل الذى حوصر بالأبراج الفاخرة التى يسكنها الأثرياء الجدد، أو المدن الجديدة التى يجري الترويج لها من خلال التليفزيون، ومنابر الإعلام المختلفة، وتحمل كلها أسماء أجنبية تشبها بضواحى كاليفورينا، ولوس أنجلوس، وغيرهما، بينما يجرى التخطيط لحصار المناطق القديمة من المدينة ذات المضمون التاريخى والأثرى. وأخطر ما يجرى بالنسبة لهذه المناطق تفريغها من سكانها، والدفع بهم إلى العشوائيات التى تحيط بالقاهرة، هذا ما يجري الآن، ولنا عودة إليه. لكننا نعود إلى نهاية القرن الماضي، لكى نرى جذور التحولات فى المدينة ودرجاتها.

يقول أندريه ريمون المؤرخ الفرنسى المتخصص فى تاريخ القاهرة: إن دلائل التغيير لم تظهر إلا بصورة ضعيفة للغاية خلال الفترة التى تفصل بين وصول بونابرت (١٧٩٨) وبين تولى إسماعيل باشا للحكم (١٨٦٣)، لم تتغير هيئة القاهرة إلا قليلا. كان علماء الحملة الفرنسية قد قدروا عدد سكان القاهرة بـ ٢٣٠ ألفا، وعند وفاة محمد على باشا عام ١٨٤٩ لم

يـزد هـذا الرقـم إلا قليـلا . فى عـام ١٨٦٣ وصل إلى أكـثـر من ثلاثمـائـة ألف بقليل .

لكن الصحوة العمرانية جرت فى عهد إسماعيل . لقد تولى الحكم فى العام المذكور، وبدأ على الفور مشروعًا شاملاً لتطوير المدينة، وبدأ التعمير خارج المدينة القديمة، القاهرة الفاطمية تقوم إلى الشرق، والقاهرة الحديثة أو الرومية كما أطلق عليها بعض الكتاب، كانت تقوم إلى الغرب، وما بين المدينتين، ميدان العتبة، عتبة الدخول إلى القاهرة القديمة المحصنة التى بدأت أولى محاولات انتهاكها فى فترة التواجد الفرنسى بمصر، إذ كان الأزهر بؤرة الثورة، وكان لا بد من شق طريق رئيسى يسهل وصول القوات الفرنسية إلى المركز الروحى للمصريين . هكذا فتح الفرنسيون شارع السكة الجديدة لهدف عسكرى، وقاموا بتقسيم القاهرة منذ بدايات الاحتلال إلى ثمانية أقسام، ومن هنا جاءت تسمية أقسام الشرطة الرئيسية بالثمن، إذ كان يوجد ثمانية أقسام شرطة، وساعدت هذه المراكز على إدارة المدينة، وجباية الخراج، وضبط الأحوال عن طريق مشايخ الحارات . وبعد ثورة القاهرة الأولى انتزع الفرنسيون أبواب الحارات، جاء فى يوميات ديتروى بتاريخ الرابع من أغسطس عام ١٧٩٨ ما نصه :

«تزدحم الشوارع بعدد هائل من الأبواب التى تفصل بين أحياء المدينة المختلفة . لقد خشى القائد العام من استخدام هذه الأبواب وأمر بهدمها» .

وتحدث الجبرتى فى حولياته عدة مرات (٢٣ من يوليو و ٢٢ من سبتمبر و ٦ من نوفمبر) عن نزع أبواب الدروب من أماكنها، ونقلت الأبواب إلى حديقة الأزبكية حيث تم تقطيعها ثم استخدامها لتلبية احتياج الجيش أو للتدفئة .

الغريب أن الموقف نفسه يتكرر فى زمن الاحتلال الإنجليزى لمصر، خلال أحداث ثورة ١٩١٩ . كان الأزهر يمارس دوره التاريخى كمنبر لجهاد الشعب وكان مركزًا لأحداث الثورة، وكان منبرًا للوحدة الوطنية بين المسلمين والأقباط . استوعب الإنجليز الدرس، وخططت هيئة التنظيم لشق شارعين طوليين، طبقًا للنظام الأوربى (البوليفار)، الأول شارع الأزهر الذى يسهل الحركة من منطقة الثكنات التى يتمركز بها الإنجليز (ميدان التحرير الآن) إلى المدينة القديمة، القاهرة الفاطمية العريقة . كان شارع الأزهر يشق المدينة القديمة، وكان أخطر خطوة فى اتجاه تدميرها، وشطرها إلى نصفين، الجانب الجنوبى يتبع الدرب الأحمر، والشمالى يتبع الجمالية . لم يكن مجرد شارع حديث فقط، إنما ارتبط بأهداف الاستعمار لتدمير المركز الروحى للشعب وشطره . ثم مد ترام فيه، أذكره جيدًا، كان مواصلة فرعية، يبدأ من أمام الأزهر وينتهى فى العتبة، وكان يمكن ركوب الخطوط الأخرى بنفس تذكرته، أزيل هذا الخط عندما أصبح عبئًا على المرور فى نهاية الستينيات، ثم أقيم الكوبرى القبيح الممتد حاليًا بطول الشارع . وعندما اتصلت الحركة بين طريق صلاح سالم وشارع الأزهر، انتقلت الحركة إلى صميم المدينة القديمة ومزقتها، وتم عزل شطريها بسور حديدى يشبه أسوار السجون .

لقد ظلت القاهرة القديمة هدفًا لكل أجنبى يتمكن من مصر، الإنجليز ومن قبلهم الفرنسيون، ومن بعدهم أنصار العولمة وإلغاء الهوية . لكن لكى نفهم ما يجرى فى حاضرنا، يجب أن نعود إلى ماضينا، ولهذا تفصيل .

تساؤلات حول القاهرة الفاطمية

لماذا استعراض ما جرى فى الماضى لمدينة القاهرة؟

للتمعن وفهم ما يجرى التخطيط له، ومجمل التحولات الخطيرة، التى يتم التخطيط لها حاليًا بالنسبة للقاهرة القديمة. إن من يستعرض القاهرة وما كانت عليه فى بداية القرن، لن يتعرف على مضمونها الآن، ومن يستعرض ما أتيح من معلومات عن مشروع تطوير القاهرة الفاطمية الذى ظهر فجأة، محاطًا بسرية بالغة، وبدأت ترشح معلومات عنه أصفها بأنها مخيفة فى مجملها، إذ تعنى إنهاء الوجود التاريخى للمركز الروحى للمدينة، بل المركز الروحى لمصر كلها، حيث معظم الآثار الإسلامية، وأهمها الأزهر.

إذا صح ما يتردد الآن عن انتزاع البشر من القاهرة الفاطمية وتهجيرهم إلى مكان آخر فى مناطق مثل منشية ناصر وأطراف القاهرة، فإنها الكارثة الكبرى التى ينفذها وزير الثقافة ويخطط لها منذ فترة بعيدًا عن الإعلام. إن البشر فى القاهرة القديمة هم المكان، والمكان هو البشر، وإعادة صياغة القاهرة القديمة من أجل الاستثمار فقط سوف يقضى على هوية المدينة القديمة إلى الأبد، ويحولها إلى ما يشبه بلاتوه ضخم معد للسائحين.

والملاحظة العامة لأداء الحكومة الحالية، أن الكثير من مشروعاتها الكبرى، وبعضها له آثار بعيدة المدى، تظهر فجأة، بدون تمهيد إعلامى،

أو معلومات كافية. هذا ما جرى بالنسبة لمشروع توشكى على سبيل المثال، وهذا ما أثار اللبس حوله والبلبلة حتى الآن، رغم أنه مشروع مصيرى بالنسبة لمصر كلها، والأهداف التى أعلنت عنه جعلتنى من المتحمسين له، لكن.. لماذا خرج فجأة؟ هذا ما ينطبق أيضا على مشروع تطوير القاهرة الفاطمية الذى لم تعلن تفاصيله الكاملة حتى الآن.

على سبيل المثال أكتفى بطرح عدة تساؤلات.

* من يمول عملية إنشاء النفق الذى سوف ينقل حركة المرور من سطح الأرض إلى باطنها؟ إننى أتأمل المعدات الحديثة جدًّا الضخمة وأحار، من يدفع مئات الملايين من الجنيهات؟ أهى الحكومة؟ أم توجد عملية إنشائية استثمارية، إذن.. من هؤلاء المستثمرون؟ أجانب أم مصريون، أفراد أم شركات؟ وإذا كانوا يوظفون هذه الملايين كلها فما العائد المنتظر؟ وكيف؟ لقد قرأت أن الدراسة التمهيدية تتم بمنحة إيطالية، وظهور اسم إيطاليا الآن يثير الريبة والخشية. إيطاليا هى التى تقف وراء مشروع باب العزب.

* ما ملامح المشروع؟ ما منطلقه؟ أهو ثقافى يأخذ فى الاعتبار النهوض بالقاهرة الفاطمية شكلا ومضمونًا، والحفاظ على ثروتها البشرية التى تمنحها الخصوصية، أم أنه ذو منطلق استثمارى، يهدف إلى تحويل قاهرة المعز إلى مشروع استثمارى؟ لقد توقفت طويلا أمام سطر فى خطوات المشروع يتحدث عن المشروع الاستثمارى على جانبى شارع المعز، أى استثمار على جانبى شارع المعز وكله مستثمر بالفعل؟! الشارع مقسم إلى أسواق بعضها عتيق، مثل الصاغة والنحاسين والغورية والخيامية؟

* إن القاهرة الفاطمية متدهورة بالفعل، وإنقاذها ضرورى، إن منع السيارات من شارع المعز خطوة نطالب بها منذ أعوام طويلة، وشارع الجمالية، ونقل الأنشطة الداخلية مثل ورش الألمنيوم والخراطة، ما يجب

أن يبقى الصناعات الحرفية القديمة المرتبطة بالمنطقة، فهل سيتم إحلال مشروعات أخرى تفقد القاهرة الفاطمية طابعها؟

* قرأنا أيضًا عن ساحات سوف تنشأ وميادين، ومتحف مفتوح، فما حدود هذا التخطيط الجديد؟ وهل سيغير من طابع القاهرة القديمة؟

* أكرر ما طرحته، هل المنطلق استثمارى أم ثقافى؟

أسئلة عديدة لا إجابة عنها حتى الآن، مع أن العمل يستمر بفاعلية كبرى فى النفق وفى المشروع كله الذى لا نعرف عنه تفاصيل كافية حتى الآن، فلماذا التعتيم، مع أن الأمر يتعلق بالقاهرة، القاهرة؟!

طنــــاش

أكثر من ساعتين أمضيتهما باحثًا، منقبًا فى قواميس اللغة العربية التى أحتفظ بها إلى يمينى، باحثًا، مدققًا، عن ذلك اللفظ العجيب، غريب الدلالة، الذى نستخدمه فى لغتنا كثيرًا تلك الأيام، لكننى لم أعثر له على أثر.

بحثت فى لسان العرب لابن منظور - أحب وأقرب القواميس إلىّ - وفى القاموس المحيط للفيروز آبادى، وتاج العروس للزبيدى، وعدت إلى المخصص لابن سيده، فلم أجد أى أثر للفظ «طناش»!

قلت: فلألجأ إلى المؤلفات المتخصصة فى الألفاظ المشتركة بين الفصحى والعامية، مثل «القول المقتضب فيما وافق لغة مصر من لغة أهل العرب»، لكننى لم أوفق، وكتاب «ألفاظ عامية مصرية» للدكتور محمد داود التينر، من المحدثين، لكن لا أثر.

فكرت فى تلك القرية الجميلة، الهادئة التى تلى إمبابة، المطلة على نيل ساحر، لم تدركه الأبراج بعد، ولم يكتشفه الأثرياء الجدد، من أين جاء اسمها (طناش)؟! وفسرت الأمر بحكاية جرت على ألسنة القوم تتعلق بالأماكن. ولكم أتمنى أن يخبرنا الزميل العزيز عباس الطرابيلى بأصل (طناش) هذه، فهو مغرم، باحث فى غرائب أسماء المصريين، والأماكن المصرية، والطعام، لعل وعسى.

(طناش) لفظ يستخدمه المصريون كناية عن الإهمال المتعمد، وبالتحديد إهمال الإجابة. يُقال «ضرب طناش» أو «طنّش» بمعنى أنه لم يبد «اهتماما». إن (طناش) لفظ يمكن أن يظل بلا معنى، إذا لم يوجد «المطنش» وهو اسم الفاعل، أما اسم المفعول فهو «المطنش عنه» أو «المطنوش» إذا جاز التعبير أو الاشتقاق.

لماذا أهتم بذلك اللفظ؟

لأن حكومتنا العبقرية اكتشفته، واستخدمته ببراعة، حولته إلى سياسة. أصبح الطناش سمة أساسية من سمات الحكومة الحالية، وتجاوزت بذلك أخطاء الحكومات السابقة التى كانت تتظاهر بالإصغاء، فيرد بعض وزرائها أو الوزير الأول (رئيس الحكومة) على بعض ما يُكتب عنهم، أو ما يوجه إليهم من نقد، أو استفسارات، والأهم من قبل ومن بعد أحوال الرعية، وبالرعية تكتمل الحكومة، فبلا حكومة لا تكون رعية، والرعية فى حاجة إلى حكومة، تيسر أمورها، وتضبط أحوالها.

لكن جرى تطور غريب، مثير فى أحوالنا، وفى العلاقة بين الطرفين، إذ تباعدت المسافة بين الطرفين حتى أصبحت هوة فسيحة. فالحكومة لديها الثقة الزائدة بالنفس. إنها قديمة، راسخة، وبعض أعضائها تجاوز مكوثهم العشرين عامًا فى منصب الوزارة، وأى حديث عن التغيير يبدو ضربًا من المحال. وينتشر الكثير عن فساد البعض فلا يزدادون إلا رسوخًا وتمكنا، فلماذا يوضع اعتبار لأى نقد، أو شكوى.

هكذا بدأنا نطالع لأول مرة استغاثات على الصفحات الأولى من الصحف، إعلانات تكلف الكثير من فئات اجتماعية مختلفة، بعضها قادر فى الظاهر، ولا نقرأ إجابة. ومنذ سنوات قريبة كان يطالعنا فى

بريد الصحف رسائل مديرى العلاقات العامة بالوزارات والمؤسسات. اختفى هذا الآن بعد تحقق سياسة (طناش).

وأستعيد العصر المملوكى عندما كان حكام البلد فى واد، والناس فى واد. كان القوم (أعنى المصريين) إذ يضيق بهم الحال أو تقع بهم مظلمة، يلجئون إلى الأزهر فيلطمون الخدود، ويشقون الثياب، ويرفعون الصوت بالعويل، رجالاً ونساءً. عندئذ قد يستجيب أحد أمراء العصر فينزل إليهم، ويجبر بخاطرهم.

ما أشبهنا نحن الكتّاب الآن بأجدادنا! فنحن نصيح ونشكو ونحذر من روائح تزكم الأنوف، ونطلب فقط توضيح بعض الأمور لكى نفهم، فقط لكى نفهم بعض ما يجرى (وجهت على هذه الصفحة أسئلة محددة منذ أسبوعين حول مشروع تطوير القاهرة الفاطمية، وحتى الآن لا إجابة، هذا فقط على سبيل المثال). ربما نسمع البعض يقولون من جانب الحكومة: أنتم تنعمون بالديموقراطية، تتكلمون كما يحلو لكم ولا يلحق بكم أذى، ألا يكفى ذلك؟

الحمد لله، نعم، لنا حرية الصياح، ولكن أجدادنا كانوا يجدون من يستجيب لهم. أما نحن فلا نواجه إلا بالطناش، الطناش التام هو الذى يواجهنا. يبدو الطناش مريحًا فى بدايته، وربما يدعو إلى الوهم، إلى الثقة، ولكن اعتماده كسياسة له مخاطره، لعلنا نلمح إليها مع إدراكنا مقدما بأنه لا فائدة مادام الطناش قائمًا، معتمدًا من حكومتنا القوية!

طناش الطناش

أصدقاء وقراء اتصلوا بى، أو أرسلوا لى ما يعين على إيضاح وفهم أصل كلمة «طناش»، ذلك اللفظ العجيب، الذي تحول إلى سياسة حكيمة، عميمة، راسخة، مبتكرة، تتبعها حكومتنا الرشيدة. سياسة مضمونها: تكلموا كما تشاءون، اكتبوا ما تريدون، ونحن نفعل ما نريد. نحن نكتب، وهم يقدرون، هم فى واد، والناس فى واد، وليلاً ونهاراً تتردد عبارات مصكوكة، مدموغة.

«أنتم تعيشون أزهى عصور الديمقراطية..».

ومثل هذه الجمل المفيدة أدت دوراً مهما فى تاريخنا الحديث، وفى حاجة إلى رصد وتأمل. إذن نعود إلى طناش وما تعنى.

الصديق الروائي بهاء طاهر نصحنى بالبحث فى المزيد من المعاجم، خاصة المعجم الوسيط، وبالفعل عدت إليه، المجلد الثانى، وتوقفت عند حرف الطاء فى الطبعة التى أصدرها مجمع اللغة العربية. وهذا القاموس حديث، موجز، سهل بالنسبة للقارئ. لا توجد الكلمة بنصها، بل توجد كلمات قريبة منها.

* (طنز) به طنزاً: سخر واستهزأ.

* تطانزوا: سخر بعضهم من بعض.

لكن يظل المعنى بعيداً . فالطناش لا يعنى السخرية وإن تضمنها ، إنما يعنى التغاضى والتجاهل العمد وصم الأذنين ، والتظاهر بعدم الاهتمام ، لأن معنى الطناش أن (المطنش) يتعمد الطناش ، فهو يسمع لكنه لا يرد ، ويعلم لكنه يصمت .

الصديق والزميل سليمان الحكيم له اهتمام باللغة ومشتقاتها ، أرسل لى خطابًا صباح الاثنين ، أى يوم صدور الأسبوع ، يقول فيها :

«تساءلت فى الأسبوع عن معنى كلمة (طناش) التى يذكرها المصريون كثيراً فى كلامهم العابر ، وقد سبقك الكثيرون إلى طرح تساؤلات حول معنى الكلمة ، وهو ما يعنى أهميتها وخطورتها فى تحديد شخصية المواطن المصرى الذى يكثر من استخدامها . وحين بحثت فى المعنى وجدت أنها تتكون من كلمتين فى صيغة الإضغام وهما (تناسى) و(شيئا) ، وحين تدغمان معًا تنطق هكذا «تنش» أو «طنش» ، وذلك لتشابه وتوالى السين فى (تناسى) مع الشين فى (شيئا) ، فتسقط السين وتنطق الشين ، كما تحل الطاء مكان التاء لقربهما نطقا ولفظًا . وذلك معروف فى اللغة العربية مثل كلمة «معلش» التى تعنى «ما عليه شيء» و(ما تزعلش) مثل كلمتى «ما تزعل شيئا» . .

اجتهاد الأستاذ سليمان الحكيم يحتمل الصحة . وأيا كان الحال فنحن أمام ظاهرة حقيقية تمارسها الحكومة ، نتيجة الشعور الشديد بالثقة ، والقوة المطلقة ، وعدم أهمية ما تطلق عليه اللغة لفظ الرعية . ولكن بتأمل قليل نكتشف أن الرعية أحيانا تمارس نوعًا من الطناش . ولعل هذا يفسر ظاهرة تجاوز التعليمات الموضحة التى تضعها الحكومة ، أو غض النظر عن القواعد ، ليس كل القواعد ، ولكن تلك القواعد التى تعلنها الحكومة ، وعندئذ تظهر قواعد أخرى من صميم المجتمع نفسه لتدير شئونه ، فالمجتمع المصرى قديم ولا بد أن تمضى الحياة .

هذا ما نلاحظه فى المناطق العشوائية المحيطة الآن بالقاهرة، حيث لا وجود فعليا للحكومة، ومثل هذه المناطق لا وجود لها على خريطة الإعلام الرسمى، وممنوع ظهورها فى التليفزيون، وكثير منها لا ملامح إدارية لها، لا أسماء شوارع، لا أرقام بيوت.

أما الحديث عن قرى الصعيد ومدنه، فيبدو الطناش فى أوضح معانيه. يكفى فقط رحلة بالقطار المتجه إلى صعيدنا لكى نرى ونعاين إهمال الجنوب وأهله قبل النزول فى أى محطة. وما من مرة أتجه فيها إلى الصعيد خلال العامين الأخيرين إلا وينتابنى الإحساس بأننى بعيد جداً فى المكان والزمان.

الحكومة هناك فى القاهرة المزدحمة، مركزية، قوية، مزدهرة، مطنشة ليس عن الأحوال، لكن إزاء ما يُكتب أو يقال أو الشكاوى التى يرسلها الناس عبر البريد أو ينشرها القادرون فى هيئة استغاثات، استغاثات معلنة، أو يلجأ إلى ما فعله (طيفور) المصرى البسيط، الفصيح، الذى يذكرنا بالشكاوى المصرى الشهيرة، ولكن.. ليس فى كل مرة تسلم الجرة.

السؤال هو. إذا استمرت الحكومة فى اعتماد سياسة (الطناش)، وإذا لجأت الرعية أيضا إلى (الطناش)، فماذا تكون النتيجة؟ وكيف يكون الحال عندئذ، عندما تتظاهر الحكومة أنها لا تسمع ولا ترى، وكذلك تفعل الرعية؟! حال صعب، ليس أصعب منه إلا محاولة فهم كلمة (طناش) ذاتها(*).

(*) «نُشرت فصول هذا الكتاب فى جريدة «الأسبوع» منذ عام ١٩٩٧ حتى أغسطس عام ١٩٩٩».

المحتويات

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

رقم الإيداع ٩٩/١٥٨٢٧

الترقيم الدولى 2 - 0585 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص. ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

إبراءُ الذمّة

خلال العقود الثلاثة الأخيرة، تعرض الوطن لمتغيرات عميقة تزايدت فى السنوات الأخيرة، مما أدى إلى أنها مسَّت الثوابت. وثمة شعور قوى أن ظروفاً يمر الوطن بها خلال تلك الحقبة تؤدى إلى اغتراب وعر، يرجع ذلك إلى أسباب شتى، منها العالمى والمحلى ومنها العابر والمؤقت. غير أن الأسباب الفاعلة، النابعة من التطورات التى شهدها مجتمعنا تظل هى الأساس.

لقد عرفت مصر مراحل مؤلمة فى تاريخها الممتد الطويل، ولكن ما يمر بها خلال تلك السنوات الأخيرة من القرن العشرين ثقيل، وخطير. ورغم ذلك فإن فى الوطن إمكانات يمكن أن تساعد على اجتياز ما نمر به الآن ومقاومة المخاطر التى نواجهها.

وللكتابة دور، حتى وإن بدا تأثيرها بطيئاً وحتى إن سادت روح مؤداها: دعهم يكتبون ونحن نفعل ما نفعل.

من هنا، يحاول جمال الغيطانى ـ بحسٍّ أديب مهموم بوطنه ـ أن يبرئ ذمته كواحد ممن ينتمون إلى جيل سبق أمام زمن وأجيال قادمة.



دار الشروق